صفحات من التاريخ الحضرمي

بقلم الأستاذ
سعيد عوض باوزير

مكتبة الثقافة
عدن



تنبيه

التعريف والصورة لكتاب آخر لابن المؤرخ وضعت خطأ الناشر

الأستاذ: أمين سعيد عوض باوزير في سطور:

* ولد بغيل باوزير في يوم السبت ١٧ رمضان ١٣٥٦هـ الموافق ٢٢ نوفمبر ١٩٣٧م في محافظة حضرموت من بيت علم وعرفان ووالده المؤرخ والأديب المعروف الشيخ سعيد عوض باوزير رحمه الله تعالى.

* تخرّج من المعهد الديني بغيل باوزير عام ١٩٥٤ ودرس علوم الشريعة واللغة على يد كبار العلماء بحضرموت.

* قدم إلى عدن عام ١٩٥٦ والتقى بعلمائها الأفاضل وأخذ عنهم وارتشف من معينهم من أمثال الشيخ كامل عبد الله صلاح والشيخ محمد سالم البيحاني والشيخ علي محمد باحميش وغيرهم.

* بعد وفاة الشيخ محمد سالم البيحاني فكر أن يعيد حلقة القرآن الكريم التي أقامها الشيخ محمد البيحاني وعزم على تحفيظ القرآن الكريم، ومن يومها وهو مستمر في هذا المشروع الجليل وفي عام ٩٣ انتقل بحلقته إلى مسجد (مذيهب) بحكم انتقاله رسمياً كإمام وخطيب للمسجد المذكور سائلاً المولى العون والتوفيق في مهمته.

* ساهم في مسابقات عديدة داخلية وخارجية ومنها في عام ١٩٨٧م نالوا فيها (درجة تفوق) بالمملكة العربية السعودية وكانت تحت إشرافه.

* ساهم في مسابقات رمضانية مع طلبته على القناتين الأولى والثانية عام ٩٢ ـ ٩٣م.

* انتدب مدرساً من قبل المعهد العلمي لتحفيظ القرآن فرع عدن بمساجد كريتر ٩٢ ـ ١٩٩٣م.

* بدأ عمله في ١٤/١١/١٩٩٢م كإمام وخطيب لمسجد مذيهب بشارع الملك سليمان بكريتر ـ عدن.

* يشارك في كل المناسبات الدينية بالكلمة والقصيدة بمساجد عدن.

* له عدة مؤلفات قيمة منها:

١ ـ المختار المفيد في علم التجويد في طبعة أنيقة الطبعة الأولى ١٩٨٨م دار العليان.

المختار المفيد في علم التجويد في طبعة أنيقة الطبعة الثانية ١٩٨٩م.

٢ ـ حلقة القرآن الكريم بمسجد العسقلاني في طبعة أنيقة الطبعة الأولى ١٩٩١ دار الفكر/ بيروت.

٣ ـ حلقات القرآن الكريم بمساجد عدن مخطوط

١٤٣

صفحات
من التاريخ الحضرمي

بقلم الأستاذ
سعيد عوض باوزير

مكتبة الثقافة
عدن

مكتبة الثقافة

فايز بن عثمان بن صالح بن شملان
عـــدن - كريتـــر - شـــارع ابـــان ص.ب : ٩٠٠ - هاتف : ٢٥١٥٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيد خلقه محمد وعلى آله وصحبه

أما بعد :-

فهذه « صفحات من التاريخ الحضرمي » ، عرضتها فى شكل تراجم لشخصيات حضرمية ، اخترتها من طبقات وطوائف مختلفة ، ورتبتها ترتيبا زمنيا حسب ظهورها على مسرح التاريخ منذ فجر الاسلام إلى عصرنا الحاضر ، متتبعا فى تاريخ هذه الشخصيات النواحى العامة التى تصوّر الحياة السياسية أو الاجتماعية فى العهود التى عاشت فيها ، قاصدا بذلك تمكين القراء من الاطلاع على التاريخ الحضرمى من جوانبه المختلفة وفى أهم أدواره ، سالكا سبيل الايجاز ، مقتصرا على التعرض لأبرز الحوادث التى توضح المعالم التاريخية لهذا الجزء المهم من جنوب الجزيرة العربية

وكنت أودّ أن أضيف إلى هذا الكتاب شخصيات أخرى فى التعرض لتاريخها تحقيق لبعض الغرض الذى قصدت اليه ، ولكن حال دون ذلك قلّة ما لدىّ من المعلومات عن هذه الشخصيات ، وسوف أحاول الكتابة عنها فى طبعة ثانية من هذا الكتاب أو فى جزء مستقل ، عند ما تتوفّر لدى المصادر الكافية للحديث عنها وتصوير العهد الذى عاشت فيه .

وقد حرصت اثناء كتابتى لهذه الفصول التاريخية على التقيّد بمنهج خاص ، محاولا بذلك الابتعاد عن مسالك الخطأ ومواقع الزلل ، فكنت مثلا أتجرّد عن كل رأى سابق حتى يثبت البحث صحته ، وأتشكك فيما هو من قبيل المبالغات ، وأقارن بين الحوادث وبين ظروف الزمن الذى حدثت فيه ، وأقف موقف الحذر من رواية كل صاحب مذهب أو عقيدة تؤيّد مذهبه أو عقيدته ، وأحاول الجمع بين النصوص المتعارضة قدر الامكان

ولست ادرى إلى أى حدّ كان نصيب هذه المحاولة الشاقة من التوفيق ؟ ولكنى أظن أننى كنت أمينا فى تطبيق هذا المنهج ، حريصا على هذه الامانة قدر الامكان ، وهذا هو حسبى وكفى .

غبل باوزير ـ حضرموت — المؤلف

رمضان ١٣٧٦ هـ ابريل ١٩٥٧ م — سعيد عوض بن طاهر باوزير

مقدمة

لما كانت تراجم الشخصيات التى يتألف منها هذا الكتاب مقتصرة على عرض المهم من الاحداث السياسية والاجتماعية التى مرّتْ بالبلاد الحضرمية فى عهودها الاسلامية ، فقط رأيتُ من الواجب أن أُقدّم لقراء هذ الكتاب موجزاً للمعروف من تاريخ حضرموت الجاهلى منذ أقدم عهودها إلى أن أكرمها الله بالاسلام ، ففى ذلك رَبْطٌ للمعلومات التاريخية واتمام للفائدة ، ولعل فى هذه المقدمة ما يحقق هذا الغرض .

عاد

المؤرخون حتى الآن ـ لا يعرفون من سكن الاحقاف قبل عاد ، فعندهم أن قبيلة عاد أقدم الأقوام البائدة ، حتى ان الناس يضربون بقدمهم المثل ، فاذا أرادوا المبالغة فى شىء قالوا عنه إنه عادى : أثر عادى ، وبناء عادى

والقرآن الكريم يذكر أن الاحقاف كانت مساكن قبيلة عاد ﴿ واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالاحقاف ﴾ والاحقاف الذى يشير اليه القرآن هو الرمل بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشحر ، أما أخو عاد فهو النبى هود عليه السلام ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ . فعادٌ ـ اذن ـ هم قوم هود ﴿ ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بُعدا لعادٍ قوم هود ﴾

والاخبار عن عاد قليلة جدا ولا يستطيع الباحث المحقق أن يطمئن منها إلى أكثر مما ورد فى القرآن الكريم عنهم من أنهم كانوا يعبدون الاوثان ويكذبون برسالة هود ويصرّون على كفرهم فأهلكهم الله بالريح :

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنُّك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح لمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد

نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تُفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من المنتظرين ﴾

ويقول المفسرون : ان عادا أصابهم قحط شديد وجفاف دام سنوات فاضطر قسم منهم إلى الرحيل إلى البيت الحرام للاستسقاء ، وفى أثناء غياب هؤلاء حل العذاب بقومهم حيث كانت الريح تدخل تحت الرجل منهم فتقذف به كما كانت تقلع الشجر وترفع البيوت فتهدمها وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله :

﴿ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بأمر ربها فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾

ولم ينج من هذا العذاب إلا هود ومن آمن به ومن هؤلاء الوفد الذى عاد من مكة تتألف عاد الثانية كما يقول المؤرخون . وقد زعموا أن الملك اتصل لهم ألف سنة أو يزيد . وهم يستدلون على وجود طبقتين لعاد ظهرت الثانية منها بعد هلاك عاد الاول بقوله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾

ويذكر التاريخ أن خلافات حدثت بين عاد الثانية وقبيلة ثمود المجاورة لها أدت إلى نشوب حرب بين الفريقين كان الظفر فيها لثمود حيث قتل عدد كبير من عاد وتفرق الآخرون فلا يعلم ما كان من أمرهم بعد

وقد كانت منازل ثمود فى الجهات الجنوبية بين عسير واليمن وحضرموت ثم انتقلت بدواع غير معلومة بعد حروبها مع عاد من بلادها الأصلية فى الجنوب إلى شمال الحجاز فى وادى القرى ، وأنشأت فى العلا ومدائن صالح والحجر منشآت بقيت لنا آثارها حتى الآن

ويقول الدكتور جواد على فى ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ ان هناك حقيقة تاريخية

تؤيد الروايات العربية التى تقرن اسم عاد بثمود فقد عين بطليموس موضع عاد وجعلهم فى شمال غربى الجزيرة على مقربة من ثمود وكلهم يسكنون فى أعالى الحجاز فى هذه المنطقة الجبلية التى تخترقها الطريق التجارية التى توصل الشام ومصر بالحجاز واليمن ، وقد أدرك بعضها الآخر كما يظهر من رواية بطليموس ، وقد عثر على نقوش ثمودية فى اليمن مما يدل على وجود صلات بين ثمود واليمن ولعلهم كانوا يقيمون فى اليمن

ويذكر بعض الرواة أن هودا ارتحل ومن معه من المؤمنين بعد النكبة التى حلت بقومه إلى الشحر ، وقال آخرون إلى ناحية اليمن ، فلما مات دفن بارض حضرموت ، ولم يقم دليل تاريخى علمى — حتى الآن — على موضع قبر النبى هود عليه السلام ، ويزعم الناس فى حضرموت أن القبر الذى يقصده الناس كل عام للزيارة فى منتصف شهر شعبان هو قبر هود ويقع فى شرق وادى حضرموت بالقُرب من وادى برهوت

وحتى يعثر الباحثون على الآثار التى تقدم المعلومات الصحيحة عن تاريخ عاد فان كثيرا مما ذكره المؤرخون عن ذلك العهد يجب أن ينظر اليه بكثير من الشك والتردد إذ لا دليل على هذه الاخبار سوى أقوال الرواة من الأخباريين الذين لا يستندون فى أقوالهم إلى نصوص علمية معترف بها

وكما أنه لا يمكن الاعتماد على هذه الاخبار فى تحقيق الاحداث التى حصلت فى عهد عاد وبلادهم كذلك لا يمكن تحديد الزمن الذى قامت فيه حكومة عاد حتى تقوم ادلة تاريخية قاطعة على ذلك بما يسفر عنه التنقيب عن الآثار فى يوم من الايام

القحطانيون

يرجع المؤرخون نسب أقدم من سكن حضرموت بعد عاد إلى قحطان بن عابر بن شالخ ابن ارفخشد بن سام ابن نوح عليه السلام . ويذكر النسابون لقحطان عدة اولاد من بينهم حضرموت ويعرب وعُمان وجرهم . ويزعمون أن يعرب بن قحطان كان ملكا باليمن وانه غلب بقايا عاد ووزع إخوانه على الاقطار فاقرّ أخاه حضرموت على الأرض التى سميت باسمه قيل

لها حضرموت، وعين عمان على ارض عمان وولى جرهما على الحجاز ومن نسل هذا جرهم الثانية لا البائدة . وهناك أقوال أخرى فى تسمية حضرموت بهذا الاسم وكلها مما لا يستطيع طالب الحقيقة ان يطمئن اليه

مملكة حضرموت

الكتابات الجاهلية التى ترجم المستشرقون عددا منها تحدثت بشىء من الوضوح والتفصيل عن مملكة حضرمية كان لها شأن بين ممالك الجنوب القديمة ، وقد ورد اسم حضرموت فى الكتابات المعينية ، وعثر على كتابات حضرمية ورد فيها أسماء عدد من ملوك حضرموت عاشوا قبل ميلاد المسيح بمئات السنين ، وقد تحدّث كتاب اليونان والرومان قبل الميلاد عن مملكة حضرموت وما كان لها من شأن عظيم فى العالم الاقتصادى بين ممالك الجنوب

ولما زار المستر وندل فليبس الأمريكى حضرموت فى طريقه إلى بيحان سنة ١٩٥٠ م للبحث عن تمنع عاصمة قتبان كتب يقول :

« قامت اقتصاديات أربع من الممالك الهامة على ما كانت تدرُّه قوافل البخور فى جنوب الجزيرة العربية من الثراء زهاء الفين من السنين ، فقد كانت القوافل تنساب فى مهل من غابة البخور فى حضرموت متجهة نحو الشمال على طول الجزيرة ثم تعود محملة بالذهب والفضة من مصر واليونان وروما كما ذهبت محملة بالبخور والبهارات »

والى جانب هذه الثروة التى أشار اليها وندل فليبس والتى كان مصدرها التجارة العظيمة التى تتألف من حاصلات البلاد والبضائع الواردة من الخارج فى طريقها الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط كان للحضارم شهرة أيضا فى النسيج وصناعة الحلى الدقيقة والأثاث وزخرفة الآنية وتركيب المواد ذات الروائح الطيبة ، كما كان لهم اهتمام بالزراعة واقامة السدود وغرامة الارض وغير ذلك من مختلف نواحى النشاط الاقتصادى ، وقد كانت حضرموت تعرف عند بعض الكتاب القدماء بارض اللبان ، ووصف هؤلاء الكتاب الميناء الذى تصدر منه كميات اللبان وصفا يستدل منه على انه الموضع الذى يعرف الآن بحصن غراب

ملوك حضرموت

ذكر المؤرخ ابن خلدون انه كان فى حضرموت ملوك يقاربون ملوك التبابعة فى علو الصيت ونهاية الذكر . ثم ذكر عددا منهم وجانبا من تاريخهم ، وقد تمكن علماء الآثار من الحصول على أسماء عدد من ملوك حضرموت غير أنهم اختلفوا فى الترتيب الزمنى لحكم هؤلاء الملوك

وهذه قائمة [1] بأسماء من عثر عليهم من ملوك حضرموت كما وضعها المستر ـ فلبى ـ

(١) صدق إل ـ صديق ايل ـ ملك حضرموت ومعين وقد حكم على تقديره فى حوالى سنة ألف وعشرين قبل الميلاد

(٢) شهر علن بن صدق إل . تولى الحكم فى حوالى سنة ألف ق م

(٣) معد يكرب بن اليفع يثع ملك معين ، تولى الحكم فى حوالى سنة تسعمائة وثمانين ق م ، ويرى فلبى أن حضرموت ألحقت بعد موت معد يكرب بمملكة معين وظلت تابعة لها إلى حوالى سنة (٦٥٠) ق م

(٤) السمع ذبين ـ ذبيان ـ بن ملكى كرب

(٥) يدع إل (ايل) بين بن سمه يفع ، وقد حكما من سنة ستمائة وخمسين الى سنة خمسمائة وتسعين قبل الميلاد ، ثم اصبحت حضرموت على رأى فلبى جزءا من قتبان او سبأ حتى سنة مائة وثمانين قبل الميلاد

(٦) يدع ال بين بن رب شمس ، وهو مؤسس اسرة ملكية جديدة فى العاصمة شبوه وحكمه فى حدود سنة مائة وثمانين قبل الميلاد

(٧) اليفع ريم (ريام) بن يدع ال بين وحكم فى حوالى سنة مائة وستين قبل الميلاد

---

(١) نقلا عن الدكتور جواد على فى كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام جزء « ٢ »

(٨) يدع اب غيلن (غيلان) بن يدع ال بين ، وقد حكم فى حوالى سنة مائة واربعين قبل الميلاد

(٩) العذ (العز) بن يدع اب غيلان وشقيق امينم (أمين) وقد حكم فى حوالى سنة مائة وعشرين قبل الميلاد

(١٠) يدع أب غيلان بن امينم وقد حكم فى حوالى سنة مائة قبل الميلاد

(١١) يدع ال بين بن يدع اب غيلان وحكم فى حوالى سنة ثمانين قبل الميلاد . وترك فلبى فجوة لم يعرف من حكم فيها جعلها بين سنة ستين وسنة خمسة وثلاثين قبل الميلاد

(١٢) عم ذخر حكم فى حوالى سنة خمسة وثلاثين قبل الميلاد وربما لم يتول الحكم .

(١٣) العذ يلط بن عم ذخر وحكم فى قرابة سنة خمسة عشر قبل اليلاد

(١٤) الهان (علهان) او سلفان بن العذيلط حكم فى حدود سنة خمس بعد الميلاد

(١٥) العذيلط بن ألهان حكم من سنة ٢٥ إلى ٦٥ ب م

(١٦) أب يزع وكان مكربا من المحتمل انه حكم فى حوالى سنة خمس وستين بعد الميلاد

(١٧) يرعش بن أب يزع ربما حكم حوالى سنة ٨٥ ب م

(١٨) علهان بن يرعش ، ١٠٥ ـ ١٢٥ بعد الميلاد

ويرى فلبى أنه منذ سنة ١٢٥ حتى ٢٩٠ بعد الميلاد كان الوضع فى حضرموت غامضا فلا يعرف من حكم فيها ؟ أ كان يحكمها مكربون أم كانت تحت حكم مملكة سبأ وذوريدان غير أنها خضعت نهائيا فى سنة ٢٩٠ بعد الميلاد لحكم ملوك سبأ وذو ريدان فصاروا يعرفون لذلك منذ هذا العهد بملوك سبأ وذو ريدان وحضرموت

سبأ تحكم حضرموت

يقول الدكتور جواد على فى تاريخ العرب قبل الاسلام انه عثر على نص يدل على أن

شمر يرعش ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات كان معاصرا للملك الحضرمى شرح إيل وهذا يدل على أن مملكة حضرموت بقيت إلى ما بعد الميلاد حتى أيام شمر يرعش وهو الذى تولى الحكم من سنة مائتين وسبعين إلى ثلثمائة بعد الميلاد على تقدير فلبى ـ يحكمها ولاة من الحضارم يحملون لقب ملك ، غير أنها لم تكن مستقلة تمام الاستقلال بل كانت خاضعة فى الواقع لمملكة سبأ وذو ريدان

وقد وقعت فى أيام شمر يرعش هذا حرب بين سبأ وحضرموت أضعفت حضرموت كثيرا ولعلها هى التى أجبرتها على الخضوع لسبأ والاعتراف بملك سبأ ملكا على حضرموت

ولما أراد الملك شرحبيل يعفر بن أبى كرب أسعد ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات واعرابها فى الجبال والسواحل ـ بناء أحد السدود أمر بنقش تاريخ البناء على جداره وفيه يقول : ان العمل كان فى سنة ٥٦٤ ـ ٥٦٥ الحميرية ، وهذا يوافق عامى ٤٤٩ ـ ٤٥٠ من الأعوام الميلادية

ـ وهذا صريح فى أن حضرموت ظلت إلى هذا التاريخ تابعة لليمن ـ

حصون دفاع

فى كتابة سجلها ـ شكم سلحان بن رضوان ـ قال الدكتور جواد على : يظهر أنه كان من الموظفين أو الاعيان البارزين فى حكومة حضرموت ، أن المكرب يرعش بن ابيزع كلفه بناء حصن (قلت) وغيره من الحصون واقامة استحكامات لصد الحميريين الذين كانوا يطمعون فى ضم حضرموت إلى ممتلكاتهم ، وقد قام بهذا العمل مائة وعشرون عاملا فى خلال ثلاثة أشهر تقريبا

وكان من بين هذه الحصون استحكامات ساحلية بنيت لحماية البر من الهجوم الحميرى المتوقع وحصون لحماية المنفذ المؤدى إلى وادى (ابنة) والى مدينة (ميفعة) وبنى لهذه المدينة سور قوى وبُرجان هما برج يذان وبرج يذتان وباب يكن ، واماكن يلتجئ اليها الجنود إذا لزم الدفاع عن المدينة ، وموانع لسد الطرق وعرقلة الزحف . والذى قام بهذا العمل جماعة من

الجنود . ويفيد هذا النص ان الحضرميين تمكنوا من صد محاولات الحميريين المهجوم على بلادهم

مؤسس شبوه

الملك : يدع ال بين بن رب شمس هو الذى أسس مدينة شبوه التى اصبحت عاصمة حضرموت بعد ذلك كما تدل الكتابات الحضرمية ، وتدل بعض الكتابات على أن ـ يدع ال بين بن غيلان : بنى سور مدينة شبوه وحصنه من أطرافه الثلاثة ابتغاء وجه الالهتين ذات حشول ـ وذات حميم وتقربا إلى ـ صدق ذخر ـ كبير حضرموت

وقد تحدث المستر فلبى عند ما زار شبوه أخيرا عما عثر عليه من آثار معابدها وقصورها القديمة وعن بقايا السدود التى كانت فى شبوه لحصر مياه الامطار والاستفادة منها فى إرواء تلك المناطق الواسعة الخصبة .

مدينة ميفعة

فى بعض الكتابات ما يفيد أن ـ يدع ايل بن سمه على رَمِّم أسوار هذه المدينة ، وميفعة هذه مدينة حضرمية يظهر أنها كانت عاصمتهم القديمة ، وفى كتابة اخرى أن هبسل بن شجب هو الذى قام ببناء سور المدينة كما بنى فيها بيوتا ومعابد ، وأتم عمله بعده ابنه ـ صدق يد ـ فأعلى سور المدينة وأحكمه

وفى كتابة [1] عثر عليها فى وادى بيحان دُوِّنت بمناسبة الاصلاح الذى أجرى على جدران مدينة ميفعة ورد اسم : يدع ال بن سمه يفع ، واسم : السمع ذبيان بن ملك كرب ، ويرى (هومل) أن هذه الأسماء تشير إلى أسرة حكمت حضرموت ، ويقدر فلبى حكمها بنحو ستين عاما من سنة ستمائة وخمسين قبل الميلاد فما بعد

حصن أنود

وعثر على كتابات مهمة جدا فى مكان يدعى عقلة زاره المستر فلبى ووجد فيه خرائب

---

(١) جواد على فى تاريخ العرب قبل الاسلام .

جاهلية وهو يشرف على وادٍ يمتد فيتصل بتلال شبوه ، ويرى جواد على أن هذا المكان هو (حصن أنود) الذى يقيم فيه ملوك حضرموت فى القديم حفلاتهم عندما يتلقبون بلقب جديد لم يكونوا يعرفون به قبل انتقال العرش اليهم . وقال : ان هذا الحصن قد يكون قلعة كان يقيم بها الجيش لحماية مزارع هذا الوادى

وجاء فى إحدى الكتابات أن الملك العذيلط زار حصن أنود لاعلان نفسه ملكا على حضرموت لمناسبة تلقبه بلقبه الجديد ، وقد رافقه فى هذه الزيارة عدد من الزعماء والرؤساء ، وفى كتابة أخرى سجلها — رب شمس — جاء فيها انه رافق شقيقه — يدع اب غيلان — ملك حضرموت إلى حصن أنود لمناسبة الاحتفال باخذ الملك لقبه ، ولا يعرف متى نشأت هذه العادة عند ملوك حضرموت ، ولا السبب الذى جعلهم يختارون هذا المكان بالذات لاقامة حفلاتهم دون غيره

ويرى — بيستن — أن الكتابات التى عرفت باسم كتابات عقلة واستنسخها فلبى تعود الى ما قبل مائة وخمس عشرة قبل الميلاد ، ويمتد تاريخها إلى ما بعد الميلاد وربما إلى حوالى ثلثمائة بعد الميلاد حيث فقدت على رأيه حضرموت فى ذلك الوقت استقلالها واندمجت نهائيا فى مملكة سبأ وذو ريدان [1]

مدينة مذاب

من مدن حضرموت المشهورة فى القديم مدينة مذاب وتقوم عليها الآن مدينة حريصة . وقد وجدت بعثة انجليزية فى هذا الموضع آثار معبد ضخم لعبادة الاله — سين — ويعرف هذا المعبد باسم معبد سين ذو مذاب ، ووجدت عند أحد أبوابه كتابة دونها رجل من الاشراف كان كبيرا على قبيلة رمى ذكر فيها أنه جدد تلك الوجهة وعمرها ، كما عثر على قبور بالقرب من حريضة يظن أنها تعود إلى اواسط القرن الخامس قبل الميلاد

---

(١) الدكتور جواد على

حروب حضرموت

فى عهد الملك العذيلط وقعت حرب بين حضرموت وبين ـ شعرم اوتر ـ الهمدانى ملك سبأ وذى ريدان وساعد حضرموت فى هذه الحرب عدد من القبائل والجنود المرتزقة ، ولكن جيوش الهمدانى انتصرت على الحضرميين فى موضع يقال له ـ ذات غراب ـ

وتقدم بعد ذلك أحد رجاله ويدعى سعد أحرس وكان قائدا ومفتشا على الحدود فاغار على أرض ردمان وانزل بها أضرارا فادحة . ووصل شعرم اوتر نفسه بجيوشه إلى موضع سقطت الحروف الأولى من اسمه فى الكتابة وبقى حرفان هما (. . . وت) لذلك يرى كلاسر أنهما بقية اسم عاصمة حضرموت شبوت أى شبوه ، كما يرى أن سبب هذا النزاع كان التنافس على اقتسام تركة حكومة قتبان

وكما كانت حضرموت فى هذه المرة تحارب الهمدانيين كانت فى وقت آخر تحارب إلى جانبهم ضد الحميريين ، فقد ورد فى بعض الكتابات ان الملك ـ علهان ـ الهمدانى تمكن بالاشتراك مع حليفه ـ يدع ال ـ ملك حضرموت من محاربة الحميريين والتغلب عليهم ، هاجتهم قواته من الشمال وقوات حضرموت من الشرق ، وكانت حضرموت التى استولت على اكثر أراضى قتبان تخشى حكومة مارب والحميريين والريدانيين جميعا فقد أخذوا يهددون حضرموت وينافسونها فى الغنائم التى حصلت عليها من قتبان ، ولهذا كان من مصلحتها هذه المرة الاتفاق مع الهمدانيين

ثم استمرت المعارك فى ايام حكم ولدى علهان الهمدانى حتى تم النصر فى الاخير للريدانيين والحميريين

ذهاب مملكة حضرموت

تنقسم المدة التى حكم فيها الحميريون اليمن الى قسمين : القسم الاول عبارة عن زمن حكم الطبقة الاولى منهم والتى تلقب بملوك سبأ وريدان وتبتدى من سنة مائة وخمس عشرة قبل الميلاد وتنتهى بضم حضرموت إلى حكومتهم سنة مائتين وخمس وسبعين تقريبا بعد الميلاد

أما القسم الآخر فهو الزمن الذى يلقب فيه ملوكهم بالتبابعة ويبتدئ بانهيار المملكة الحضرمية وضمها نهائيا إلى حكم التبابعة الحميريين حوالى سنة مائتين وخمس وسبعين بعد الميلاد حيث ضمت حضرموت إلى ألقاب ملوكهم فسمى الملك منهم : ملك سبأ وريدان وحضرموت وينتهى بانتهاء دولة حمير الثانية سنة خمسمائة وخمس وعشرين ميلادية والعرب لا يسمون ملك حمير تبّعا حتى يضم حضرموت والشحر إلى مملكته

وعلى ذلك يكون ذهاب المملكة الحضرمية التى نتحدث عنها الآن فى أواخر القرن الثالث بعد الميلاد حين ضمها حكام اليمن الاقوياء من التبابعة إلى مملكتهم

آلهة حضرموت

سبقت الاشارة إلى اكتشاف معبد الاله سين بالقرب من حريضة ، ويرمز إلى القمر ، وكان يعرف باسم معبد سين ذو مذاب وكان الناس ينذرون له النذور ويتقربون اليه ليمنحهم العمر الطويل والخير والبركة

وتدل الكتابات الحضرمية على وجود آلهة كثيرة كان يتعبد لها الحضرميون ، منها سين الذى سبق ذكره ، وحول ، وعثتر ، وشمس ، ويُعَدُّ الاله سين الاله القومى الرئيسى لشعب حضرموت . ولوجود معابد كثيرة فى حضرموت لعبادة ـ سين ـ ورد هذا الاسم مضافا اليه كلمة او كلمات لتمييز المعابد بعضها عن بعض مثل : سين ذو مذاب ، وسين ذو مشور وسين ذو علم إله علق أحن ، وعلق أحن هذا اسم موضع قديم فى حضرموت

وتفيد النصوص التى عثر عليها أنه كان عند الحضرميين نوع من الشعور الدينى الجامح نحو هذه الآلهة ، فقد ورد فى بعضها ما ترجمته : ـ إن جسمه وروحه واولاده وما يمتلكه ويقتنيه ونور عينيه وكل ما يفكر به فى قلبه هو لسين اله حضرموت . وفى نص ظهر فيه اسم الملك العذياط دوّنه رجلان ربما كانا من موظفى هذا الملك جاء فيه أنهما قدما سبعة تماثيل من الذهب باسم ملك حضرموت إلى الاله سين ذو علم

النقود

كان العرب الجنوبيون يضربون على النقود صورا تمثل الملوك الذين أمروا بضربها وعلى أطرافها اسم صاحبها او نعته او الظغراء التى كانت تشير اليه . ويرى بعض العلماء ان عرب الجنوب تعلموا ضرب النقود من اليونان

وقد عثر على عدد من النقود الحضرمية صور على بعضها صورة نسر وكتب على جانب منه ـ شقر ـ ويرمز هذا الطائر إلى الاله القمر اله الحضارمة وهو الاله سين وتاريخ هذا النقد يعود الى القرن الثانى للميلاد فى رأى بعض العلماء ، ويرى البعض الآخر انه ضرب فى حوالى سنة ثلثمائة بعد الميلاد وأن من المحتمل ان يكون هذا النقد من ضرب الملك شمر يرعش بعد أن انضمت حضرموت فى عهده الى مملكة سبأ وذى ريدان

المسند

المسند هو أقدم الاقلام التى عرفت فى شبه جزيرة العرب حتى الآن ، فهو أقدم من القلم النبطى الذى استعار منه عرب الشمال خطهم الأول ، وقد اشتهر المسند بانه خط حمير ولكن الحميريين لم يكونوا أول من أوجده فقد سبقهم فى استخدامه السبئيون والمعينيون وغيرهم

ويتألف المسند من تسعة وعشرين حرفا وأبجديته مثل الابجديات السامية الأخرى من حيث انها لا حركة فى الكتابة فيها ولا ضبط فى اواخر الكلمات ، وقد يكتب الحرف المشدد مرتين ، وتقرأ الكتابة من اليمين إلى اليسار وتقرأ فى بعض الاوقات من اليسار إلى اليمين على طريقة الكتابة اللاتينية ، ويمزج بين الطريقتين احيانا فيكتب من اليمين إلى اليسار فاذا انتهى السطر كتب من اليسار إلى اليمين وهكذا على شكل حلزونى

ويرى ابن خلدون أن الخط بلغ فى دولة التبابعة مبلغا كبيرا من الأحكام والجودة لما بلغته دولتهم من الترف والحضارة . ولم تكن الكتابة منتشرة بين سكان الجنوب وانما كانت محصورة بين الطبقة منهم

اللغة

كان اهل اليمن وحضرموت وعُمان يتكلمون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم لهجة قريش وعرب الشمال . ولكن هذا الاختلاف بين لهجات العرب عند ظهور الاسلام لم يكن كبيرا جدا ، فقد كان هناك شيء من التقارب فى الالسنة بين عرب شبه الجزيرة فى تلك الآونة

ذلك أن سكان الجنوب ـ بما كان لهم من قوة ورقى ـ استطاعوا أن يوجدوا صلات تجارية وسياسية بينهم وبين جيرانهم من العرب فكان ذلك سببا فى تقلص الفوارق الكبيرة بين لغتهم ولغة عدنان وتقارب اللغتين فى الالفاظ وتجانس اللهجتين فى المنطق

ولما اخذت دولة الحميريين تدول استطاعت لغة عدنان أن تتغلب على لغة حمير وأدبها بفضل الاسواق والحج ومنافسة العدنانيين للحميريين ، ثم جاء الاسلام فساعد على محو اللهجات الجنوبية

وقد تمكن المستشرقون من التقدم تقدما محسوسا فى دراسة اللهجات الجنوبية القديمة فوضعوا مؤلفات فى نحوها وصرفها ، كما شرعوا فى وضع معجم لغوى لها ، واصبح من الممكن بفضل هذه الدراسات قراءة الكتابات القديمة وفهمها بسهولة

التقويم

لم يعرف حتى الآن ما إذا كان العرب قبل الاسلام يستعملون تقويما ثابتا يؤرخون به الحوادث ام لا ؟ وكل ما عرف أنهم كانوا يستعملون جملة طرق فى تاريخهم للحوادث ، فارخوا بحكم الملوك وبأيام الرؤساء والمشايخ وأرباب الأسر وهى طريقة عرفت عند المعينيين والسبئيين والقتبانيين والحضرميين وغيرهم فكانوا يشيرون إلى الحادث بانه حدث فى ايام الملك فلان أو فى السنة كذا من حكم الملك فلان مثلا

ويظهر أن عرب الجنوب كانوا يستعملون التقويم الشمسى فى الزراعة كما كانوا يستعملون التقويم القمرى والتقويم النجمى الذى يقوم على رصد النجوم ، وقد اتخذ الحميريون منذ سنة

مائة وخمس عشرة قبل الميلاد تقويما ثابتا يؤرخون به وهى السنة التى قامت فيها الدولة الحميرية

وكان العرب قبل الاسلام يستعملون أسماء أشهر لم يستعملها المسلمون عند ظهور الاسلام مثل مؤتمر وناجر وخوان وصوان وناطل وداغل وغيرها ، ويظهر أنها لم تكن شائعة عند القبائل ولذلك لم يكتب لها البقاء ، ولعل أكثرها كان قد أهمل استعمالها أو أصبح استعمالها شاذا قبل الاسلام ، وهذه الاسماء اقدم عهدا من الاشهر المستعملة فى التاريخ الهجرى بكثير

أما أسماء الايام فى الجاهلية فهى : السبت شيار . الأحد : أول . الاثنين : أهون ، وأوهد . الثلاثاء : جبار . الاربعاء : دبار . الخميس : مونس . الجمعة : عروبة

القوانين

لم يعثر الباحثون — حتى الآن — على نصوص تتحدث عن التشريعات والقوانين التى كان يصدرها ملوك حضرموت أو معين أو سبأ ، غير أنه لا يستطيع أحد أن يدعى أن تلك الحكومات لم يكن لديها تشريع ولا قوانين [١]

فقد عثر الباحثون على عدد غير قليل من الكتابات ظهر أنها أوامر وقوانين وتعليمات أصدرها ملوك قتبان فلا يمكن أن يكون القتبانيون جيران حضرموت قد أنفردوا وحدهم دون غيرهم من ممالك الجنوب فى التشريع [٢]

وقد كانت هذه القوانين القتبانية محكمة ومنطقية وراقية إذا قيست بالقوانين التى كانت عند الشعوب الأخرى فى ذلك الوقت ، وكانت تتناول كيفية دفع الضرائب واوقات تقديم حصص الحكومة من الحاصلات الزراعية ، وتأجير الاراضى الحكومية إلى الأهلين وتنظيم علاقة الافراد بعضهم ببعض ، كما تبين العقوبات التى تفرض على المجرمين ، ومنها ما يتعلق بتنظيم امور التجارة فى قتبان ، إلى غير ذلك من القوانين التى لها صلة بالأمن وتنظيم شؤون الاقتصاد فى البلاد .

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام

(٢) نفس المصدر

وبالجملة فان المعلومات التى عثر عليها الباحثون عن القوانين القتبانية تعطى صورة عن مدى اهتمام ممالك الجنوب العربى قبل الاسلام بفرض القوانين وسن التشريعات ، وسوف تكون للنتائج التى تسفر عنها أبحاث المنقبين أهمية كبرى فى اكتشاف نواحى الحضارة فى هذا الجزء المهم من بلاد العرب .

الاجانب فى جنوب الجزيرة

لم تكتمل حتى الآن الابحاث التاريخية عن صلة الجنوب العربى قبل الاسلام باليهود واليونان والرومان والاحباش والفرس وغيرهم من الاجانب . واذا كانت المعلومات التى وصلت الينا عن صلة اليمن بهؤلاء الاجانب لا بأس بها فان التاريخ الحضرمى من هذه الناحية لا يزال غامضا

والروايات فى هجرة اليهود إلى جزيرة العرب مختلفة ، فبينما تقول بعض الروايات ان العبرانيين هاجروا قبل أيام داود إلى بلاد العرب وسكنوا فى الحجاز فى منطقة يثرب وفى خيبر ، تفيد روايات اخرى أنهم هاجروا فى أيام داود ، وبعض الاخبار ترجع هجرة اليهود الى ايام خراب الهيكل على ايدى (بخت نصر) البابلى والى فتح الرومان لفلسطين حيث فضلت جماعات منهم الذهاب إلى اليمن والحجاز ، ومن هؤلاء المهاجرين العبرانيين يتكون يهود خيبر ويهود اليمن وفيهم كما يظهر عرب تهودوا بتأثير التبشير ، وقد كانت الديانة اليهودية معروفة فى حضرموت قبل الاسلام اما بواسطة هجرة العائلات اليهودية أو بفعل التبشير

وقد كانت الاخبار التى انتشرت عن ثروة الجنوب العربى وأهميته فى عالم التجارة سببا فى تفكير الاسكندر فى غزو جزيرة العرب بحرا ، وقد شرع فعلا فى تهيئة السفن واعداد البحارة ولكن موته المفاجىء ثم تنازع قواده وانقسامهم صرف قواده عن تنفيذ هذه الفكرة ، وحاول أغسطس قيصر من بعده احتلال الجزيرة من البر فمنى جيشه بخسارة عظيمة وهلك منه خلق كثير

وفى أيام البطالسة بمصر قدم أريستون أحد رجال بطليموس الأول إلى البحر الأحمر

لتعرف سواحل بلاد العرب فطاف بسواحل خليج العقبة والحجاز وذكر قوم ثمود ومعين ، وهو أول اغريقي أشار إلى ثمود

وفي أيام بطليموس فيلادلفوس أسست موانئ جديدة على سواحل البحر الأحمر لرسو السفن فيها والمحافظة على سلامة الطرق البحرية إلى جزيرة سقطرى حيث انشئت فيها جملة مستعمرات يونانية ، وقد بقي اليونان فيها عصورا غير أن نزولهم فيها — كما يقول الدكتور جواد علي — لا يدل حتما على احتلالهم لها ، وقد ذكرت الكتب الكلاسكية أسماء مواضع في سواحل الجزيرة العربية اتخذت منازل لاقامة البحارة الاغريق والتجار بها دعيت باسماء يونانية

وقد ترك هذا الاتصال التجاري بين اليونان وعرب الجنوب آثارا واضحة منها : الكلمات المعربة الأغريقية الأصل ، والنقود التي عثر عليها في العربية الجنوبية والتي ظهر أن بينها وبين نقود عصر البطالسة شبها كبيرا جدا ، كما عثر على كتابات عربية بالمسند في بعض جزر اليونان يعود تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد

ولما ضعف خلفاء الاسكندر وانحلت مملكتهم واستولى الرومان على مصر أوعز (اغسطس) إلى حاكم مصر (اوليوس غالوس) بغزو جزيرة العرب والاستيلاء عليها وعلى ثروتها العظيمة من الاتجار بالمر واللبان والبخور والافاويه ، وكلف هذا القائد بقيادة الحملة سنة اربع وعشرين قبل الميلاد

وقد تعرض جيش الرومان في هذه الحملة لصعاب ومخاطر كثيرة بسبب بعد المسافة ووعورة الطرق وقلة الماء فيها وعدمه احيانا ومات بعضهم بالامراض والاوبئة ، ومن بين الأسماء التي ذكر مؤرخو هذه الحملة وصول الجيش اليها نجران والجوف بالقرب من حدود حضرموت ولكنا لم نقف حتى الآن على ما يدل على وصولهم الى حضرموت وقد نشبت معارك قتل فيها عدد كبير من العرب على زعم مؤرخ هذه الحملة (سترابون)

ويرى بعض المؤرخين ان الجيش الروماني نزل أولا الى ميناء (لويكة كومة) ميناء النبط الأعظم وهو في رأيه ما يعرف اليوم بالحوراء ، ثم سلك طريق يثرب واتجه إلى القصيم

حيث دخل قلب نجد ثم سار فى اتجاه نجران ومنها دخل اليمن فاصطدم باليمانيين، ولما عاد سلك طريقا أخرى أقصر من الطريق التى جاء بها حتى وصل إلى ينبع حيث أبحر من بقى حيا منهم الى مصر

ويظهر أن الرومان بعد إخفاق حملتهم هذه لم يفكروا فى غزو جديد لبلاد العرب بل اكتفوا بتحسين علاقاتهم مع العرب للمحافظة على مصالحهم الاقتصادية ، واغلب الباحثين يرون ان تلك الحملة كانت فى عهد حكومة سبأ وذى ريدان

أما الاحباش فقد أخذوا يطمعون فى بلاد حمير من أوائل عهد المسيحية على أثر ذهاب دولة سبأ. ويرى بعض المؤرخين أن جماعة من الأحباش احتلوا الشواطىء الجنوبية عند بلاد المهرة فى القرن الأول قبل الميلاد يترقبون فرصة للوثوب على الحميريين طمعا فى ثروة بلادهم

وهناك أخبار صحيحة تقول بان الاحباش حملوا على شواطىء اليمن فى أوائل القرن الثانى للميلاد . وعادوا فجددوا الحملة فى أواخر القرن الثالث ففتحوا بعض اليمن وبعض تهامة ثم طردهم الحميريون وعادوا بعد خمسين سنة فاكتسحوا اليمن كلها ، وتوالت الوقائع بين الأحباش وحمير فى اواسط القرن الرابع للميلاد كانت الحرب فيها سجالا ، واستعاد الحميريون سلطتهم سنة ٣٧٤ م وما زالت فى قبضتهم حتى غزاها الاحباش المرة الاخيرة سنة ٥٢٥ م فى عهد الملك ذى نواس الحميرى الذى كان شديد التعصب لليهودية والذى غزا نصارى نجران وخدَّ لهم الاخاديد وحرقهم فيها

ولما ضاق الحميريون بسلطة الاحباش استنجد سيف بن يزن ـ أحد أمراء حمير ـ بكسرى ملك فارس سنة ٥٧٣ م فأمده بجيش حارب الاحباش واحتل به البلاد وظل حكم الفارسيين فى اليمن الى ان جاء الاسلام

ولم أقف فيما اطلعت عليه من المصادر التاريخية على ما يشير إلى امتداد الغزو الرومانى أو الاحتلال الحبشى والفارسى إلى حضرموت ، وربما تكشف الدراسات التاريخية عما يوضح الغموض فى هذه الناحية

أرض الطيب والبخور

ذكر (سترابون) مؤرخ الحملة الرومانية إلى بلاد العرب أن أرض الطيب والبخور تتألف من أربعة أقسام وهى معين وسبأ وقتبان وحضرموت . وقال عن حضرموت : انهم ابعد هذه الشعوب إلى الشرق . وسترابون بهذا يشير إلى الشعوب الرئيسية التى يتألف منها مجتمع العربية السعيدة فى ذلك الوقت . ولم يكن يقصد الناحية السياسية اذ لم تكن فى العربية الجنوبية حكومة مستقلة أثناء الحملة الرومانية غير حكومة سبأ كما يرى الدكتور جواد على

وذكر سترابون أن المجتمع فى ذلك العهد كان يتكون من طبقات لكل طبقة واجب ووظيفة ، وهى وراثية تنقل من الآباء إلى الأبناء . وهذه الطبقات هى : طبقة المحاربين ، وطبقة التجار ، وطبقة المزارعين

ومن الكتاب الكلاسيكيين الذين نقل عنهم جواد على المؤرخ (ديودورس) وقد قال عن السبئيين ان فى ايديهم البخور واللبان والطيوب والمر والباسم والعنبر والكحل وكل السلع الثمينة التى تباع بأعلى الأثمان وأغلاها ، وعندهم مختلف انواع الماشية . وتربتهم خصبة جدا ولهم مملكة وملوك يتوارثون الملك ، ولهم سلطان واسع وحكم مطلق فى تشريع القوانين واصدار الاحكام ، وهم أغنياء جدا ولذلك اتخذوا آنيتهم من الذهب والفضة وجعلوا قوائم أسرتهم وكراسيهم من هذين المعدنين وكسوا ابواب المعابد والغرف بالذهب وطعموا الجدران والتماثيل بالاحجار الثمينة

والجرهائيون من بين شعوب الجزيرة العربية الذين تحدث الكتاب الكلاسيكيون عن ثروتهم وتجارتهم العظيمة وكانوا يتاجرون مع حضرموت فتصل قوافلهم اليها فى اربعين يوما وتعود وهى محملة بحاصلات العربية الجنوبية وحاصلات افريقية المرسلة بواسطتها وهى بضاعة نافقه ذات أثمان عالية فى الاسواق التجارية لذلك العهد

حضارة العرب القدماء

وبالجملة فان ما قيل عن جهل العرب قبل الاسلام وبداوتهم على وجه الإطلاق وعزلتهم

عن بقية اجزاء العالم شيء لا يستند إلى أساس ، فهذا تاريخ الجنوب العربى يثبت بما لا يقبل الشك مشاركتهم فى التاريخ العالمى وفى الثقافة الانسانية ويقدم الادلة القاطعة على ما كان لجزيرتهم من شأن عظيم فى العالم الاقتصادى ، ويحدثنا عما أنشأوا من حضارات وما وضعوا من نظم للرى وما بنوا من معابد ضخمة وهياكل كبيرة وبيوت وقصور فخمة وكيف كانوا يسيرون تجارتهم إلى اسواق العالم القديم وسفنهم إلى البحار النائية

وتروى كتب التاريخ أنه كانت لهم علوم وفنون تناسب وما وصلوا اليه من درجات التمدين والحضارة ، وكانت لهم قوانين موضوعة وشرائع مسنونة ومدارس ومعاهد للتربية والتعليم [1] فمن علومهم هندسة إرواء الأرض وعمارة المدن وعلم الآلات والحساب والطب والبيطرة والزراعة والآداب ، غير أن هذه المعارف كانت عملية تعتمد على التجارب

حكومة كندة

كان الحميريون أثناء حكمهم لحضرموت يولّون أصحاب الكفاءات من الكنديين بعض الأعمال الحكومية كما كانوا يصاهرونهم ويستخدمون خاصتهم وكبارهم فى مصالحهم الخاصة ويدخلونهم فى بطانتهم وحاشيتهم . فلما ضعفت الدولة الحميرية وتفككت أوصالها برزت كندة تفرض سلطانها على كثير من مناطق البلاد الحضرمية

ويقول النسابون ان كندة من ولد عفير بن عدى بن الحارث بن مُرّة بن أدد بن زيد بن كهلان القحطانى . وقالوا إن لعفير ابناً يدعى ثور أعقب من فخذين هما معاوية وأشرس ، فمن عقب أشرس : السكون والسكاسك وآل شبيب وآل عقبة وسعد وتجيب والصدف ، ومن عقب معاوية الملوك المشهورون ويسمى بمعاوية الأكرمين . ويقال انه كان فى بنى معاوية سبعون ملكا آخرهم الأشعث بن قيس الذى ترجمنا له فى فصل خاص من هذا الكتاب

وقد كان بين كندة وحضرموت حروب فى الجاهلية أفنت كثيراً منهم ، وكانت الحرب

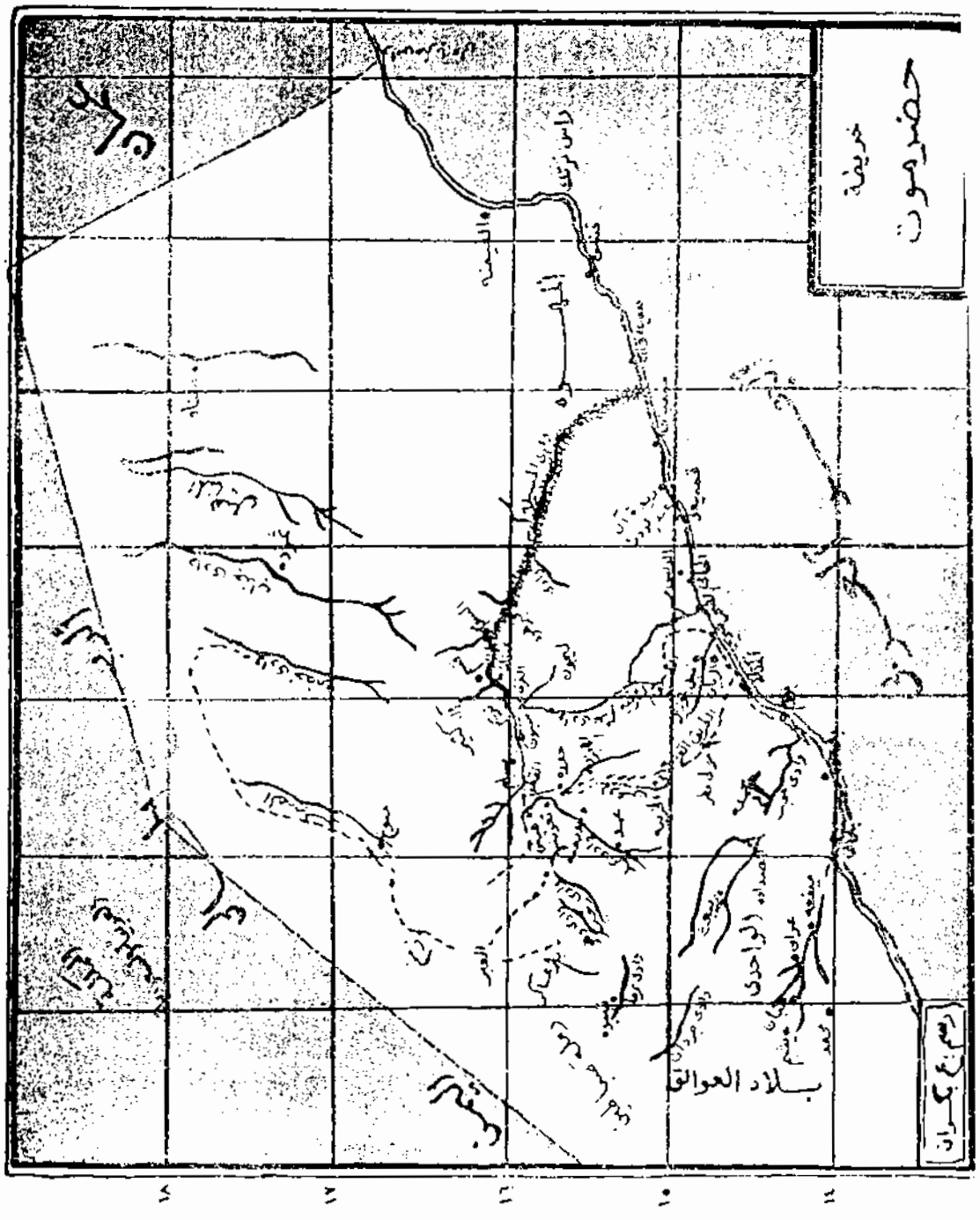
---

(١) تاريخ التربية لمصطفى أمين

سجالا بين الطرفين وبقى العداء بينهم حتى جاء الإسلام . ويذكر المؤرخون من رؤساء كندة فى هذه الحروب سعيد بن عمرو بن النعمان بن وهب وكان على بنى الحارث بن معاوية ، وشرحبيل بن الحارث وكان على السكون

ولما جاء الإسلام كان فى بنى عمرو بن معاوية أربعة رؤساء أو أمراء كلهم إخوة أبناء أب واحد وهم : جمد ومخوص ومشرح وأبضعة ، وكانت لهم أخت تدعى العمردة ، وكان لكل واحد منهم واد يملكه ومحجر خاص يقيم فيه ، أما بنو الحارث بن معاوية فكان أميرهم الأشعث بن قيس

ولم تكن البلاد الحضرمية جميعها خاضعة لكندة فى هذا العهد ، فقد كان هناك أمراء آخرون من حضرموت وغيرهم يسيطرون على بعض مناطق فى الساحل والداخل ، ربما كان أبرزهم وأعظمهم شأناً وائل بن حجر الحضرمى الذى افتتحنا هذا الكتاب بفصل خاص عنه


خريطة
حضرموت
بلاد العوالق
الصداة الواحدى
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨

(١)

وائل بن حجر الحضرمي

أنباء الحجاز ـ إسلام حضرموت ـ بقية أبناء الملوك ـ وثيقة تاريخية
عودته إلى حضرموت ـ انتشار الإسلام

أنباء الحجاز

وردت الأنباء ـ إلى حضرموت ـ ذات يوم تحملها قوافل الحجاج العائدة من مكة بعد انتهاء موسم الحج ، تتحدث عن فتى قريش ودعوته الجديدة إلى التوحيد وإصلاح النفوس وتطهيرها من أدران الشرك والوثنية ، فلم يحفل بها سادات الحضارم وأمراؤهم بادىء الأمر ، ولم يعيروها كبير اهتمام ، لأنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا ما سيكون لصاحب هذا الأمر من شأن ، وما ستحرز دعوته من نجاح

واستمرت وفود الحضارم كل عام تشهد موسم الحج ، وتعود بما تسمع وترى من أخبار محمد ـ عليه السلام ـ وانتشار دعوته ، متحدثة عن تفاصيل هذه الدعوة الجديدة ، وما كان يلقاه صاحبها من معارضة وأذى من قومه وعشيرته الأقربين

وفى أحد مواسم الحج هذه ، عرض النبى عليه السلام نفسه على من حضر الموسم من حجاج الحضارم طالبـــاً اليهم نصرته وحماية دعوته ، فلا يقطعون فيما عرض عليهم برأى ويقولون : ـ قوم الرجل أدرى به

وتتوالى الأيام سراعاً ، فاذا محمد عليه السلام فى المدينة على رأس جماعة كبيرة من المسلمين ، قد نبذوا حياة الوثنية وعادات الجاهلية ، واستقبلوا عهداً جديداً يعبدون فيه إلهاً واحداً ويدينونَ بدين واحد يدعو إلى المساواة ومحو الفوارق بين الناس ، وإلى جمع شتات المسلمين تحت نظام واحد وسلطة واحدة ، ثم لم يكتفوا بإعلان دعوتهم والجهر بها فقط ، بل جردوا سيوفهم يحاربون بها كل من عارضهم أو أضمر فى نفسه كيداً لهم ومحاربة لدينهم

فهزموا قوات المشركين فى بدر وحنين وغيرهما من المواقع الحربية ، وفككوا يهود بنى قريظة وأجلوا غيرهم من يهود الحجاز ، وانسحب الروم أمامهم فى تبوك ، وتم لهم نصر الله وتأييده حين فتحوا مكة وأسلم المتخلفون من قريش

إسلام حضرموت

وتناقل الناس فى أنحاء الجزيرة العربية أنباء الانتصارات التى أحرزها المسلمون . وتحدثوا عن وفرة عددهم ، وقوة جيوشهم وصلابتهم فى دينهم وتحمسهم لعقيدتهم . فأسرعوا الى إعلان إسلامهم . وقدمت وفود منهم إلى المدينة فى السنة العاشرة من الهجرة تعبر عن طاعتها وإذعانها حتى لم يبق فى شبه الجزيرة العربية بطن أو قبيلة إلا أسلم

وآن لحضرموت أن تعتنق الدين الجديد : دين الإسلام . وتنضم إلى الوحدة التى دعا إليها نبى المسلمين حيث لا مجال للتردد ، لقد وضح الحق ووصلت الدعوة الجديدة إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه من نجاح وانتشار ، فاجتمع أصحاب الكلمة وذوو الرأى من الحضارمة تحت رئاسة أمرائهم ورؤسائهم ليصلوا إلى نتيجة بشأن هذا الانقلاب التاريخى العظيم الذى أوشك أن يبدل التقاليد والعادات والأنظمة والمعتقدات ، وانفضت اجتماعاتهم عن قرارات حاسمة تقضى بوجوب اعتناق الدين الإسلامى والدخول فى جماعة المسلمين والانضمام إلى وحدتهم الكبرى . وأسرعت البلاد ترسل ممثليها إلى المدينة عاصمة الإسلام الأولى تقدم الطاعة وتعلن عن إسلام الحضارمة وإذعانهم لأحكام الدين الجديد وتعاليمه

تجهز الأشعث بن قيس الكندى أمير بنى الحارث بن معاوية فى ثمانين راكباً من قومه للقاء النبى عليه السلام فى المدينة ، كما قدم عليه فيها ملوك بنى عمرو بن معاوية وأمير جردان ورئيس الجعفيين قيس بن سلمة فى رهط من عشيرته ، وكذلك أمير بلاد الشاطئ وائل بن حجر الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل الأول من الكتاب ، وكان النبى عليه السلام يقبل إسلامهم ويقر كل أمير على إمارته

بقية أبناء الملوك

وكان النبي عليه السلام قد أخبر أصحابه بقدوم وائل بن حجر قبل أن يقدم المدينة فقال لهم ذات يوم « يأتيكم بقية أبناء الملوك » فلما قدم وائل فى السنة العاشرة من الهجرة رحب به النبي وأدنى مجلسه وبسط له رداءه الشريف ليجلس عليه مبالغة منه عليه السلام فى إكرامه وقال : اللهم بارك فى وائل بن حجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة . ثم أصعده على المنبر وأقطعه أرضاً وكتب له عهداً وقال : هذا وائل سيد الأقيال ، أى الملوك ، لأن القيل فى اصطلاحهم الملك

ولما همّ وائل بالانصراف من هذه المثابة أمر النبي عليه السلام معاوية بن أبى سفيان أن يصحبه إلى المنزل الذى أعد لاقامته فيه بالحرّة فى ضاحية المدينة ، فمشى معاويةُ معه وكان وائل راكباً ، وفى الطريق إلى الحرة جرى بينهما الحديث التالى :

معاوية : اعطنى نعلك أتوقّ بها الرمضاء

وائل : لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك

معاوية : أردفنى إذن

وائل : لست من أرداف الملوك

معاوية : إن الرمضاء قد أحرقت قدمى

وائل : امش فى ظل ناقتى كفاك بها شرفاً

وخضع معاوية القرشى لزهو المالك الحضرمى وشعوره بمركزه تنفيذاً لأمر النبى له فى أن يصحبه إلى الحرّة فسار معه حافياً

وقد عاش وائل حتى قدم على معاوية بالشام وهو أمير المؤمنين ، فتلقاه معاوية وأكرمه ورحب به ، وقدم له من صنوف الاحترام والتقدير ما جعل وائلا يتذكر الحديث الذى جرى بينهما فى الطريق إلى الحرة ويقول : وددت لو كنت حملته بين يدىّ . وعرض عليه

معاوية جائزة سنية فأبى أن يأخذها وقال له : أعطها من هو أحوج إليها منى

وثيقة تاريخية

وفى هذا الكتاب الذى كتبه النبى عليه السلام لوائل بن حجر وثيقة تاريخية تعطينا صورة عن أسلوب الكتابة وعن المفردات اللغوية المستعملة فى ذلك العصر بين الحضرميين ، فقد كان النبى عليه السلام يخاطب كل قوم بلهجتهم : —

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب محمد النبى لوائل بن حجر قيل حضرموت ، انك إن أسلمت لك ما فى يديك من الأرض ويؤخذ من عشر واحدة ، ينظر فى ذلك ذوا عدل . وجعلت لك ألا تظلم فيها معلم الدين ، والنبى والمؤمنون أشهاد عليه »

وفيه : إلى الأقيال العباهلة [١] والأرواع [٢] المشايب [٣] . وفيه : فى التبيعة [٤] شاة لا مقورة الالياط [٥] ولا ضناك [٦] . وانطوا [٧] الثبجة [٨] . وفى السيوب [٩] الخمس ، ومن زنى ممسكر [١٠] فاصفعوه [١١] مائة واستوفضوه [١٢] عاماً ، ومن زنى ممثيب فضرجوه [١٣] بالاضاميم [١٤] . ولا توصيم [١٥] فى الدين ولا غمة فى فرائض الله [١٦] . وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترفل [١٧] على الأقيال

---

(١) العباهلة : هم الذين أقرّوا على ملكهم لا يزالون عنه واحده عبهل

(٢) الارواع : جمع رائع ، وهم الحسان الوجوه . أو الذين يروعون الناس

(٣) المشايب : أى السادة واحدهم مشيوب (٤) التبيعة : اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان (٥) مقورة الالياط : هزيلة مسترخية الجلد . الاقوار : الاسترخاء . الالياط : الجلود (٦) الضناك : المكتنزة اللحم ، يقال للذكر والأنثى بغير هاء

(٧) انطوا : أعطوا (٨) الثبجة : الوسط لا من خيار المال ولا من رذاله

(٩) السيوب : : الركاز (١٠) ممسكر : أى من البكر (١١) اصفعوه : اضربوه

(١٢) استوفضوه : انفوه (١٣) ضرجوه : ارموه

(١٤) الاضاميم : الحجارة (١٥) لا توصيم : لا تكاسل ولا توانى

(١٦) لا غمة فى فرائض الله : أى لا يستتر بها وانما يجهر بها

(١٧) يترفل : أى يتسور ويترأس

عودته إلى حضرموت

وعاد وائل إلى حضرموت بعد أن قبل النبي إسلامه وأقره على إمارته، وظل الرجل عامر القلب بالإيمان ممتلىء الصدر بحب الدين الجديد وتعظيم صاحب الرسالة العظمى، إلى أن أدركته منيته بالعراق فى آخر خلافة معاوية، وكان قد انتقل إليها فى آخر أيامه وله عقب بها، وقد عده المؤرخون بين رجال الحديث ورواته، فذكروا [1] أنه روى عنه ابناه علقمة وعبد الجبار وزوجه أم يحيى ومولى لهم وكايب بن شهاب وحجر بن عميس وآخرون، كما ذكروا أن من عقبه العلامة عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ الشهير والفيلسوف الكبير

انتشار الإسلام

وانتشر الإسلام فى أنحاء البلاد الحضرمية بعد عودة الوفود، وحل الدين الجديد محل الأديان التى كان الحضارم يدينون بها، فقد كانت الأغلبية منهم وثنية كغيرهم من العرب، وكانت هناك أقليات تعتنق اليهودية أو النصرانية. وأقبل زياد بن لبيد عاملا على حضرموت من قبل النبي عليه السلام فأقام فى تريم وتارة فى شبام، وأمده النبي بمعاذ بن جبل يطوف بأرجاء البلاد يعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين، وأقام زياد عنه نواباً فى أنحاء القطر يجمعون الصدقات، وكان زياد يوزع صدقات الأغنياء على الفقراء ويرسل ما فضل عن الحاجة إلى المدينة

وبذلك استقبلت حضرموت عهداً جديداً فى ظل الإسلام خلعت فيه حياة الجاهلية وعبادة الأوثان، وانصرفت إلى توحيد الله وعبادته وتطبيق أحكام الدين الإسلامى راضية مطمئنة

---

(١) الاصابة فى أسماء الصحابة ج ٦

(٢)

الأشعث بن قيس الكندى

سيد كندة ـ إسلامه ـ زواجه أم فروة ـ بيعة الصديق ـ شرارة الفتنة ـ تطور الموقف
الأشعث فى الميدان ـ المعركة الفاصلة ـ الأشعث أمام الخليفة
نشاطه الحربى والسياسى ـ أحفاد الأشعث

سيد كندة

سيد من سادات كندة وأمير من أمرائها المعروفين بالفصاحة والشجاعة ، كان أبوه قيس ملكا عظيم السلطان ، وكان صاحب ثروة وكرم وشهرة واسعة ، قصده الشعراء ومدحوه وأثنوا عليه ، وكان يقود بنفسه جيوشه فى الغزوات والحروب التى تنشب بينه وبين جيرانه من مذحج وبنى عامر وغيرهم من العرب ، وفى إحدى حروبه مع مذحج وقع ابنه الأشعث أسيراً فقداه بثلاثة آلاف بعير بزيادة ألف بعير عن دية الملوك

نشأ الأشعث ـ لذلك ـ فى أحضان الملك ونعيمه وأبهته ، واكتسب من محيطه خبرة بشئون الحرب وتصريف الأمور ، وورث عن أبيه مكانته فى كندة ونفوذه بينهم ، وكان خليقاً بذلك لشجاعته وإقدامه ودهائه وفصاحته

وشهد الاشعث كثيراً من الحروب مع أبيه فجعلت منه بطلا مغواراً بصيراً بالحرب ، رابط الجأش ثابت العزيمة ، ولما قتل أبوه سنة ٣٥ بعد الميلاد النبوى فى إحدى وقائعه الحربية مع قبيلة مراد جمع جموعاً كثيرة لقتالهم واشتبك معهم فى معارك انتهت بوقوعه أسيراً فى أيديهم ولم يطلق سراحه حتى افتدى بألف ناقه وألف طرفة من طرائف اليمن

ولم يكن الملك فى هذا العهد يعرف نظاماً أو حدوداً معينة ، انما هى سلطة مطلقة لاحدّ لها ، أشبه ما تكون برئاسة القبائل التى تعتمد على العصبية ولا تتقيد بنظام خاص ، وقد كان صاحبنا الاشعث يعتمد فى نفوذه على عشيرته من بنى الحارث بن معاوية ، وكان يقيم فى

محجره الخاص بين منازل قومه

وقد عاصر الأشعث أمراء آخرون من كندة وغيرهم لهم فى مناطقهم وبين عشائرهم ما للأشعث من نفوذ وسلطان ، فكان فى بنى عمرو بن معاوية خمسة رؤساء أو أمراء كلهم اخوة أبناء أب واحد وهم : جعد ومخوس ومشرح وأبضعة وأختهم العمرّدة ، وكان لكل منهم واد يملكه ومحجر خاص يقيم فيه ، وكان لغير هؤلاء أمراء آخرون يقيمون فى شبام ودوعن وعمد وجردان والشحر وغيرها من مناطق الدواخل والسواحل

إسلامه

لما جاء نصر الله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، كان الأشعث بن قيس رئيس أكبر الوفود الحضرمية التى قدمت على النبى عليه السلام فى السنة العاشرة من الهجرة ، فقد تحدث التاريخ بأن الأشعث تجهز فى ثمانين راكباً من قومه اختاروا لهم أجود إبلهم وأقواها وأعدوا لهذا السفر الطويل الشاق من زاد وسلاح وأتهبة ما حسبوا أنه يكبرهم فى صدور من يمرون بهم من العرب فى اليمن ونجران ، ومن يقدمون عليهم فى الحجاز من سادات قريش وأشراف الأوس والخزرج

ومرت أسابيع وركب الاشعث مجد فى سيره يطوى الوهاد والنجاد ويقطع المفاوز والاودية ويمر بسادات القبائل ورؤسائها فيقابل بما هو له أهل من ترحاب وإكرام حتى يقدم المدينة بعد ما يقرب عن شهرين

وبينما كان النبى عليه السلام ذات يوم فى المسجد بين أصحابه يتحدث اليهم كعادته ، أقبل الاشعث فى ركبه الفخم يشق شوارع المدينة لا يفارقون ظهور إبلهم حتى وصلوا المسجد فأناخوها بفنائه ودخلوا على النبى فى أحسن هيئتهم قد رجّلوا لممهم وتكحلوا ولبسوا جبب الحبر بطنوها بالحرير ـ والحبر أثواب يمانية ذات خطوط تنسج من القطن أو الكتان ـ فبالغ النبى فى إكرامهم والحفاوة بهم ، وكان مما قاله لهم حين رآهم يلبسون الحرير : ألم تسلموا ؟ قالوا بلى . قال : فما هذا الحرير فى أعناقكم ؟ فبادروا فشقوه من جيوبهم وألقوه

زواجه أم فروة

ولم يشأ الاشعث أن ينصرف إلى حضرموت حتى يربط هذه الزيارة التاريخية بصلة متينة فخطب أم فروة بنت أبي قحافة أخت أبي بكر الصديق ، ولم يتردد الصديق فى قبول هذه الخطبة إذ كانت بمعرفة النبي عليه السلام وموافقته ، وبذلك أصهر الاشعث إلى قبيلة تيم القرشية وإلى كبير المسلمين وأكثرهم حظوة عند رسول الله وصاحبه فى الغار ، وهى بعد ذلك عمة أم المؤمنين وزوج رسول الله عائشة الصديقة بنت الصديق ، ولكن زواجه لم يتم بها إلا فى السنة الثانية عشرة من الهجرة بعد وفاة رسول الله وفى خلافة الصديق

ويذكر بعض المؤرخين أن النبي عليه السلام خطب قتيلة بنت قيس أخت الاشعث ، كعادته فى الاصهار إلى قبائل العرب رغبة فى تقريبهم إلى الإسلام وتوكيداً للصلات التى يسعى النبي عليه السلام فى عقدها مع قبائل العرب الكبرى ، ولكن رسول الله توفى قبل أن تقدُم عليه

بيعة الصديق

لم يمض على إسلام الحضارم سنة واحدة حتى قدم البريد بكتاب من الخليفة الاول إلى زياد بن لبيد يخبره بوفاة النبي ويأمره بأخذ البيعة على من قبله من أهل حضرموت ، فجمع زياد الناس ، وقام فيهم خطيباً : أخبرهم بموت النبي عليه السلام ودعاهم إلى بيعة أبي بكر ، فأسرع الكثير منهم إلى البيعة وتردد البعض وتأخر عن المبايعة وكان فى مقدمة هؤلاء الاشعث بن قيس فقد اعتزل فى جماعة من كندة

والواقع أن الناس كانوا حديثي عهد بالدين الجديد ولم يعرفوا بعد نظام الحكم فى الإسلام شأنهم شأن غيرهم من العرب الذين تأخر إسلامهم ولم يفوزوا بشرف الاتصال المباشر بالنبي عليه السلام ، والاستماع إلى أحاديثه وتعاليمه ، ففاجأهم موت النبي عليه السلام قبل أن تتهيأ أذهانهم لمعرفة الوضع السياسى الذى ينبغى أن يخضع له المسلمون ، فحصل اضطراب فى كافة أنحاء الجزيرة

تأخر فريق من العرب عن البيعة لأبى بكر وَامتنع فريق عن دفع الزكاة وَتطلع بعض من لم يخلص للاسلام إلى الفتنة لهوى فى نفوسهم ، وكان رأى بعض زعماء كندة أنه إذا خضعت حضرموت لحكم النبى حال حياته فلا مانع من أن تستقل عن سلطة من يتولى الحكم بعده ، وَمن هؤلاء حارثة بن سراقة الكندى الذى عبَّر عن هذا المعنى بقوله :

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا فيا قوم ماشأنى وَشأنُ أبى بكر
أيورثها بكراً إذا كان بعده فتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وَلكن الخليفة أبا بكر استعمل الشدة وَالحزم فى هذه الفتنة ، فأسرع إلى قتال المرتدين وَالمتخلفين عن البيعة وَالمانعين للزكاة فكان النصر حليفه ، وَلم تمض السنة التى لحق بها الرسول بربه حتى عادت الجزيرة العربية إلى وحدتها أشد إيماناً بدينها وَأقوى تمسكا به

شرارة الفتنة

ان دفع الزكاة لعامل الخليفة هو المظهر الاول للاعتراف بالخليفة وَالطاعة له ، لذلك تولى زياد جمع صدقات بنى عمرو بن معاوية بنفسه ليتأكد من صحة الاخبار التى بلغته عنهم ، فقدم عليهم ذات يوم وَهم بموضع لهم يسمى الرياض ، فبدأ بغلام منهم يقال له شيطان بن حجر فأخذ فيما أخذ منه ناقة أعجبته وَوَسمها بميسم الصدقة وَكانت هذه الناقة (وَاسمها شذرة) لأخى شيطان : العداء بن حجر وَليست عليه صدقة ، وَقد ظن أخوه حين سلمها لزياد أنها من إبله ، فقال العداء مخاطباً لزياد : ـ

العداء : هذه ناقتى شذرة

شيطان : صدق أخى فانى لم أعطكموها إلا وَأنا أراها غيرها فأطلق شذرة وَخذ غيرها

زياد : ـ منعها لها ـ لا . وَلا تنعم وَلا هى لك لا سبيل إلى ردها ، لقد وَقع عليها ميسم الصدقة وَصارت فى حق الله

العداء : ـ منادياً قومه ـ يا آل عمرو بالرياض أضام وَأضطهد ؟ ان الذليل من أكل فى داره . وَنادى : يا أبا السميط عقلت ابنة المهرة ، فأقبل أبو السميط حارثة بن سراقة

فقصد لزياد وهو واقف : —

حارثة : أطلق لهذا الفتى بكرته وخذ بعيراً مكانها فانما بعير مكان بعير

زياد : ما إلى ذلك من سبيل ، لقد عقلتها ووسمتها بميسم الصدقة

حارثة : أطلقها أيها الرجل طائعاً قبل أن تتركها وأنت كاره

زياد : لا والله لا أطلقها

حارثة : ذاك إذا كنت يهودياً . وقام إلى الناقة فحلّ عقالها وضرب على جنبها فبعثها وقام دونها وهو يقول : —

يمنعها شيخ بخديه الشيب ملمع كما يلمع الثـــوب

ونهض زياد غاضباً فصاح فى أصحابه فاجتمع إليه شباب من حضرموت والسكون فأمرهم بالقبض على حارثه فكتفوه وكتفوا شيطان والعداء وارتهنوهم وأخذوا الناقة فعقلوها كما كانت ، وكان زياد قد اتهمهم [1] بالكفر ومباعدة الإسلام

تطور الموقف

وهكذا تطور الموقف وتوترت العلاقات ولم يكن بد من الالتجاء إلى السلاح . فقد غضبت بنو معاوية لحارثة ونادوا بحمل السلاح وأظهروا أمرهم وانضمت إلى زياد حضرموت والسكون . واجتمع عسكران عظيمان من هؤلاء وأولئك ، فأرسل زياد إلى بنى معاوية يقول لهم :

زياد : اما أن تضعوا السلاح واما أن تؤذنوا بحرب

بنو معاوية : لا نضع السلاح أبداً حتى ترسلوا إلينا أصحابنا

زياد : لا يرسلون أبداً حتى تتفرقوا وانتم صاغرون

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٢

السكون ـ لزياد ـ : انه لا يحسم الخلاف إلا السيف ، ولن يخضع بنو معاوية إلا للقوة فاهجم عليهم وأعمل السيف فى رقابهم

ورأى زياد أن لابد من تحكيم السيف فهجم عليهم ليلا وقتل منهم عدداً وتفرق الباقون هاربين وخلى عن النفر الثلاثة فعادوا إلى أصحابهم مصممين على حرب زياد وقالوا لهم لا تصلح البلدة علينا وعلى هؤلاء حتى تخلو لأحد الفريقين . ونادوا بمنع الصدقة[1]

وقيل لزياد : ان أقواماً من السكاسك قد انضموا اليهم وقد تسرع اليهم قوم من السكون وشذاذ حضرموت ويخشى أن ينفض الناس إليهم من حولك ، فالرأى أن تبادئهم بالهجوم وهم فى منازلهم . فجمع زياد جيشاً كبيراً وهجم عليهم فى محاجرهم فوجدوهم حول نيرانهم جلوساً فأكبوا على بنى عمرو بن معاوية وهم عدد القوم وشوكتهم من خمسة أوجه فى خمس فرق ، فقتلوا ملوكهم مشرحاً ومخوصاً وجمداً وأبضعة وأختهم العمرد . وأكثروا القتل ، وهرب من أطاق الهرب ، وعاد زياد بالسبى والأموال ، وأخذوا طريقاً يفضى بهم إلى عسكر الأشعث وبنى الحارث بن معاوية

الأشعث فى الميدان

لما مر سبى بنى عمرو بن معاوية بعسكر الأشعث استغاث النساء ببنى الحارث بن معاويه وصرخن :

يا أشعث . يا أشعث . خالاتك . خالاتك

وصاح الصبيان أيضاً ، فحمى الأشعث أنفاً وثار فى بنى الحارث وخرج فى جماعة منهم فعرض لزياد ومن معه ونشبت معركة أصيب فيها عدد من أصحاب زياد وانهزم بقيتهم ، وخلص الأشعث نساء بنى عمرو وأطفالهم

وأدرك الأشعث أن زيادا لن يتركه بعد هذه الحادثة فجمع اليه بنى الحارث وبنى عمرو

---

(١) الطبرى ج ٢

ومن أطاعه من السكاسك ومن حوله من القبائل واجتمعت إليه عظماء كندة مجمعين على منع الزكاة ومحاربة زياد وعدم الخضوع له

وعظم على زياد عصيانُ كندة وتألُّبهم فكتب إلى أبي بكر يستمده فكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبي أمية وكان والياً على صنعاء يأمره بإنجاد زياد وأن يسير مع عكرمة بن أبي جهل لقتال كندة ، وكان هذا قد قدم أبين من ناحية عمان ومعه جيش كبير من مهرة والأزد وناجية وعبد القيس

والتقى المهاجر بعكرمة في مأرب ، ثم تعجل المهاجر في سرعان الناس ، واستخلف على الجيش عكرمة وسار من مأرب ماراً برملة صيهد حتى قدم على زياد

المعركة الفاصلة

كانت كندة قد تجمعت بحجر الزرقان تحت قيادة الأشعث معلنة العصيان مصممة على الدفاع متفقة على الخروج على سلطة الخليفة ـ وطابقت معاوية كلها على منع الصدقة وأجمعوا على الردّة [1] إلا ما كان من شرحبيل بن السمط وابنه فانهما قاما في بني معاوية فقالا : والله إن هذا لقبيحٌ بأقوام أحرار التنقل ، ان الكرام ليكونون على الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا منها إلى أوضح منها مخافة العار ، فكيف بالرجوع عن الجميل وعن الحق إلى الباطل والقبيح ، اللهم إنا لا نمالىء قومنا على هذا ، وخرج شرحبيل وابنه حتى أتيا زياداً فانضما إليه [2]

ولم يكن بُدّ من إخضاعهم للسلطة السياسية العليا في المدينة لتتم الوحدة التي أرادها الله لدينه وللمسلمين ، لذلك أمر الخليفة بقتالهم ، فقصد اليه زياد ومعه المهاجر قائد الجيش الذي أرسله الصديق من اليمن فالتقى الفريقان في حجر الزرقان في معركة طاحنة انهزمت على أثرها كندة والتجأت إلى حصن لهم منيع فسيح يدعى النجير على بعد ثلاثة أميال شرقي مدينة تريم

---

(١) تاريخ الامم والملوك للطبري ج ٢

(٢) كان ذلك قبل تجمع بني معاوية في حجر الزرقان

وكانوا قد أصلحوا من بنائه وحصنوه وقد تجمعت فيه كندة، ومن انضم إليهم من السكاسك وحضرموت والسكون

كانت للنجير ثلاث طرق تؤدى كلها إليه ، عسكر زياد على أحدها ، وعسكر المهاجر على الآخر ، وبقى الثالث لكندة يذهبون منه ويأتى منه اليهم المواد ، فلما قدم عكرمة نزل بهذا الطريق وأحكم عليهم الحصار وفرّق الخيل فى منازل كندة وأمر بمشاغبتهم ومناوشتهم ، وبعث المهاجر إلى الساحل خالداً المخزومى وربيعة الحضرمى فقاتلوا المتخلفين عن البيعة المانعين للزكاة وأخضعوهم ، وبعث يزيد بن قنان من بنى مالك بن سعد إلى قرى بنى هند فى شرق وادى حضرموت إلى برهوت فأكثر فيهم القتل

وبلغ كندة وهم فى الحصار ما لقى سائر قومهم فقالوا : الموت خير لكم مما أنتم فيه ، جُزُّوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم لله أنفسكم فأنهم عليكم فوثبتم بنعمه لعله أن ينصركم على هؤلاء الظلمة ، ثم جزّوا نواصيهم وتعاقدوا وتواثقوا ألاّ يفرّ بعضهم عن بعض ، وجعل راجزهم يرتجز فى جوف الليل فوق حصنهم ويقول : ـ

صباح سوء لبنى قتيره وللأمير من بنى المغيره

فلما أصبحوا خرجوا على الناس فاقتتلوا حول الحصن حتى كثرت القتلى فى كل طريق من الطرق الثلاثة ، وعادوا إلى حصنهم وقد كثرت فيه القتلى

وأيقنت كندة أن جيوش الخليفة لن تنصرف عنهم وأن المدد لا ينقطع لهم ، ورأى الأشعث أن لا مناص من التسليم فخرج من الحصن إلى عكرمة بأمان ـ وكان لا يأمن غيره ـ فأبلغه عكرمة إلى المهاجر واستأمنه له على نفسه وعلى تسعة نفر من أقاربه وبنى عمه على أن يفتح لهم باب الحصن فأجابه إلى ذلك وقال انطلق فاستوثق لنفسك ثم هلمّ كتابك أختمه ، فكتب وثيقة الأمان للعشرة النفر وفيهم أخو الأشعث وبنو عمه وأهلوهم ، ولما أراد الأشعث أن يكتب نفسه وثب عليه معدان بن الأسود بشفرة وأخذ بحقوه وقال : اجعلنى من العشرة أو أقتلك فكتبه وترك نفسه ، وقد عَدّ أصحاب الأشعث تسليمه للحصن بهذا الشرط غدراً منه وخيانة . . .

فتح الأشعث باب الحصن فاقتحمه الجيش ولم يدعوا فيه مقاتلا إلا قتلوه ضربوا أعناقهم صبراً ، ثم وضعوا الحرس على ما فى الحصن من عائلات وأموال ، وقد بلغ عدد النساء ألف امرأة ، ودعا الأشعث بأولئك النفر ودعا بكتابه فقرأه المهاجر ؛ فإذا الأشعث ليس فيه فقال : الحمد لله الذى أمكن منك يا أشعث لقد كنت أشتهى أن يجزيك الله ، وشدّه وثاقاً وهمّ بقتله ، فقال له عكرمة : أخّره وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم فى هذا ، فقال المهاجر : إن أمره لبيّن ولكنى اتبع المشورة وأوثرها ، وأخّره وبعث به إلى أبى بكر مع السبى

وكان عدد القتلى فى هذه المعارك كثيراً ، ويقدّر عدد الأسرى بنحو ستة آلاف ، وقد جرح من الصحابة رجال عادوا إلى تريم ليتداووا بها ويضمدوا جراحهم ، فمات منهم جماعة ودفنوا فيما يعرف اليوم بمقبرة زنبل

الأشعث أمام الخليفة

انتهت الاضطرابات فى حضرموت بعد هذه الحادثة وعاد إلى البلاد هدوءها واطمئنانها ، وتجهز الجيش عائداً إلى المدينة ومعه السبايا والأسرى ومن بينهم الأشعث ، فدعا به أبو بكر وجرى بينهما الحديث التالى : ـ

ـ ما ترانى صانعاً بك يا أشعث ؟

ـ انى لا أعلم برأيك

ـ إننى أرى قتلك

ـ لقد فاوضت القوم فى عشرة فما يحلّ دمى

ـ أفوّضوا إليك ؟

ـ نعم

ـ ثم أتيتهم بما فوضوا إليك فختموه لك ؟

ـ نعم

ـ فانما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من فى الصحيفة وانما كنت قبل ذلك مفاوضاً

ـ أو تحتسب فيّ خيراً فتطلق أسارى وتقيلنى عثرتى وتفعل بى مثل ما فعلته بأمثالى وتردّ على زوجتى فوالله ما كفرت بعد إسلامى ولكنى شححت على مالى ، فأطلقنى واستبقنى لحربك تجدنى خير أهل بلادى لدين الله

ـ انطلق ، فيبلغنى عنك خير

وقبل الخليفة رجاء الأشعث وتجافى له عن دمه وردّ عليه زوجته ، وأراد الأشعث أن يولم وليمة بهذه المناسبة فاخترط سيفه ودخل سوق الإبل فجعل لا يرى جملا ولا ناقة إلا عرقبه . فصاح الناس : كفر الأشعث ، فلما فرغ طرح سيفه وقال : أنى والله ما كفرتُ ، ولكن زوّجنى هذا الرجل أخته ، ولو كنا فى بلادنا لكانت وليمة غير هذه ، يا أهل المدينة كلوا ويا أصحاب الإبل تعالوا خذوا أثمانها ، وقد عاشت معه أم فروة طويلا وولدت له محمداً وإسحق وأم قريبة وحبابة[1]

نشاطه الحربى والسياسى

لما تحركت جيوش المسلمين إلى الشام لقتال الروم كان الأشعث من بين أوائل المتجهّزين لهذا الغزو ، وقد شهد هناك وقعة اليرموك الشهيرة التى انتصر فيها المسلمون فى أواخر خلافة أبى بكر وبداية عهد عمر بن الخطاب ، كما شهد وقعة القادسية بالعراق سنة خمس عشرة هجرية على رأس جماعة من قومه وقد أبلى فى معارك العراق والشام بلاء حسناً ، وكان له خطر كبير فى هذه المعارك

وكان الأشعث من بين أعضاء الوفد الذى أرسله سعد بن أبى وقاص قائد جيش المسلمين فى العراق إلى كبير فارس بالمدائن ـ يزدجرد ـ يدعونه إلى الإسلام أو الجزية أو القتال ، وقد اختار سعد أعضاء هذا الوفد من أبرز ذوى الكفاءات والمؤهّلات الممتازة فى جيشه ، فلما دخلوا على يزدجرد وهو بين وزرائه وأهل مشورته قالوا له : اختر إن شئت الجزية وإن

---

(١) معجم البلدان

شئت السيف أو تسلم فتجنّى نفسك ، فغضب يزدجر وقال : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندى

وقد أثارت شجاعة الأشعث وبلاؤه فى المعارك الحربية إعجاب القائد العبقرى الكبير خالد بن الوليد رضى الله عنه فأجازه مرة بعشرة آلاف عند ما كان بقنسرين من أرض الشام وكانت هذه الجائزة الكبيرة من بين الأشياء التى أغضبت الخليفة عمر بن الخطاب على خالد وكانت سبباً فى عزله

فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة رضى الله عنهما وكان بالشام أن يستدعى خالداً وأن يعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلم أأجاز الأشعث من ماله أو من مال المسلمين ؟ فان زعم أنها من ماله فقد أسرف وان زعم أنها من مال المسلمين فقد أقر بخيانته ، وأمره أن يعزله ويتولى عمله

ولما قدم رسول الخليفة بهذا الكتاب كتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ولم يذكر له عن كتاب الخليفة شيئاً . بل جمع الناس وجلس لهم على المنبر ثم قام الرسول الذى أوفده الخليفة يسأل خالدا : ـ

رسول الخليفة : أمِن مالك أجزت الأشعث بعشرة آلاف أم من مال المسلمين ؟

خالد : ـ ساكت ، قد عقدت الدهشة لسانه ـ

رسول الخليفة : أجبْ ، أكانت العشرة الآلاف من مالك أم من مال الأمة ؟

خالد : [صامت لا ينبس ببنت شفه]

رسول الخليفة : يلح فى السؤال

بلال : ـ بأمر من أبى عبيدة ـ : ان أمير المؤمنين أمر أن تعقل بعمامتك وأن تنزع عنك قلنسوتك حتى تجيب عما تسأل الآن عنه

خالد : غارق فى دهشته لا يخرج من صمته

بلال : ـ يتناول قلنسوة خالد ويلم يديه وراء ظهره ويعقله بعمامته ويقول :

ماتقول ؟ أمن مالك أم من مال المسلمين ؟

خالد ـ فى هدوء ورزانة ـ : بل من مالى

بلال : ـ وقد أعاد قلنسوة خالد وعممه بيده ـ : نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم ونخدم موالينا

وقد كان الأشعث يسكن الكوفة أثناء الفتوحات الإسلامية فى العراق وفارس . ولما توفى الخليفة عمر بن الخطاب ولاه الخليفة الثالث عثمان حكم أذربيجان فكان الأشعث عاملا عليها [1] إلى أن أدركت عثمان الوفاة فكتب إليه على بن أبى طالب أن يأخذ له البيعة من أهل أذربيجان ويحضُرَ إليه ، وهذا بعض ما جاء فى الكتاب :

[من أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى الأشعث بن قيس . أما بعد : لقد كان من بيعة الناس إياى ما قد بلغك وكان طلحة والزبير أول من بايعنى ثم نقضا بيعتى على غير حدث وأخرجا أم المؤمنين إلى البصرة فصرت إليهما فى المهاجرين والأنصار فالتقينا فدعوتهما إلى أن يرجعا إلى ما خرجا منه فأبيا فأبلغت فى الدعاء وأحسنت فى البقاء . وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه أمانة فى عنقك والمال مال الله وأنت من خُزَّانى عليه حتى تسلّمه إلىَّ إن شاء الله وعَلَىَّ ألاّ أكون شَرَّ وُلاتك والسلام]

ولما تناول الأشعث خطاب على قام فى الناس خطيباً فقال : أيها الناس إن عثمان رحمه الله ولانى أذربيجان وهلك وهى فى يدى ، وقد بايع الناس عليا وطاعته لنا لازمة ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما قد بلغكم وهو المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك

وقد فكر الأشعث فى أن يلحق بمعاوية ، فدعا إلى منزله أهل ثقته من أصحابه [2] وقال لهم : ان كتاب على جاءنى وقد أوحشنى وهو آخذى بمال أذربيجان وأنا لاحق بمعاوية . فقال القوم : الموت خير لك من ذلك أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام ؟

---

(١) الكامل لابن الأثير

(٢) الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة

فصل عن الذهاب إلى معاوية وقدم على الامام رضى الله عنه وشهد معه حروبه مع معاوية فى صفين

وكتب التاريخ المعتمدة تروى القصة التالية فتقول : لما نزل معاوية بصفين سبق أصحابَ على إلى الماء وحال بينهم وبين أن يستقوا من الفرات ، فحزن علىٌّ لما فيه الناس من العطش وقال للأشعث اذهب إلى معاوية فقل له : ان الذى جئنا به غير الماء ولو سبقناك إليه لم نَحُلْ بينك وبينه فان شئت خلّيتَ عن الماء وإن شئت تناجزنا عليه . فانطلق الأشعث إلى معاوية فقال له : إنك تمنعنا الماء وأيم الله لنشربنه ثم هم يكفوا عنه قبل أن نغلب عليه ، والله لا نموت عطشاً وسيوفنا على رقابنا ، ولما امتنع معاوية قال له عمرو بن العاص : لقد شجعت الجبان وحملت من لا يريد قتالك على قتالك

وعاد الأشعث يقول للإمام على : أيمنعنا القوم وأنت فينا ومعنا السيوف ؟ خلّ عنا وعن القوم فوالله لا أرجع إليك حتى أرده أو أموت دونه . فقال على لك ذلك . وانصرف الأشعث فنادى فى الناس : من كان يريد الماء فيعاده الصبح فانى ناهض إلى الماء . فانضم إليه جماعة عند الصباح هجم بهم على أصحاب معاوية فزحزحهم عن الماء واستولى عليه

وقد أدرك معاوية أهمية الأشعث فى النزاع بينه وبين على فأرسل إليه أخاه عتبة بن أبى سفيان يوم صفين وقال له : ألِنْ إلى الأشعث كلاماً فانه إن رضى بالصلح رضيت به العامة ، فخرج عتبة حتى إذا وقف بين الصفين نادى بالأشعث فأتاه فقال له :

« أيها الرجل ، ان معاوية لو كان لاقياً أحداً غيرك وغير على لقيك ، إنك رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن ومن قد سلف إليه من عثمان ما قد سلف من الصهر والعمل ، ولست كأصحابك الأشتر وعدى وسعيد بن قيس وغيرهم . لقد حاميت عن أهل العراق تكرماً وحاربت أهل الشام حمية ، وانا لا ندعوك إلى ترك على ولا إلى نصرة معاوية ولكنا ندعوك إلى البقية التى فيها صلاحك وصلاحنا »

فأجابه الأشعث : ـ

« يا عتبة ، أما قولك ان معاوية لا يلقى إلا علياً فلو لقيني ما زاد ولا عظم فى عيني ولا صغرت عنه وان أحب أن أجمع بينه وبين على لأفعلن . وأما قولك انى رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن فالرأس الأمير والسيد المطاع وهاتان لعلى ، وأما ما سلف إلى من عثمان فوالله ما زادنى صهره شرفاً ولا عمله غنى . وأما عيبك أصحابى فان هذا الأمر لا يقربك منى . وأما محاماتى عن أهل العراق فمن نزل بيننا حميناه . وأما البقية فلسنا بأحوج اليها منكم » يعنى ذلك الصلح

وكان الأشعث من بين الذين أشاروا على الإمام على بقبول التحكيم حين رفع أهل الشام المصاحف ودعوا إلى تحكيم كتاب الله فقد قال له : يا أمير المؤمنين أرى الناس قد رضوا بما دعوهم اليهم من حكم القرآن فان شئت أتيتُ معاوية فسألته ما يريد ؟ قال ائته . فأتاه فقال لمعاوية : لأى شيء رفعتم هذه المصاحف ؟ قال لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى كتابه تبعثون رجلا ترضون به ونبعث نحن رجلا نرضى به نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه . فقال الأشعث هذا هو الحق ، وعاد إلى على فأخبره وقال له : لقد أنصفك القوم فأجبهم إلى كتاب الله فانك أحق به منهم . والله لئن لم تقبل هذا لا نرمى معك بسهم ولا حجر ولا نقف معك موقفاً . ثم كان من أمر التحكيم بعد ذلك ما هو معروف فى كتب التاريخ

ولم تطل بالأشعث حياة بعد ذلك فقد أدركته الوفاة وهو بالكوفة بعد قتل الإمام على بأربعين ليلة ، وصلى عليه الحسن بن على وله من العمر ثلاث وستون سنة

أحفاد الأشعث

روى ابن قتيبة قال [1] : « لما قدم الحجاج العراق أميراً زوج ابنه محمداً ميمونة بنت محمد بن الأشعث بن قيس رغبة فى شرفها مع ما كان لها من جمال وفضل فى جميع حالاتها وأراد من ذلك استمالة جميع أهلها وقومها إلى مصافاته ليكونوا له يداً على من ناوأه ، وكان

---

(١) الامامة والسياسة

لما أخ يقال له عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث له أبهة فى نفسه وكان جميلا بهياً منطقياً مع ما كان له من التقدم والشرف فازدهاه ذلك وملأه كبراً وفخراً وتطاولا ، فألزمه بنفسه وألحقه بأفاضل أصحابه وخاصته وأهل سره وأجرى عليه العطايا الواسعة صلة بصهره وحباً لإتمام الصنيعة إليه وإلى جميع أهله »

« فأقام عبد الرحمن كذلك حيناً مع الحجاج لا يزيده الحجاج إلا إكراماً ولا يظهر له إلا قبولا وفى نفس الحجاج من عجبه ما فيها لنشمه زاهياً بأنفه . . . حتى إذا عيل صبر الحجاج أراد أن يبتلى حقيقة ما يتفرس فيه وأن يبدى منه ما يكتم من غائلته فكتب إليه عهده على سجستان فلما بلغ ذلك أهل بيت عبد الرحمن فزعوا من ذلك فزعاً شديداً فأتوا الحجاج فقالوا : أصلح الله الأمير إنا أعلم به منك ولقد أدبته بكل أدب فأبى أن ينتهى عجبه بنفسه ونحن نتخوف أن يفتق فتقاً أو يحدث حدثاً يصيبنا فيه منك ما يسوءنا ، فقال الحجاج القول كما قلتم والرأى كالذى رأيتم ، ولقد استعملته على بصيرة فان يستقم فلنفسه نظر ، وإن يفترج سبيله عن بصائر الحق يُهدى إن شاء الله . . . »

فلما توجه عبد الرحمن إلى عمله توجه وهو مضمر على خلع طاعة الحجاج ولم يلبث أن أقدم على خلع الطاعة ، الأمر الذى أدى إلى حروبه مع الحجاج المعروفة فى كتب التاريخ والتى لا نريد أن نطيل بذكرها هنا فالتعرض لذلك خروج عما نحن بصدده

(٣)

عبد الله بن يحيى الكندى

نذر الثورة ـ الخروج على بنى أمية ـ الزحف إلى صنعاء ـ إلى أم القرى ـ معركة قديد نجدة دمشق ـ طالب الحق فى المعركة ـ الجيش الأموى فى شبام ـ رثاء طالب الحق

نذر الثورة

إذا طوينا القرون القهقرى فأتينا إلى دمشق عاصمة الخلفاء من بنى أمية حيث بويع لآخر خليفة أموى هو مروان بن محمد الجعدى سنة ١٢٧ هـ وجدنا الفتن والاضطرابات قد أقلقت مركز الخلافة فقد ماج العالم الإسلامى بالثورة وانتشرت الفوضى فى ممالك الدولة وضرب الفساد والظلم أطنابه

وإذا انتقلنا من عاصمة الأمويين إلى حضرموت وجدنا شاباً حادّ الذكاء بعيد النظر فصيحاً بليغاً شجاعاً كريماً على جانب عظيم من الورع والصلاح والتقوى، ذلك هو عبد الله بن يحيى الكندى أحد بنى عمرو بن معاوية، وقد حدّث عن نفسه فقال : ـ

« لقينى رجل فأطال النظر إلى فقال : ممن أنت ؟ قلت من كندة . قال من أيهم ؟ قلت من بنى شيطان . قال : والله لتملكن ولتبلغن خيلك وادى القرى وذلك بعد أن تذهب إحدى عينيك. فذهبت أتخوف ما قال وأستجير الله فرأيت باليمن جوراً ظاهراً وعسفاً شديداً وسيرة فى الناس قبيحة . فقال لأصحابه : ما يحل لنا المقام على ما نرى ولا يسعنا الصبر عليه

الخروج على بنى أمية

وكتب عبد الله بن يحيى إلى جماعة من زعماء الأباضية بالبصرة شركائه فى المذهب والعقيدة يشاورهم فى الخروج على الخليفة الأموى فكتبوا إليه : ـ

ان استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل فان المبادرة بالعمل الصالح أفضل، ولست تدرى

متى يأتى عليك أجلك ، والله خيرة من عباده يبعثهم إن شاء لنصرة دينه ويختص بالشهادة منهم من يشاء

وإجابة لطلب عبد الله بن يحيى قدم اليه من البصرة جماعة من الأباضية على رأسهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدى وبلج بن عقبة السقورى فحثوه على الخروج

وقد تم لعبد الله بن يحيى الانقلاب الذى أراده فى حضرموت دون أن يريق فى سبيله دماً ، فقد بويع بالخلافة سنة ١٢٩ هـ وأمر بحبس إبراهيم بن جبلة عامل بنى أمية فى حضرموت وكان يقيم بدمون ثم أطلقه حيث لحق بصنعاء وبذلك فصل حضرموت عن دمشق عاصمة الخلافة واستأثر فيها بالسلطة وانصرف إلى إصلاح شئون البلاد فنشر الأمن وحقق العدل وبنى المساجد وأطعم الفقراء فأحبه الناس والتفوا حوله وهابته القبائل وأكبروا همته وطموحه وسموه طالب الحق

الزحف إلى صنعاء

لم تكن ثورة « طالب الحق » تهدف إلى تخليص حضرموت من حكم الأمويين فحسب بل كان يطمح إلى أبعد من ذلك ، فقد أعد العدة لغزو اليمن والحجاز والقضاء على سلطان بنى أمية فيهما ونشر الأمن والعدل فى ربوعهما ومن يدرى ؟ فربما كان يفكر فى غزو الشام ومحاربة الخليفة الأموى فى عقر داره

ففى ذلك العام الذى أعلن الكندى فيه ثورته أى عام ١٢٩ هـ توجه بألفى مقاتل من أبطال الحضارم ومن أنصاره اباضية البصرة إلى صنعاء عاصمة اليمن وأناب عنه فى حضرموت عبد الله بن سعيد الحضرمى ولم يكد خبر هذا الزحف يصل إلى القاسم بن محمد عامل مروان على صنعاء حتى تأهب للقاء الثائر الكندى وخرج من صنعاء فى عدة آلاف بعد ما استخلف عليها الضحاك بن زمل

والتقى الجيشان فى الطريق إلى صنعاء فى موضع يقال له (بلج) وكان الليل قد أظلم فلم ينتظروا بالقتال إلى الصباح واصطدم الجيشان فى معركة دامية استمات فيها جيش الكندى

وأبلى بلاء حسناً حتى تم له النصر ، وأسفرت المعركة عن هزيمة شنيعة بعامل صنعاء ، وتفرق جيشه الكثيف تاركا وراءه كثيراً من القتلى

واستطاع عامل صنعاء أن يجمع فلول جيشه وينظم شتاتهم ويعسكر بهم قريباً من صنعاء فلحقهم الكندى وهجم عليهم أعنف هجوم لم يستطيعوا الثبات معه فانهزموا شر هزيمة ولم يتمكنوا من الدفاع عن صنعاء فدخلها طالب الحق ظافراً منتصراً واستولى عليها وجمع ما فيها من الخزائن والأموال ، وأسر عاملها الضحاك بن زمل كما أسر إبراهيم بن جبلة الكندى عامل دمون الذى طرد من حضرموت . ثم قصد المسجد وصعد المنبر يخطب فى الناس . فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه السلام : —

« أيها الناس إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجابة من دعا اليهما ، الإسلام ديننا ومحمد نبينا والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا ، رضينا بالحلال حلالا لا نبتغى به بديلا ، ولا نشترى به ثمناً قليلا ، وحرَّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ، ندعوكم إلى فرائض بينات ، وآيات محكمات ، وآثار مقتدى بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وعد ، عدل فيما حكم ، وندعو إلى توحيد الرب ، واليقين بالوعيد والوعد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله . والعداوة لأعداء الله

أيها الناس . إن من رحمة الله أن جعل فى كل فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون على الألم فى جنب الله ، يقتلون على الحق شهداء فما نسيهم ربهم وما كان ربك نسيا . أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به فأبلوا الله بلاء حسناً فى أمره وذكره ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.»

وقد أقام « طالب الحق » فى صنعاء بعد ذلك أشهراً أزال فى خلالها المظالم ونشر العدل وأحسن السيرة ، وقصده الشعراء ومدحوه ، وأتته سادات القبائل من كل أرجاء اليمن

إلى أم القرى

فى أواخر ذى القعدة من سنة ١٢٩ هـ اختار طالب الحق جماعة من أبطال جيشه وجهزهم

إلى مكة تحت قيادة أبي حمزة المختار ، فتحرك هذا الجيش من صنعاء قاصداً الحجاز ، فقدمها والناس متهيئون للحج ، فعسكر أبو حمزة بجيشه خارج مكة ، وجرى بينه وبين أمير مكة عبد الواحد بن سليمان مفاوضات انتهت بموافقة أبي حمزة على أن لا يحدث حدثاً حتى يقضي الحاج عمله خشية إزعاج حجاج بيت الله ، وبعد أن انقضت أعمال الحج خرج عامل مكة منها متجهاً إلى المدينة لأنه رأى أن لا فائدة فى الدفاع ، فسلمها إلى أبي حمزة بدون قتال

بعد أن قدم عبد الواحد بن سليمان إلى المدينة كتب إلى مروان يخبره بما حدث ، ويعتذر لخروجه من مكة ، فكتب مروان إلى عامله بالمدينة يأمره بالمسير لقتال جيش الثائر الكندى ، فخرج فى ثمانية آلاف رجل قاصداً مكة ، وخرج أبو حمزة المختار فى أبطال كندة وتميم وغيرهم بعد أن استخلف على مكة ابراهيم بن الصباح

معركة قديد

والتقى الجيشان فى طريق المدينة بموضع يقال له قديد ، وكان عدد الجيش الأموى يفوق جيش أبي حمزة أضعافاً مضاعفة ، وأمر أبو حمزة جيشه أن لا يقاتلوا حتى يبدأهم الجيش الأموى بالقتال حقناً لدماء المسلمين ، فلم يحدثوا حدثاً حتى رمى أحد الجنود الأمويين أبا حمزة المختار بسهم فأخطأه وأصاب رجلا آخر ، فقال أبو حمزة : شأنكم الآن فقد حل قتالهم

واشتبك الجيشان فى معركة شديدة حامية الوطيس انكشفت عن انهزام الجيش الأموى وقتل الفين ومائتين وثلاثين منهم وتفرق الباقون تاركين المدينة المنورة أمام جيش أبي حمزة فدخلها على رأس جيشه بعد أن تم له النصر ، ثم قصد المسجد وقام فى الناس خطيباً وكان من جملة ما قال : ـ

« إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا غدراً ، ولكننا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعُنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعى الله ، ومن لم يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض . أقبلنا من قبائل شتى كل جماعة منا على بعير واحد عليه

زادهم يتعاورون لحافاً واحداً قليلون مستضعفون فى الأرض ، فآوانا وأيدنا بنصره فأصبحنا بنعمته إخوانا ، ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان ، فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغى . وأنتم يا أهل المدينة ان تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين »

نجدة دمشق

اتصل بمروان نبأ احتلال المدينة فجهز أربعة آلاف فارس من أهل الشام استعمل عليهم عبد الملك بن عطية السعدى وأمره بالجد فى السير وأعطى كل رجل من أصحابه مائة دينار وفرساً عربياً وبغلا لثقله ومتاعه ، فلما كانوا بموضع يقال له (المعلى) بعث أبو حمزة جيشاً لقتالهم مؤلفاً من ستمائة رجل تحت قيادة بلج بن عقبة ، فالتقى الجيشان بوادى القرى لأيام خلت من جمادى الأولى سنة مائة وثلاثين هـ

دعاهم بلج إلى الكتاب والسنة وذكر بنى أمية وظلمهم فأسمعوه ما يكره ، فحمل عليهم بلج وأصحابه فانهزمت طائفة من أهل الشام وثبت ابن عطية وقال : ناضلوا عن دينكم وأميركم فكروا وصبروا وقاتلوا قتالا شديداً ، فقتل بلج وأكثر أصحابه وانحازت بقية منهم نحو المائة إلى جبل اعتصموا به فقاتلهم ابن عطية ثلاثة أيام ، فقتل منهم سبعون رجلا ونجا ثلاثون ، فرجعوا إلى أبى حمزة

عند ذلك خرج أبو حمزة من المدينة قاصداً مكة وولى عليها رجلا يقال له المفضل ، فثار عليه عمر بن عبد الرحمن من أحفاد زيد بن الخطاب فى كثير من البربر والزنج والعبيد فقتل المفضل وقتل معه عامة أصحابه ، ودخل ابن عطية المدينة دون أن يلقى قتالا

أقام ابن عطية بالمدينة شهراً وأبو حمزة مقيم بمكة ، ثم توجه اليه ابن عطية ، وفرق أصحابه فرقتين : نزلت إحداهما بالأبطح ونزل هو فى الفرقة الأخرى محاذياً لأبى حمزة ، وكان أبو حمزة قد عسكر بأسفل مكة وعسكر أبرهة بن الصباح بالأبطح فى ثمانين فارساً ،

ونشب القتال بين أبرهة وأهل الشام فهزمهم وفروا هاربين إلى عقبة منى ، ثم كروا مرة أخرى وقاتلوا قتالا شديداً فقتل أبرهة ، وتفرق جيش أبي حمزة ، وتبعهم أهل الشام يقتلونهم حتى دخلوا المسجد

والتقى أبو حمزة بابن عطية بأسفل مكة ، وخرج أهل مكة مع ابن عطية ودارت معركة حامية قتل فى نهايتها أبو حمزة على فم الشعب ، وقفت معه امرأته وهى ترتجز وتقول : —

أنا الجعيداه وبنت الأعلم من سال عن اسمى فاسمى مريم
بعتُ سوارى بسيف مخذم

ودعا ابن عطية بالأسرى وكانوا أربعمائة فقال لهم : ويلكم ما دعاكم إلى الخروج مع هذا ؟ قالوا ضمن لنا الكنة ، يريدون الجنة وهى لغتهم ، فقتلهم وصلب أبا حمزة وبعث برأسه إلى مروان ، كما صلب أبرهة بن الصباح ورجلين من أصحابهم على فم الشعب ، ولم يزالوا مصلبين حتى أفضى الأمر إلى بنى العباس وحج مهلهل الهجيمى فى خلافة السفاح العباسى فأنزل أبا حمزة ليلا فدفنه

طالب الحق فى المعركة

لحقت فلول جيش أبي حمزة بعبد الله بن يحيى الكندى وكان لا يزال مقيما فى صنعاء ، فخرج قاصداً الحجاز لقتال ابن عطية فى جماعة من أصحابه ومن اليمانيين ، وبلغ ابن عطية خبره فشخص اليه والتقى به أثناء الطريق فنشب القتال بينهما وكثر القتل وتشاغل أهل الشام بالنهب ، فركب طالب الحق فرسه وحمل عليهم حملة فرقتهم وقتل منهم مائة وقائداً من قوادهم يقال له يزيد القشيرى ، ثم التقوا فى غد عند موضع كثير الشجر والكرم فطال القتال واستمر القتل ، فترجل عبد الله بن يحيى فى ألف فارس فقاتلوا حتى قتلوا جميعاً ، وانهزم الباقون فتفرقوا فى كل وجه ولحق من نجا منهم بصنعاء ، وبعث ابن عطية برأس عبد الله بن يحيى إلى مروان مع ابنه يزيد ابن عبد الملك بن عطية

الجيش الأموى فى شبام

كتب مروان إلى ابن عطية يأمره بتعقب أصحاب عبد الله بن يحيى فى اليمن وحضرموت والقضاء عليهم ، فتوجه إلى اليمن فى جيش كثيف ، فلما قرب من صنعاء خرج منها عامل عبد الله ابن يحيى فدخلها وأقام فيها أشهراً تتبع أثناءها بقية الثوار وقاتلهم حتى أخضعهم ، وخرج عليه يحيى بن عبد الله السباق فى جمع كثير فهزمه وقتل عامة أصحابه ، وخرج يحيى بن كرب الحميرى بساحل البحر وانضم إليه نحو مائة رجل من الأباضية فقاتلهم ثم هربوا إلى حضرموت وحرضوا عبد الله بن سعيد الحضرمى عامل طالب الحق فى شبام على قتال ابن عطية ، والتف حوله خلق كثير من كندة ونهد وتميم وهمدان واحتشدت الجموع فى شبام

وبلغ ابن عطية الخبر فاستخلف على صنعاء ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد وتوجه بجيشه إلى حضرموت فلقيهم بالكسر ودارت بينهم رحى الحرب هناك ، ولما كان الليل أرسل ابن عطية فرقة من جيشه إلى شبام فوصلوها عند الفجر فتسوروا السور واحتلوا الحصون وقتلوا من فيها ، وعاود عبد الله بن سعيد القتال فى النهار دون أن يشعر باحتلال شبام ولكنه أدرك المكيدة عند ما رأى جيوش ابن عطية تتسلل إلى شبام وحاول عبثاً استرداد شبام فلم يستطع

ثم بدا لابن عطية أن يرسل جيوشه إلى مدن الوادى الأخرى ولكن صده عن ذلك كتاب مروان يأمره بالمسير إلى مكة للحج بالناس ، فصالح أهل شبام على أن يرد اليهم ما عرفوا من أموالهم ويولى عليهم من يختارونه ، فأجابوه إلى ذلك وتوجه عائداً ، فلما كان بأرض مراد لقيه جماعة من الأباضية فقتلوه ومن معه

وتزيد بعض الروايات تفصيلا فتقول : لما شخص ابن عطية إلى مكة خرج اليه جمانة وسعيد ابنا الأخنس فى جماعة من قومهما ورجل من نهد وثلاثة من مراد وخمسة من كندة فقصدوا حيث توجه ابن عطية فأدركوا أصحابه وكانوا أربعين رجلا فقتلوهم جميعاً ، وأدرك سعيد وجمانة ابن عطية فضرباه وطعناه وصرعاه من فرسه وقعد سعيد على صدره ، فقال له ابن عطية : هل لك يا سعيد فى أن تكون أكرم العرب أسيراً ، فقال : يا عدو الله أترى الله كان

يمهلك أو تطمع فى الحياة وقد قتلت طالب الحق وأبا حمزة وبلجا وأبرهة ، ثم قتله وبعث برأسه إلى شبام

وبلغ الخبر ابن أخيه عبد الرحمن يزيد بن عطية وهو بصنعاء فأرسل شعيباً البارق فى جيش كثيف أغلبه أجلاف قباة همج من سكان جبال اليمن وجاءوا حضرموت من طريق الكسر ، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان ونهبوا الأموال وخربوا دور هين وقموظه والخنيق وحورة وكثيراً من دور شبام ولم يبق أحد من قتلة ابن عطية ولا ممن قدروا عليه من الأباضية إلا قتلوه . ثم عادوا إلى اليمن حاملين معهم الأموال الطائلة والحلى الثمينة

ولم يدم سلطان بنى أمية فى حضرموت بعد ذلك ، فقد طويت صفحة دولتهم بقتل مروان حيث خلفتهم دولة بنى العباس ، وكان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) وكان هذا بداية الحكم العباسى فى حضرموت

رثاء طالب الحق

وفى رثاء عبد الله بن يحيى الكندى وأبى حمزة ومن قتل معهما من الأباضية قال عمرو ابن الحصين العنبرى هذه الأبيات التى تعتبر فى طليعة الشعر العربى : ـ

هَبَّتْ قُبَيل بَلَج الفجر هندٌ تقول ودمعها يجرى
إذ أبصرت عينى وأدمعُها تنهلُّ واكفةً على النحر
أقَذًى بعينك لا يفارقها أم عائر أم مالها تذرى
أو ذكر اخوان فجعت بهم سلكوا سبيلهم على قدر
فأجبتُها بل ذكر مصرعهم لا غيره عبراتها يمرى
تا لله ما فى الدهر مثلهم حتى أكون رهينة القبر
أوفى بذمتهم إذا عقدوا واعفُّ عند العسر واليسر
متأهبون لكل صالحة ناهون من لاقوا عن النكر
صمت إذا حضروا مجالسهم من غير ما عيّ بهم يزرى

الا تجيئهمُ فانهـــــو رجف القلوب بحضرة الذكر
لا ليلهم ليـــل فتلبسهم فيه غواشى النوم بالسكر
كم من أخ لك قد فجعت به قوام ليلته إلى الفجر
ظمآن وقدة كل هاجرة تراك لذته على قـــدر
ومبرأ من كلّ سيئـة عفّ الهوى ذا مِرَّةٍ ضزر
والمصطلى بالحرب يوقدهـا بحسامه فى فتيـة زهر
فخالـوا مهجـات أنفسهم وعـداتهم بقواضب بتر
وتوقدت نيران حربهم ما بين أعـلى البيت والحجر
وتصرعت عنهم فوارسهم لم يغمضوا عيناً على وتر

* * *

والقصيدة كاملة فى بعض نسخ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى فليرجع إليها من أراد

(٤)

أحمد بن عيسى المهاجر

أسباب الهجرة ـ إلى الحجاز أولا ـ المهاجر فى حضرموت ـ المهاجر والأباضية
حضرموت فى عهد المهاجر ـ وفاة المهاجر ـ أحفاد المهاجر

أسباب الهجرة

فى سنة ٢٦٠ هـ ولد بمدينة البصرة من أعمال العراق أحمد بن عيسى بن محمد من أحفاد الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وكان أبوه عيسى وجده محمد بن على العريضى قد قدما إليها من المدينة المنورة فسكناها وتوفيا بها

نشأ أحمد بن عيسى بالبصرة فى بيت عرف بالسيادة والعلم والتدين وبها درس علوم الدين واللغة على آبائه وغيرهم من علماء البصرة وعنهم أخذ التصوف العملى وتهذيب النفس ، ولما تقدمت به السن أسندت إليه رئاسة الأسرة العريضية ، نسبة إلى جدهم الأعلى محمد بن على العريضى

وكانت العراق فى عهده تفيض بمختلف التيارات : اضطراب فى الأمن ، واختلال فى شئون الحكم ، وهدر للعدالة والحق ، وانهيار فى جميع مرافق البلاد يهدد المملكة بالزوال ، وكان ذلك فى عصر المقتدر الخليفة العباسى[1]

وقد توالت على البصرة فى ذلك العهد عدة غارات من طائفة الزنج والقرامطة وغيرهم ، الأمر الذى أثار الذعر والخوف بين عدد كبير من المواطنين وجعلهم يفكرون فى الجلاء عنها ، فقد كان صاحب الزنج على بن محمد يدعو الغلمان من الزنج الذين يسكنون فى نواحى البصرة فيعدهم بالعتق فى الدنيا وبالجنة فى الآخرة ، وادعى النبوة سنة ٢٥٥ هـ واستولى على البصرة

---

(١) من أضواء الماضى للكيالى

هو وأصحابه وأكثروا فيها الفساد ، وسبوا نساء المسلمين ولم يتمكن بنو العباس من قتله حتى سنة ٢٧٠ هـ حيث قتل وانتهى أمره

وفى سنة ٣١١ هـ استولى أبو طاهر الجنابى على البصرة فوضع السيف فى أهلها وأحرق المربد وفزع الناس إلى الماء فطرحوا أنفسهم فيه ومات بالغرق أكثرهم ، وأقام بالبصرة سبعة عشر يوماً حمل خلالها كل ما قدر عليه من الأمتعة والنساء والصبيان وولّى منصرفاً[1]

وقد مكنت هذه الغارات المتوالية كثيراً من الطامعين فى السلب واللصوصية أن يعيثوا فساداً فى المدن والقرى ، وانتشر الرعب فى النفوس حتى صدّق العامة فى ذلك العهد خرافة حيوان أطلقوا عليه اسم الزبزب ، زعموا أنهم يرونه فى الليل على سطوحهم وأنه يأكل أطفالهم وربما قطع يد الإنسان إذا كان نائماً أو ثدى المرأة فيأكله ، وكانوا يتحارسون طول الليل ولا ينامون وارتجّت بغداد لذلك حتى أخذ القائمون بالأمر حيواناً غريباً أبلق من كلاب الماء وقالوا لهم : إنه الزبزب ، فصلب ولكن ذلك لم يغن شيئاً [2]

ويروى ابن الجوزى فى حوادث سنة ٣٠٦ هـ أن بنى هاشم وثبوا على علىّ بن عيسى لتأخر أرزاقهم فمدوا إليه أيديهم ، فأمر المقتدر بالقبض عليهم وتأديبهم ونفاهم إلى البصرة وأسقط أرزاقهم ، كما ذكر فى حوادث سنة ٣١٣ هـ أن بنى هاشم ضجوا فى الطرقات لتأخر أرزاقهم عنهم . ويقول الشّلبى صاحب المشرع بصدد هجرة المهاجر أحمد بن عيسى : ان العلويين لاقوا أنواع الأذى والامتهان وشدة الهوان والامتحان

على ضوء هذه الحوادث يمكن أن تفهم الأسباب التى دفعت المهاجر إلى الهجرة من البصرة مرتحلا بعائلته وأتباعه الذين ينيفون على السبعين فى وقت تتعسر فيه الرحلات ، إذ لا بواخر ولا سيارات غير قوافل الجمال التى تذرع القفار المترامية الأطراف بخطواتها المتئدة ، مع ما تتعرض له الرحلات فى ذلك العصر من متاعب وأخطار

---

(١) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى

(٢) تجارب الامم لابن مسكويه . والمنتظم لابن الجوزى

إلى الحجاز أولا

كانت الحجاز الاتجاه الأول لهجرة السيد أحمد بن عيسى ، فقد قدم إليها سنة ٣١٧ هـ ومعه من أبنائه عبيد الله ، وحفيده بصرى بن عبيد الله ، وترك فى البصرة منهم محمداً وعلياً وحسناً ، ولكل منهم عقب بها

أقام أولا فى المدينة المنورة متخوفاً ما يشاع عن وشك قدوم القرامطة إلى مكة المقدسة ، ولذلك لم يقصدها ذلك العام لأداء الحج ، وصحت الإشاعة ، وهجم القرامطة فيه على الحرم المكى فى اليوم الثانى من ذى الحجة سنة ٣١٧ هـ فاستباحوا مكة وفعلوا الأفاعيل العظيمة ، فقد قيل إنهم قتلوا فى المسجد الحرام وفى مكة وشعابها زهاء ثلاثين ألفاً من الرجال وألوفاً من النساء ، ثم نهبوا مكة ، وانتزعوا الحجر الأسود من موضعه فى الكعبة ، ونقلوه إلى واحة القطيف على ساحل الخليج العربى ووضعوه فى مسجد الضرار هناك لكى يصرفوا الناس إليه عن مكة والحج إليها

ومضى على المهاجر فى المدينة حول كامل وهو متكدر الخاطر ضيق الصدر من تلك الحوادث يفكر فى اختيار البقعة التى يكون هو وذريته فيها بمنجاة من طغيان الفتن وانفجار براكينها ، وفى سنة ٣١٨ هـ قصد هو وعائلته وأتباعه مكة المكرمة حتى إذا حجوا وأتموا مناسكهم رحل بهم نحو اليمن مع إحدى القوافل ، وأخذ يتنقل فى مدنه وقراه وأوديته حتى وصل إلى حضرموت فوجدها على وفق مرامه من حيث الهدوء والبعد عن الأطماع وقوة التمسك بالدين ، فارتاحت نفسه بالاقامة وآثر البقاء فيها

المهاجر فى حضرموت

قدم المهاجر أولا إلى قرية الجبيل بوادى دوعن ، وكان أهل هذه القرية من الشيعة الذين يخالفون مذهب الأباضية وعقيدتهم ، ذلك المذهب الذى تعتنقه الأغلبية فى حضرموت ، ويقال بأن سكان الجبيل هم الذين اتصلوا بالمهاجر عندما كان بالمدينة المنورة وحسنوا له الهجرة

إلى حضرموت ودعوه إلى الإقامة بينهم[1]

وهذه الرواية تؤيد رأى القائلين بأن قدوم المهاجر إلى حضرموت لم يتم صدفة وبدون سابق تفكير ، وإنما كان بعد دراسة تامة واطلاع على أحوالها ونتيجة اتصالات مباشرة أو غير مباشرة تمت بينه وبين جماعة من الحضارم الذين لايرون رأى الأباضية ، والأباضية هؤلاء فرقة من الخوارج لهم مذهبهم الخاص الذى يخالف فى كثير من تفاصيله مذهب أهل السنة والشيعة ، وقد ظهر هذا المذهب فى حضرموت على عهد عبد الله بن يحيى الكندى الذى سبق الحديث عنه واستمر إلى أواخر القرن السابع الهجرى

وقد وجدت بجانب المذهب الأباضيّ الغالب فى حضرموت عند قدوم المهاجر مذاهب أخرى لأهل السنة والشيعة وغيرهم ، فقد ذكر بعض المؤرخين[2] أن سكان قرية الجبيل الذين أقام بينهم المهاجر كانوا من الشيعة ، ونقل غيره[3] أن السيد المهاجر كان أول قدومه حضرموت إلى قرى أهل السنة بها من كندة والصّدف ، ويذكر الشيخ محمد بن عوض بافضل فى كتابه « صلة الاهل » أن الفقيه أبا يحيى سالم بن فضل كان أحد الذين حاربوا بدعة الاباضية والمعتزله المنتشرة آنذاك فى حضرموت

لم تطل إقامة المهاجر فى قرية الجبيل بوادى دوعن ، فقد غادرها بعد مدة يسيرة إلى الهجرين ، وكانت الهجرين هذه تتوسط قرى الصّدف من كندة ، فان قراهم تمتد من أواسط دوعن إلى عندل ولحروم وما يلى سدبة ، فأقام بها سنوات اشترى له بها عقاراً ونخيلا ، ثم بدا له أن يرحل من الهجرين فتركها متجهاً إلى قارة بنى جشير بعد ما وهب أملاكه فى الهجرين لمولاه شويه ، وقارة بنى جشير هى من قرى كندة من بنى الاعلم وبنى حارثة وهى قريبة من قرية بور فسكان يقيم بها بين أهله وربما دخل تريم لبعض الشئون وعاد اليها ، وقد بقيت قارة

---

(١) تعليقات عبد الله بن محمد السقاف على رحلة با كثير

(٢) تعليقاف السقاف على رحلة با كثير

(٣) عقود الألماس : لعلوى بن طاهر الحداد

بنى جشير معمورة إلى سنة ٦٠٤ هـ حيث خرّبتها قبيلة خيثمة التى انتقلت إلى حضرموت من أعراض جبل السراة ، على أنه لم تطب له الاقامة أيضاً فى هذا الموضع فانتقل منه إلى الحسيّسة بالقرب من تريم أيضاً حيث استوطنها واشترى بها أطياناً واسعة تسمى صوحا وهى الارض التى بين الحسيسة وبور

وهكذا اضطر المهاجر لان يغير مواضع إقامته من الجبيل إلى الهجرين فالى قارة بنى جشير فالى الحسيسة . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن لخلافه مع الاباضية دخلا كبيراً فى هذه التنقلات

المهاجر والأباضية

الذين تعرضوا لتاريخ المهاجر من مؤرخى حضرموت يكادون يجمعون على أن السيد المهاجر حارب الاباضية باللسان لا بالسنان ، وقارعهم بالحجة والبرهان ، ثم استمرت الحرب مستعرة بعد وفاته بين الاباضية من جهة وبين أبنائه وأحفادهم وأنصارهم من علماء الحضارم من جهة أخرى حتى تلاشى هذا المذهب من حضرموت واضمحل فى القرن السابع الهجرى

على أن بعض مصادر التاريخ [1] تقول بأن الاباضيين تألبوا على المهاجر لزحزحته عن الاقامة بحضرموت ، وأن أهل السنة والشيعة بحضرموت واليمن اجتمعت كلمتهم على نصرته ، وأن وقائع حربية نشبت بين الفريقين كان الاباضيون يتلقون الامدادات فيها من اباضية عمان وغيرها ، وأن المهاجر كان يتلقى العتاد والنقود وتأتيه الامدادات تحملها القوافل براً والسفن بحراً من البصرة يرسلها إليه ابنه محمد الذى تركه هناك وكيلا على أملاكه ونخيله وتجارته الواسعة ، كما يقال بأن معركة فاصلة وقعت فى موضع يقال له « بحران » عند ما كان المهاجر مقيما فى الهجرين انكسرت فيها شوكة الاباضية وانتقل المهاجر على إثرها من الهجرين إلى قارة بنى جشير كما سبق

وواضح من هذا أن المهاجر كان يجاهر بمذهبه وعقيدته ويدعو إليها الأمر الذى أثار

---

(١) تعليقات السقاف على رحلة بأكثير

الأباضية وجعلهم يفكرون فى الحيلولة بينه وبين انتشار مذهبه وعقيدته بكل وسيلة ، والواقع أن تاريخ هذا العهد غامض كل الغموض فلا يستطيع الباحث الحريص على الحقيقة أن يتعرف إليها بين تلك المعلومات القليلة جداً والتى حفظت لنا من تاريخ ذلك العهد صورة غير واضحة المعالم

وحكاية معركة بحران يرويها السيد عبد الرحمن بن عبيد الله فى كتابه البضائع نقلا عن مذكرات السيد أحمد بن حسن العطاس ، ولكنه يبدى تشككه فيها فى موضع آخر من الكتاب من عدة وجوه . وينقل عن شيخه عيدروس بن عمر عن عبد الله بن عمر بن يحيى أن العلويين كانوا متسترين بحمل السلاح على نهج الصحابة علماً وعملا ، ولم يتظاهروا بسلوك مذهب الصوفية إلا من أيام الفقيه المقدم

حضرموت فى عهد المهاجر

خضعت حضرموت منذ أكرمها الله بالاسلام لحكم المدينة فى عهد النبى عليه السلام ثم أثناء حكم الخلفاء الراشدين . ولما آلت الخلافة إلى معاوية بعد قتل الإمام على وصلح الحسن خضعت حضرموت لسلطان بنى أمية ثم لحكم بنى العباس سنة ١٣٢ هـ . وفى أيام المأمون العباسى دانت بلاد اليمن وحضرموت لمحمد بن إبراهيم الزيادى الذى ولاه المأمون على اليمن سنة ثلاث ومائتين من الهجرة حين اختل الأمن فى البلاد اليمنية وخيف رسوخ التشيع فيها ، وقد دخلت فى طاعته أعمال حضرموت والشحر وديار كندة وصار فى مرتبة التبابعة وأصبح الزيادى هذا كملك مستقل وان كان يخطب لبنى العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا ، وقد تكونت فى اليمن مملكة من أبنائه تعرف بدولة آل زياد دامت إلى سنة ٤٠٩ هـ إلا أنه فى أواسط القرن الثالث تقلص نفوذ آل زياد من صنعاء وما حواليها وانحصر فى تهامة ، وقامت فى صنعاء دولة اليعافرة من سنة ٢٤٧ إلى سنة ٣٨٧ هـ ، ويتحدث التاريخ بأن حكام صنعاء من اليعافرة هؤلاء أخضعوا حضرموت لحكمهم ، وأنهم قمعوا ثورة قام بها الحضارم للاستقلال بالأمر وأقاموا الهزيلى الحضرمى حاكم شبام نائباً عنهم

وعلى هذا يكون قدوم المهاجر إلى حضرموت أثناء حكم اليعافرة لصنعاء وما حواليها، والذين أثبت التاريخ أن حكمهم امتد إلى حضرموت، مع العلم بأن الأباضية فى حضرموت لم تخضع لحكام صنعاء إلا تحت ضغط القوة، وأنها كانت تتحين كل فرصة لإعلان الثورة والاستقلال بالأمر فى حضرموت، فثارت على معن بن زائدة والى المنصور العباسى فى صنعاء وكان معن قد أرسل أخاه عاملا من قبله على حضرموت فأقام فى تريم. وكان فاسقاً ظالماً سفاكا، فقتله أهل تريم وخلعت حضرموت كلها طاعة معن، فغزاهم وأثخن فى القتل حتى بلغ عدد القتلى خمسة عشر ألفاً، وسد العيون بالرصاص وألجم الناس على لبس السواد، كما ثارت على حكام صنعاء من آل زياد وآل يعفر وقد سبق الحديث عن ثورتهم فى عهد آخر خليفة أموى تحت قيادة عبد الله بن يحيى الكندى

والمهاجر الذى شهد فتنة القرامطة فى البصرة والحجاز شهد هجومهم على حضرموت فى بداية القرن الرابع واستيلاءهم عليها، فقد ذكر السيد علوى بن طاهر الحداد فى كتابه جنى الشماريخ نقلا عن البشارى فى أحسن التقاسيم أنه كان على حضرموت وال من القرامطة فى عهده، والبشارى هذا فرغ من تأليف كتابه المشار إليه سنة ٣٧٥ هـ، وللقرامطة ذكر فى التاريخ الحضرمى فى بداية القرن الخامس الهجرى أثناء حكم أبى إسحق الهمدانى الذى سيأتى الحديث عنه، فإما هجموا على حضرموت مرة أخرى، وإما أنه قد تقرمط فريق من أهل حضرموت وبقى لهم نفوذ ولو محدود إلى عهد أبى إسحق

وفاة المهاجر

أقام المهاجر فى حضرموت أكثر من ستة وعشرين عاماً قضاها متنقلا من الجبيل إلى الهجرين فالى قارة بنى جُشَير، ثم ألقى عصا التسيار وحط رحاله فى الحسّيسة حيث أقام بها بقية حياته إلى أن وافاه أجله بها سنة ثلثمائة وخمس وأربعين هجرية وقبره معروف فى رأس هضبة واقعة فى نحو ثلث الجبل المطل على الحسيسة الواقعة فى سفحه، وعلى ضريحه قبة يصعد إليها الزائرون فى درجات معبدة متسعة تبلغ نحو المائه والعشرين، وقد بقيت الحسيسه قرية

عامرة بالسكان إلى أن خربها عقيل بن عيسى الصبرات سنة ٨٣٩ هـ

بعد وفاة السيد أحمد بن عيسى المهاجر ارتحل ابنه عبيد الله من الحسيسة إلى « سمل » ووهب أرض صوح لمولاه جعفر مخدم واستوطن قرية سمل واشترى بها أموالا وتزوج بنت أحد أعيانها واستمر بها إلى أن توفى سنة ٣٨٣ هـ . ثم غادرها ولده وأهله إلى قرية بيت جبير الواقعة بالقرب من تريم حيث نزلوا هناك فى حارة خاصة بهم أسموها العلوية ، وكانوا يترددون على تريم ويكثرون من زيارتها معجبين برياضها وبساتينها وعذوبة مائها وجودة هوائها ، كما استهواهم توفر رجال العلم والأدب بهذه المدينة التاريخية . وفى سنة ٥٢١ هـ انتقل أحفاد المهاجر إلى تريم واستوطنوها ، وكان أول من سكنها منهم على بن علوى المعروف بخالع قسم بن محمد ابن علوى بن عبيد الله بن المهاجر

ويعرف أحفاد المهاجر فى حضرموت بأنهم علويون نسبة إلى جدهم الأعلى علوى بن عبيد الله بن أحمد بن عيسى ، تمييزاً لهم عن أبناء عمهم بصرى بن عبيد الله بن أحمد بن عيسى ، وعن أبناء عمهم أيضاً جديد بن عبيد الله ، وكانت هذه الكلمة (علوى) تطلق قبل ذلك على الطائفة التى تتعصب للإمام على بن أبى طالب كما يقال للطائفة التى تتعصب لبنى أمية وعثمان سفيانية ومروانية وعثمانية

وقد كانت قصور قرية « بيت جبير » عالية وغرفها سامية ، ثم هدّمت ديارها حجراً حجراً وتركت خبراً لا أثراً كما يقول صاحب المشرع ، ويعقب السيد علوى بن طاهر فى كتابه « جنى الشماريخ » بقوله : ولم نقف إلى الآن على مخربيها الأشرار ولعلهم من فرقة الأباضية فانهم كانوا إلى ذلك العهد وما بعده قد يهاجمون تريم وكانت لهم ولاية ونشاط بالشحر ودوعن وربما كان المخربون من خيثمة

وإذا لم يكن للمهاجر كبير أثر فى الحياة الثقافية بحضرموت حال حياته فانه وضع بذرة مقاومة المذهب الأباضى ومحاربته وساعد على انتشار مذهب الشافعى وعقيدة أهل السنة وبعض تعاليم الشيعة ، وطبيعى أن يلتف حوله أنصار وأتباع يتحدث إليهم أحاديث مختلفة ربما كان

أكثرها يدور حول العقيدة والتمسك بآداب الإسلام وأن يتردد اسمه فى المحافل والأندية وأن يتساءل الناس عن هذا المهاجر وأسباب هجرته وأهدافها .

وإذا كان السيد المهاجر قد انتشر به مذهب الإمام الشافعى بحضرموت فليس معناه أنه لم يكن به شافعى قبله فان الانتشار غير مجرد الوجود [1] . وقد ذكر الحافظ السخاوى فى كتابه التوبيخ بمن ذمّ التاريخ فى سياق حديثه عن اليمن ما نصه : ـ

« ولما ظهر مذهب الشافعى واشتهر به رجعوا إلى تقليده ، وكان ذلك فى المائة الثالثة كما ذكره الجندى . ثم كثر ذلك لا سيما فى الدولة الأيوبية وما بعدها حتى الآن ، ويوجد فى عدنه الحنفية وكثير من الزيديه وهم بصنعاء . ومن العثمانية وهم بحضرموت . ومن الاسماعيلية وهم بالجبال وغيرهم من الطوائف اه . وكلام السخاوى صريح فى أنه يقصد باليمن ما يشمل حضرموت

أحفاد المهاجر

وإذا كان للمهاجر من أثر بارز فى حضرموت فانه يتجلى بوضوح فى أحفاده الذين استطاعوا أن يكوّنوا لهم كياناً خاصاً أثروا به فى مجرى الحياة الثقافية والاجتماعية ، فقد تأثرت الثقافة فى حضرموت بتعاليمهم وطُبعت الحياة الاجتماعية بطابع خاص يتناسب مع تلك التعاليم وخصوصاً فى بعض المدن . وكان لهم فى تاريخ حضرموت السياسى أثر غير مجهول ولا مجحود

وقد عرف بعض أحفاد المهاجر بالذكاء وقوة الشخصية والتجرد للعلم والانقطاع للعبادة الأمر الذى جعلهم يحتلون الصدارة فى كثير من المواقف ويسيطرون أدبياً وروحياً على قسم كبير من الحضارم . وقد انتشر أحفاد المهاجر فى حضرموت انتشاراً عظيما حتى لا تكاد تخلو منهم بلدة أو قرية . والتاريخ الحضرمى يذكر لهم مؤلفات عديدة حفظت الشىء الكثير من تاريخهم وآثارهم العلمية والأدبية ، كما حوت تراجم كثيرة لعلمائهم وأدبائهم وصلحائهم

---

(١) جنى الشماريخ للسيد علوى بن طاهر الحداد

واذا استثنينا الأباضية ومواقفهم من العلويين فان أكثر أهل العلم بحضرموت من سائر القرون لهم اتصال تام بالسادة العلويين فهم ما بين مريد واستاذ ، وقد نقل الطيب بامخرمة فى كتابه قلادة النحر نقلا عن الخطيب قال : لما قدم أحمد بن عيسى ومن معه الى حضرموت وادعوا النسبة الشريفة اعترف لهم أهل حضرموت بالفضل وما أنكروه ثم انهم رأوا اقامة البيّنة توكيدا لما ادعوه ، وكان بتريم إذ ذاك ثلثمائة مفتى ، فسار الامام المحدث على بن أحمد بن أبى جديد الى البصرة وأثبت نسبهم عند قاضيها وأشهد على اثبات القاضى ممن يريد السفر للحج نحو مائة شاهد . ورقب بمكة حجاج حضرموت فلما قدموها وشهدوا بذلك اعترف الناس لهم بالنسبة الشريفة وأقروا لهم بالفضل والحرمة وأجمع على ذلك العلماء والصالحون

قال : « وممن صحّح علوّ شرفهم وصحة نسبهم الامام محمد بن أحمد ابن أبى الحب والامام أبو العباس أحمد بن محمد بن سالم المروانى التريمى والامام العلامة المحدث قطب الدين عمر بن على والامام عبد الله بن أسعد اليافعى والامام محمد بن أبى بكر عباد والشيخ فضل بن عبد الله بافضل والقاضى المحقق عبد الرحمن بن على بن أبى حسان والفقيه العلامة مسعود بن سعد باشكيل »

ونقل الشيخ محمد بن عبد الله باسودان : ان بعض أئمة ذلك الزمان كلف العلويين اثبات نسبهم بالطريقة القضائية ، وكان الحامل له على تكليفهم بعض من عنده نزعة اباضية

ويرى السيد عبد الرحمن بن عبيد الله فى كتابيه ـ البضائع ونسيم حاجر ـ أن تأخر استيطان العلويين بمدائن حضرموت إنما كان بسبب اختلاف المذاهب ، وأنه ما زالت المجاذبة بين العلويين وعلماء المدن الحضرمية الكبرى حتى كانت الغاية الاتفاق على منتصف الطريق ، فان الذين تدثروا ثريما من العلويين وافقوا المشايخ فى الأخذ بمذهب الشافعى وبعض الآراء الأشعرية وأكثر المشايخ بتريم وافقوا العلويين على القول بالقطبانية ، وهو المذهب الامامى بنفسه فان لم يكنه فانه أخوه ، فكل من الفريقين أخذ وأعطى إما بقصد وإما بطبيعة الاختلاط والاحتكاك فلا غالب ولا مغلوب .

(٥)

أبو اسحاق الهمدانى

نسبه ، نشأته ـ أعماله الاجتماعية والحربية ـ حروبه مع الصليحى ـ تاريخه من شعره صلته بأئمة عمان ـ أصحاب النفوذ فى عهده ـ حياته الخاصة ـ ما قل ودل

نسبه ، نشأته

« الإمام العلامة الورع الباسل الشارى أبو اسحٰق إبراهيم بن قيس بن سليمان الهمدانى الحضرمى الأباضى ، كان والده ممن عليه المعول فى حضرموت ونواحيها ، مسموع الكلمة مطاع الأمر والنهى ، عالما ورعا زاهدا متقشفا مع الغنى الواسع ، لا يستميله زخرف الدنيا وزهرتها ، قاهر النفس موطنا لها على العبادة مع القيام بواجب الاصلاح ، ذا هيبة فى قومه وبسالة فى مواطن الدفاع والذود عن الدين[1] »

وقد عنى قيس بتربية ولده ابراهيم أحسن تربية ، وعلمه كل ما يمكن الحصول عليه من علوم ذلك العصر وآدابه ، وأمره بالدرس والتحصيل على كبار علماء عصره ، حتى نبغ وتفوق وصار أعلى من أبيه شأنا وأعظم جاها ، وأوسع اطلاعا ، واثبت جأشا ، وأشد إقداما . وشب ابراهيم سالكا سيرة والده فى الورع والزهد وحسن السيرة والاستقامة والرغبة فى الاصلاح الدينى والاجتماعى ، وكان نبوغه المبكر وحسن استعداده ووفرة ذكائه ورجاحة عقله من بين الأسباب والعوامل التى هيأته للمهام التى اضطلع بها فيما بعد

ولا يعرف بالضبط السنة التى ولد فيها ، غير أنه فى حكم المؤكد أنه عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، فقد ذكر البارونى « ان مبدأ ظهور أمره كان فى حياة والده بصدر الخمسين الثانية من المائة الخامسة ، أى مبدأ استقلاله بالأمر ، وإلا فقد كان عاملا للخليل والامام راشد قبل ذلك »

---

(١) الشيخ سليمان البارونى فى تقديمه لديوان صاحب الترجمة

اعماله الاجتماعية والحربية

لما كبر والده وأدركته الشيخوخة تصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومقاومة المنكرات ومحاربتها حيث لا زاجر ولا رادع ، فقام من ذلك بكل ما يملك من وسيلة وبما لديه من جهد ، ولم يكد يمضى فى غايته غير بعيد حتى عاد القرامطة يخربون ويدمرون : يقطعون النخيل ويسلبون الأموال ويعيثون فى البلاد فسادا فوجه عنايته — كما يقول البارونى — الى طلب المعونة من أئمة عُمان الموافقين له فى المذهب والعقيدة ، فوالى لهم الرسائل والرسل ، ثم اقتحم المفاوز وسار بنفسه اليهم فلم يجد لديهم عونا ، فعاد إلى حضرموت منكسر الخاطر يقوده زمام الأسف وتدفعه عوامل الحماسة والغضب ، ثم لما نصب الخليل بن شاذان إماما بعمان وكان شهما جليلا ذا صولة متصفا بالصلاح مشهورا بالعدل كاتبه بعض إخوانه هناك وطلب حضوره الى عُمان فاسرع الاجابة وحضر فلقى من الامام وغيره من الاكرام والاحترام ما دعاه إلى إعادة طلبه القديم ، فلم يكن من الامام إلا أن لبّى دعوته ومكّنه من المال والرجال ، فسار الى حضرموت واحتلها باسم الامام فى أربعة عشر يوما ، رغما عما كانت عليه من المنعة فى ذلك العهد[1] »

وكان أبو اسحٰق قد قدم الى الخليل بن شاذان قصيدة يصف له الحالة فى حضرموت ، منها : —

يا خير خلّ خربت أوطاننا ... واستعبد السفهاء كل نبيل
يا خير خل لم نطق دفع الأذى ... عن أخذ مكنون وجذّ نخيل
يا خير خل أصبحت أسواقُنا ... أسواق سحت واعتداء محول
يا خير خل قد غلبنا فانتصِرْ ... وانظر لنا بالرأى عزم أصيل

ومن قصيدة أخرى يقول : —

---

(١) مقدمة الشيخ سليمان البارونى

فجدت له بالعذر بسطا وجادَ لى ... بما فيه نصر لاعدته المكارم
فها أنذا بالمال والبيض والقنا ... على حضرموت بالسلامة قادم
سلا تخبرا عنى اذا صرت نحوها ... وناديت فى الإخوان أين اللهاميم

وقد استطاع أبو اسحق بهذه المعونة الحربية أن يفرق أعداءه حتى لم تَبق منهم سوى طوائف التجأت الى القرى الواقعة بأطراف البلاد ، وفى هذا يقول من قصيدة أرسلها إلى الخليل إمام عمان يخبره فيها بما تم له من نصر : —

سل الوفد عنى يا إمام ألم أكن ... تسربلت يوم الروع ثوب العزائم
وهل كان همى غير ما كنت ذاكرا ... وهل نمت عن طرف الجواد وصارمى
حرام حرام ان طعمت بمنزل ... الى اليوم طعم النوم بين الكرائم
ولكننى لما نزلت بعقوتى ... نشرت لوائى فى الكرام القماقم
وساروا بحمد الله حولى كأنهم ... بدور ولكن فى الوغى كالضراغم
فما كان إلا جمعة بعد جمعة ... وأدّت الىّ العشر أهل الحضارم
سل الخطبا لمّا دعوا لك جهرة ... على رغم أهل الجور بعد التصادم
وسل عرب البيداء هلا اذقتهم ... عشية خانوا العهد مم الاراقم
وأما نواحى حضرموت فانها ... بحول الهى طوع أمرى كخاتمى
سوى نفر كانوا عصاة فأصبحوا ... من الخوف فى روس القرى كالحمائم
ولم يبق لى الا الصليحى قائما ... وها هو أيضا سعده غير قائم
وقد نزعت عنه القبائل قصدنا ... لما نظرت من رغمها فى الملاحم
ونحن اليه واردون بجيشنا ... فما هو ادهى من ملوك الديالم

وهو فى هذه القصيدة لا يذكر القرامطة بهذا الاسم ولكنه يشير الى مخالفيه من عرب البيداء والنفر العصاة من نواحى حضرموت ، وربما كان هؤلاء قد تسربت اليهم دعوة القرامطة فهو يحاربهم كناصرين لهذه الفتنة وداعين لها

حروبه مع الصليحى

الصليحى هو أبو الحسن على بن محمد الصليحى الحاشدى الهمدانى ، كان فقيها فى مذهب الامامية متضلعا فى العلوم وله نظر فى علم التأويل . أعلن ثورته سنة ٤٢٩ هـ فى رأس مشار أعلى ذروة فى جبال اليمن ، وكان يدعو للمستنصر الخليفة العبيدى فى مصر ، وفى سنة ٤٥٣ هـ كتب الى المستنصر يستأذنه فى إظهار الدعوة فاذن له ، فطاف أرجاء اليمن يفتح الحصون والتهائم ولم تخرج سنة ٤٥٥ هـ حتى كان ملكه قد عم اليمن باسرها ، وفى هذا العام استقر أمره فى صنعاء وكان قتله على يد الاحول بن نجاح سنة ٤٧٣ هـ .

وفى شعر أبى اسحق ما يدل على أنه وقف يحول دون تنفيذ مطامع الصليحى فى حضرموت ، وفى ذلك يقول مشيرا الى الخليفة المستنصر العبيدى بمصر وهو ما يسميه بالمعز :

يخوفنى ان المعزّ ملاذه ... بمصر وما خوفى لأهل المظالم
اذا وفده ولّى الى مصر رائدا ... مضى وفدنا قصدا لخير المعالم
ليعلم أى الحزب أسبق نصرة ... وأيهما أولى بفعل المكارم

وفى أثناء حروبه مع الصليحى عاد أبو اسحق يستنجد مرة أخرى بامام عُمان حيث يقول من قصيدة وجهها الى الخليل بن شاذان : ـ

وانصر أخاك فان الحرب قائمة ... والحق يطلب من أهليه أركانا
واعلم بأنك قد أثرت مأثرة ... فارفع لها شرفا فالأمر قد هانا
ان الذى عمرت صنعاء دولته ... بالفسق أصبح من مولاى فزعانا
أضحت مخالفة أرض اليمان له ... لما رأتك لها حصنا .ومعوانا
فاحفدهم فهم يدعون ربهم ... جهرا لتملكهم سرا ولعلانا
لكن لديك ضعيف كاشح وهن ... أبدى لكم ولنا فى الناس أضغانا
والشعر لو نظرت خلقا تحاربه ... أضحت عليه رجال الشعر أعوانا
اجعله أول ما يحيى البلاد به ... إنا نؤمل جيشا منك يغشانا

وهنا ملاحظة لها أهميتها، فان المعروف فى التاريخ أن الخليل بن شاذان امام عمان الذى استنجد به أبو اسحق على الصليحى توفى سنة ٤٢٥ هـ وان حركة الصليحى انما بدأت فى اليمن سنة ٤٢٩ هـ يعنى أنه يجب ان يكون الخليل على قيد الحياة الى ما بعد هذا التاريخ ليصح استنجاد الهمدانى به على الصليحى

وقد رجعت الى كتاب تحفة الاعيان فى سيرة أهل عمان لأبى محمد السالمى فوجدت المؤلف لا يقطع بان وفاة الخليل كانت سنة ٤٢٥ هـ بالضبط وانما كان يحكى ذلك على سبيل الترجيح فقط ولذلك يبقى هناك أمل فى حل هذا الاشكال بان يقال مثلا بان ترجيح صاحب تحفة الاعيان يحتاج إلى إعادة نظر وأن من المحتمل أن يكون الخليل قد عاش الى ما بعد ذلك التاريخ لينتفى التعارض الذى أشرنا إليه

تاريخه من شعره

لأبى اسحق ديوان شعر مطبوع مرتبة قصائده على حروف المعجم، وله مقدمة بقلم العلامة الكبير الشيخ سليمان الباروني، وهذا الديوان هو المرجع الصحيح لتاريخ الرجل، ففيه يتحدث عن مبدأ أمره ومنتهاه وعما جرى له بين ذلك من أسفار وحروب وضعف وقوة وما يتصل بذلك كله من وصف للبلاد والناس والحوادث وغير ذلك

فهو فى هذه الأبيات يتحدث عن نسبه ووطنه ومذهبه وبعض صفاته :-

فان تسألا عنى وعن أهل مذهبى ... ومن أين دارى أنت يا أم حازم
فانى من همدان أصلى وقدوتى ... فمرداس والأوطان أرض الحضارم
أنا الرجل الداعى الى الحق والذى ... أبت نفسه شتم الطغاة الاشائم
أنا الرجل الشارى الذى باع نفسه ... وأصبح يرجو الموت عند التصادم

وهو هنا يذكر بعض أسماء طائفته من كبار الأباضية الشراة أى الذين شروا أنفسهم لله كما يقولون :-

أنى من القوم القيام القوّم الباهرين بالمقـــال المفحم
كابنى بديل وابن حصن المعلم والراسبىّ الشارىء المتمّم
وابن حـويل السيد المقـدم وطالب الحق ابن يحيى الحضرمى
وابن حميـد ذى الأناة الضيغم إنـا لاهلُ الحق والتقـدم

ويقول من قصيدة أخرى :ـ

خُلِقتُ على خلق الرجال فلا أرى سوى الجدّ فيما جدّ فيه الاكايس
قريبٌ ورخّاف وسهم بن غالب أثمتنا والأربعون الفوارس

ويتحدث الرجل عن آماله وأمانيه فى ثقة بنفسه واعتداد بمواهبه بثيران الإعجاب :ـ

فعزائمى صعدت الى طلب العلى ورمت بكل خدلّج ورداح
علق الفؤاد بان أكون أنا الذى يحيى الهدى بقواضب ورماح
علق الفؤاد بان أكون أنا الذى لحق الثرا ورمى غداة طماح
علق الفؤاد بان أحاسب فى غد ومن الدماء تدفق بجراح
فعلى السيوف يموت كل مكرم وعلى السيوف قياد كل فلاح
وعلى السيوف ينال من طلب العلا غرف الجنان وقصدهن كفاحى

ويتحسر على فقد العلماء — من طائفته — ويبكى لانصراف الناس عن التمسك بأهداب الدين فيتخذ أسلوب الحوار للتعبير عن هذا المعنى فى نفسه :ـ

فقلتُ وما يبكيك يا خود لا بكت لك العين ما هبت رياح زعازع
فقالت بكيت الدين اذ رث حبله وللعلما لما خوتها البلاقع
فاين الألى ان خوطبوا عن دقائق من العلم انبوا سائليهم وسارعوا
فقلت لها هم فى شبام ومنهم بميفعة قوم حوتهم مبـاقع
وفى هينن منهم أناس ومنهم بذى أصبح حيث الرضى والصمادع
ومنهم بوادى حضرموت جماعة وأرض عمان سيلُهم ثَمّ دافعُ

ونجد فى ديوانه اشارات مجملة الى حوادث ذات أهمية فى حياته وفى تاريخ البلاد ، ولكنا لا نجد مصدرا آخر لتفصيل هذه الحوادث وتوضيحها ، فمن ذلك قوله :ـ

انى دعوت الى الرحمن فى زمن ... فيه الهدى دارس مستطمس الأثر
فاشتد ساعده اذ قمت وارتفعت ... راياته وأضا فى البدو والحضر
ثم اتكت محن الدنيا علىّ ولم ... تقدم لدىّ جنود الصبر والظفر
قام العصاة بثار الجور واحتفلوا ... بالله لا نُصِروا حقّا مدى العُمُر
فاسترهبت لهم الاخيار وارتعدت ... بعد استنارتها زند الهوى ووري
لكن أراد تعالى الله يخبرنا ... كالرسل والخلفا فى سائر العصر

ويذكر صنيع بنى سهل عنده حين أضافوا جماعته وآووه يوم خرب موطنه ، ويستثير عزائمهم لنصرته فيقول :ـ

فيا لبنى سهل اضفتم جماعتى ... وآويتمونى يوم خُرّب موطنى
وصرت مليكا فيكمو متمكنا ... كنينا حصينا مكرما غير هين
سوى انى يا قوم لم اقض حاجة ... لديكم ولا عاينت أمراً يسرّنى
فان تنصرونى فالرجية منكم ... وان تعجزوا قابلت أرضا تعزّنى

ويقول فى نفس المعنى من قصيدة أخرى :ـ

فاما بنو سهل الكرام فانها ... اجابت ندا الأعدا غداة انحدارها
وفرت عداة الحق سفّاه كنده ... وحمير لما أيقنت باقتهارها
فنالت به ذلا فان هى أنكرت ... فقد بان إذ عادت بوجه انكسارها
على أنها ترضى الرفيق بمنعها ... وتلقى المنايا السود من دون جارها
وها نحن فى حاليها ان رأى لنا ... وللدين حقا أو لحفظ ذمارها
هى اتلفتنا والحريم معا الى ... منازلها قصدا ورحب ديارها

وما فعلت هذاك إلا لعزّها ومنعتها أيضا وحسن اعتبارها
ولست أراها تحرب الدهر جارها وتشمت أعداها بخلع عذارها
فان خذلتنا وهى فى حال عزها وضعف أعاديها وحال انتشارها
فلا ذلّ إلا ذلّ من حلّ نحوها ولا عار إلا مقصر دون عارها

ويذكر صاحب البضائع أن بنى سهل من تجيب ، وأن مساكنهم بالكسر ، وأن من أكبر قراهم هين ، وكان صاحب الترجمة التجأ إليهم بنسائه فأكرموا مثواه .

وهكذا فان ديوان أبى إسحق سجل حافل بتاريخ حياته ، ولا ينقصه سوى الشرح والإيضاح لبعض الحوادث حيث يضيق الشعر عادة بهذه المهمة ويتكفل بها النثر وحده ، ومع ذلك فسنحاول أن نمضى فى عرض تاريخ الرجل قدر الإمكان مستندين الى شعره الذى ليس فى أيدينا من تاريخه غيره .

صلته بأئمة عمان

شعره فى الديوان صريح فى تعدد وفادته على عمان مستنصرا بأئمتها على مخالفيه ومنافسيه فى حضرموت ، كما هو صريح أيضاً فى حصوله على معونة مالية حينا وحربية حينا آخر ، وكان الخليل بن شاذان مصدر أهم هذه المساعدات ، وقد أشاد بفضله فى كثير من قصائد الديوان ، فمن ذلك قوله : ـ

هذا الخليل امام المسلمين حكت أنوار سيرته فى العدل نيرانا
يا أيها العلم العدل الذى كملت له الخصال مروآتٍ وإيمانا
إنى أحبك والرحمٰن يعلمه حب احتساب إلى ذى الطول قربانا
اذ صرت مشتهرا بالفضل أنت ولى قلب يحب بدين الله من دانا
متى عبرت اليك البحر منتصرا أيام عدت بما أوليت جذلانا

وهو حين يطلب هذه المعونة لا ينسى أن يذكر بأنه إنما يطلبها لنصرة الدين ومحاربة

أهل الضلال ، وأنه لولا ما يشعر به من وجوب النهوض لحماية الدين لما بذل ماء وجهه فى استنجاد أحد .

لقد جاءنى من بعد أرضى وأوطانى ... رجاء لنصر الدين من نحو اخوانى
وذكر امام شاع فى الناس ذكره ... وطاب الثنا فيه الخليل بن شاذان
فقطعت غيطانا وجاوزت أبحرا ... اليهم أجرّ المجد من آل قحطان
وكم بلد خلّفت فيها مشايخا ... غطارفة غرا يرجّون اتيانى
وما إن أرانى فى الذى رمت عائدا ... ولا ساميا الا إلى مطلب عانى
وكم كانت الاشياخ أشياخنا الألى ... إذا طلبوا نصراً أمدوا باعوان
وبالله لولا الدين أصبح مدحرا ... لما كان بذل الوجه فى الناس من شانى
ولكن بذلت الوجه فى الناس أرتجى ... من الاخوة الغرّ النُّهى بسط سلطانى

ويصرح أبو اسحق بأنه لم يذهب لطلب النصرة من عمان إلا بعد أن فقد كل أمل فى مساعدة مواطنيه من الحضارم :

أبا القاسم اسمع لاعدمتك قصتى ... لتعجب من أمرى وأنت رشيدُ
طلبت بوادى حضرموت فلم أجد ... بها أحدا ينكى العدا ويكيد
فسرت عُمانا قلت على أجد بها ... شراة تسامى والمكان بعيد
فجادوا ببذل المال دون نفوسهم ... وعدت حميدا والامام حميد
فلما رأى أهل الضلال شرارتى ... تزيد حياة والضلال يبيد
بدا لهمو أن ينكثوا فتسللُوا ... لواذا وغال المسلمين خمود

وهكذا كانت النجدة العمانية هذه المرة مساعدة مالية فقط . ولكنه فى قصائد أخرى يقول انه عاد بالمال والبيض والقنا كما سبق فى أحد الأبيات ، وهو هنا يتوعد مخالفيه بمحقل ينزل بساحتهم فلا يستطيعون له مقاومة : ـ

سيعلم دغار بن أحمد والفتى ... سلالة مهدىّ وكل مخالف

اذا نزل المستنصرون بمحفل يهزّون بيضا كالبروق الخواطف

وفى شعر أبى اسحق ذكر للامام راشد بن سعيد الذى تولى إمامة عمان بعد وفاة الخليل ابن شاذان : ـ

أيا راشدا انا لعمرك نزدهى بذكراكمو فى حضرموت تعاظما
إذا ما عمانىٌّ ألمّ بأرضنا أحطنا به نسأله عنكم تزاحما

ويزعم البارونى أن الهمدانى كان عاملا للأمامين الخليل وراشد — فى حضرموت وأعمالها — ثم تقلّد أمر الامامة بعد ذلك ، وليس فى شعره دلالة واضحة على ذلك سوى أنه يدعو الخليل بامام المسلمين ويقول ان الخطباء فى حضرموت دعوا له جهرةً ، وغير أنّهُ وصف الامام راشدا بأنه صار لهم قيما — يعنى الأباضية — يعتمد عليه عند الخُطوب وذلك حين يقول : ـ

أباضيّة زهرٌ كرام أفاضل مناقبهم فى كل سامى عُلاً تبدو
وأنت لنا من بعدهم صرت قيما حمولاً لثقل الخطب يُورى بك الزندُ

وهذان البيتان من قصيدة أرسلها الهمدانى إلى الامام راشد بن سعيد يعرض له فيها إرسال نجدة إلى عمان من حضرموت لمساعدته فى حروبه مع نهد وعقيل نال فيها مشيراً إلى نهد وعقيل : ـ

فإن عدَلُوا عن بغيهم وتراجعوا إلى عسكر الاسلام والحقّ وارتدوا
فأهلاً ومهلاً بالعشيرة إنهم اليكم باخلاص لرب السما أدّوا
وإن هم أبوا فاستصرخونا فاننا قريبٌ وما للقوم من صحبهم بدُّ
وما بين وادى حضرموت وبينكم إذا سَرَّكم اتياننا نحوكم بعد
متى يأتنا منكم صريخ نؤمّكم بعسكر جرّار يضيق به النجدُ
كهولاً وشباناً صباحاً مساءرا وراداً إلى الهيجا إذا استصعب الورد

ويخاطب الامام راشدا من قصيدة أخرى بقوله : ـ

ونحن اذا ما الحرب جدّت اليكم أتتكم كرادبس تهزّ الصوارما
يذودون عن أوطانهم كل معتد فويل لمن فى الحرب يلقى الحضارما

أصحاب النفوذ فى عهده

يتحدث الهمدانى فى ديوانه عن جماعة من أصحاب النفوذ فى حضرموت بعضهم يناصبه العداء والبعض الآخر صلته به حسنة ، بل هو يمتدح بعض أصحاب النفوذ هؤلاء ويتعاون معهم فى أغراض حربية كما فعل مع أبى الفضل عباس بن معين الكندى : ـ

فى الشرق قد أضحى الهدى بعد ذلة عزيزاً بملك راجح الحلم حازم
كريم حمىّ الأنف شهم غشمشم أخى نجدة صعب صليب الشكائم
أبى الفضل عباس بن معن بن حوشب ذرى كندة العليا الملوك القماقم
أقمت سنينا قبل القاه لاهيا أقاسى عداة الحق مرّ العلاقم
فلما التوت كفى بيمناه أخمدت عساكره بالرغم نار المخاصم
ومدت باذعان اليه رقابها جميع البرايا بين راض وراغم

وهو يصف جيش عباس بن معن هذا بالكثرة والقوة فيقول : ـ

قام ابن معن وابنُ مُعْنٍ جيشه ذو كلكل ضخم عظيم المبرك

ونحن لا نعرف عن هذا الملك الكندى أكثر مما ذكره أبو اسحق ، فقد ضاع الكثير من أخبار هذا العهد لأسباب لا نعلمها بالضبط حتى الآن ، كما لا نعرف شيئا عن سويد بن يمين الذى أطنب الهمدانى فى مدحه وألح فى طلب نصرته : ـ

سويد الذى فى المجد منه عرائس وفيه من المجد النفيس غرائس
سويد الذى لا تائه متغطرس ولا عاجز عما تروم العنارس
سويد الذى لم ينخدع لمنافق ولا ولجت فى مسمعيه الوساوس

سويد الذى قد عاهد الله لم يزل عليه من الصدق الصريح قلانس
سويد الذى أيام كنت بدوعنٍ سقى السيف حتى مجدته المجالس
فكيف يغيب اليوم عنى انتصاره وها أنذا فى داره اليوم جالس
فيا ابن يمين زادك الله رفعة أيغشى الكرى عينيك والحق طامس
ذمارُك محروس وحرمة ذى العلا مهتكة ترعى حماها الأناحس
أغثنا قبيل الموت ان نفوسنا لها فى غدٍ أو بعدها الموت خالس

ويقول فى سويد بن يمين أيضا : ـ

سويد علوت المجد نلت العلا علت أمورك نلت الفخر اذ قمت تكشف
بعزمك كرب المرملين وهكذا يجلى الهموم الأروع المتهفف

فمن هو سويد بن يمين ؟ وعلى من كان ينتصره ؟ وما هى حادثة دوعن التى أشار اليها فى قصيدته ؟ لا ندرى . .

حياته الخاصة

يحدثنا الشيخ سليمان البارونى عن حياة أبى اسحق الخاصة فيقول : كان شديد الحزم متجلدا صبورا على مشاق السفر وزلازل الحروب وأهوال التغرب ، وأقام مرة تسع سنين وشهرا لم يأت فيها أهله وهو سائح بجيوشه فى بسط العدل وتوطيد الأمن للرعية

وله مع والده مخاطبات وقصائد ، وعمر زمنا طويلا رزق فيه ذرية صالحة ، وتوفى فى حياته ولداه محمد وأبو الحسن بعد أن تنورا بأنوار العلوم وتهذبا بمحاسن الأخلاق والآداب وبلغا فى المعرفة مبلغا عظيما ، فعظم عليه فقدهما واستسلم للقدر رضاء بالقضاء المبرم ، ورثاهما بقصائد بعضها فى الديوان .

ولا يتعرض البارونى لتاريخ وفاته ولكنه يقول ان ظهور أمره كان فى حياة والده بصدر الخمسين الثانية من المائة الخامسة ، وهو يقصد بذلك استقلاله بالأمر بعد وفاة الامامين الخليل وراشد ، وقد أشار إلى ذلك أبو اسحق نفسه فى قصيدته التى مطلعها : ـ

بحول إلهى لا بحـولى وقوتى وتوفيقه أظهرت بالسيف دعوتى

فقد قال بعد أن ساق عهده ووصيته للناس : ـ

بتاريخ شوال وفى عام أربع وخمسين تقفو أربعا من هنيدة

ما قل ودل

ان هذه المعلومات القليلة المبعثرة التى يطالعنا بها ديوان الهمدانى لتـدل دلالة مخيفة على مدى الفوضى والاضطراب اللذين حفل بهما تاريخ حضرموت فى هـذه العهود ، فضلا عن الفتن الداخلية التى تعانيها البلاد كانت فى نفس الوقت هدفا لغزوات حكام اليمن والأقوياء من عمال بنى أمية والعباس ، ثم لمطامع ملوكها والمتغلبين عليها من آل زياد واليعافرة والقرامطة وبنى زريع والصليحيين .

وربما كان لعقيدة الأباضية التى يعتنقها أغلبية من الحضارم فى تلك العهود دخل كبير فى هذه الثورات المتتابعة والفتن المتلاحقة ، فالأباضية كغيرهم من الخوارج ينظرون الى خلفاء بنى العباس كنظرهم إلى خلفاء بنى أمية ، كلهم لا يصلح للخلافة اذ لم يختر اختيارا حرا صريحا ، ولم يستوف الشروط التى يجب توفرها فى الامام ، ولذلك يجب الخروج عليهم ومقاتلتهم وعزلهم إن أمـكن وقتلهم إن أمـكن[1]

وقد استعمل حكام اليمن من الشدة فى قمع هذه الثورات ما تقشعر من تصوره الأبدان ، فقد سبق فى ترجمـة طالب الحق ذكر للأفعال الشنيعة التى فعلهـا جيش ابن عطية من النهب والتخريب وقتل الرجال والنساء والأطفال فى آخر عهد بنى أمية ، ثم أتى معن بن زائدة والى المنصور العباسى على اليمن ماهو أشد وأفظع ، فقد أثخن فى القتل وبلغ عدد ضحاياه خمسة عشر ألفـا ، حتى أعظم الناس ذلك وتحـدثوا به فى جميع الأمصار ، وقال رجل من قريش للخليفة المنصور : ألا ترى يا أمير المؤمنين إلى ما فعل معن بأهل حضرموت ؟ لقد كاد أن يأتى عليهم ،

---

(١) ضحى الاسلام لأحمد أمين

فرد عليه المنصور رداً يدل على رضائه عما صنع واليه فى اليمن .

ويقول السيد علوى بن طاهر الحداد فى كتابه جنى الشمار يخ : ان معن بن زائدة قضى على سطوة الأباضية فى حضرموت ، وما بقى منها دمّرها ابن أبى يعفر ، ويقصد به محمد بن أبى يعفر الحوالى الذى كان متغلبا على اليمن فى خلافة المعتمد العباسى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وقد كتب اليه الخليفة العباسى بولاية اليمن فوجه عماله على المخاليف وفتح حضرموت وكانت قد تمنعت على من قبله ، وأقام الهزيلى الحضرمى فى شبام نائبا عنه .

وأشعار أبى اسحق الهمدانى تثبت أنه كان للأباضية سطوة ونفوذ فى القرن الخامس الهجرى أيضا ، بل سنرى فى تراجم الشخصيات الآتية أن نفوذهم استمر إلى القرن السابع حيث أخذ فى الضعف والتلاشى

ومن المؤسف أن المصادر التى عثر عليها حتى الآن لم تتعرض بتفصيل لأخبار استيلاء الحكام اليمنيين على حضرموت من آل زياد واليعافرة والقرامطة وبنى زريع والصليحيين وغيرهم ، كما لما تُشير إلا نادرا الى زعماء الثوار ورؤسائهم من الأباضية الذين وقفوا فى وجه الغزاة وحاربوا من أجل استقلالهم بالنفوذ داخل بلادهم ، وحتى يتم العثور على المصادر التى تجلو الحقائق التاريخية وتتحدث باسهاب عن نواحى الحياة السياسية والاجتماعية فى ذلك العهد فسيبقى تصورنا لتلك الحقبة التاريخية ناقصا ومضطربا لا يمكن الركون اليه .

(٦)

عبد الله بن راشد القحطانى

نسبه ، ثقافته — هجوم الزنجيلى — ولاية عبد الله بن راشد — غزو ابن مهدى
مقتل السلطان ابن راشد — ضياع المصادر التاريخية — أولاد عبد الله بن راشد

نسبه ، ثقافته

هو السلطان عبد الله بن راشد بن شجعنه بن فهد بن أحمد بن قحطان الحميرى القحطانى . ولد بتريم سنة ٥٥٣ هـ ، وحبب اليه العلم من صغره فحفظ القرآن الكريم وتفقه على كثير من أئمة تريم كالامام يحيى بن سالم بافضل والامام أبى بكر بن أبى ماجد والامام فضل بن أبى جواس . وفى سنة ٥٨٣ هـ قرأ صحيح البخارى على الامام محمد بن أبى النعمان الهجرانى الفقيه المحدث ، وفى سنة ٥٨٨ سمع الحديث من المقدسى وابن عساكر وابن أبى الصيف اليمنى

وآل راشد الذين ينتمى اليهم السلطان عبد الله بن راشد هم من بين الأسر الحضرمية البارزة التى شقت طريقها إلى الحكم فى موجة من الفوضى والتناحر على السلطة والنفوذ فى البلاد ، فقد كانت حضرموت تموج بالفتن والاضطرابات وتعيش فى جو من الخوف والرعب وسفك الدماء ، إذ لاتوجد سلطة محلية حازمة قوية تستطيع أن تفرض سلطانها على كافة انحاء القطر وتبث فيه الأمن والسكينة ، فظلت البلاد قرونا عديدة تحت رحمة أصحاب المطامع من كل من هبّ ودبّ من القبائل أصحاب العصبية مهما قل عدد أفرادها ، ولم يأت تدخل حكام اليمن فى السيطرة على حضرموت بأية فائدة تذكر من ناحية الاستقرار ، بل زاد الحالة سوءا على سوء ، كما يعرفه كل من تتبع حوادث التاريخ الحضرمى أثناء حكم الزياديين وآل يعفر والصليحيين ومن بعدهم من بنى أيوب والرسوليين وغيرهم

هجوم الزنجيلى

فى الوقت الذى كان فيه آل راشد يحكمون تريم كان السلطان صلاح الدين الأيوبى يُعِدُّ

حملة للاستيلاء على اليمن تحت قيادة أخيه شمس الدولة توران شاه ، وقد وصلت هذه الحملة فعلا إلى اليمن واحتلتها سنة ٥٦٩ هـ ، فاقام توران شاه أحد قواد تلك الحملة واسمه عثمان الزنجيلى واليا على عدن من قبله . فلما وجد الزنجيلى من نفسه قوة طمع فى الاستيلاء على حضرموت فجهز قوة كبيرة من اليمنيين ومن الأتراك الذين يقال لهم (الغُزّ) وسار على رأسهم إلى حضرموت .

قدم الزنجيلى أولا إلى الشحر فاحتلها ، ثم زحف بجيشه الى الداخل فاعترضته قوة عسكرية من آل راشد عند الغيل ، وعلى أثر معركة دارت هناك اضطرت القوة الحضرمية إلى التقهقر واستمر الزنجيلى فى تقدمه إلى تريم ومريمه وشبام فاحتلها وكان ذلك سنة ٥٧٥ هـ أيام حكم السلطان راشد بن شجعنه والد صاحب الترجمة ، وكان ممن لقى الزنجيلى الى الشحر مع أبى الرشيد أحد أفراد أسرة ملوك شبام آل الدغار .

وتروى بعض كتب التاريخ أن الزنجيلى عاد إلى عدن بعد أن ترك أخاه الأسود واليا على حضرموت ، وجعل آل راشد نوابا عنه يبعثون اليه الخراج ، ولكن آل راشد سرعان ما خلعوا طاعته وأعلنوا استقلالهم فجهز الزنجيلى حملة أخرى لاخضاعهم قدمت إلى حضرموت ودخلت تريم وقتلت فيها كثيرا من علمائها الذين حرضوا آل راشد على خلع الطاعة ، وقد قبض الزنجيلى على عبد الله بن راشد وأخيه أحمد سنة ٥٧٥ هـ وحملهما إلى عدن ، ثم ألقى القبض على أبيه وأخيه شجعنه فى سنة ٥٧٦ هـ

وكان الشيخان يحيى بن سالم بن أبى أكدر وأخوه أحمد من بين ضحايا هذه الحملة ، وكانا عالمين فقيهين صالحين ، فلما أمر بقتلهما سبق أحدهما إلى السياف ليؤثر أخاه بحياة ساعة . فقال له الآخر : اتسبقنى إلى الجنة ؟ قال : بل أردت إيثارك بالحياة . قال : لا بأس فالى مثلها يكون السباق . ويرى السيد علوى بن طاهر الحداد فى كتابه عقود الألماس أن الخوارج هم الذين جاءوا بالغز ، وينقل عن صاحب الجوهر الشفاف أن الامام يحيى بن سالم بن أبى أكدر قتل ظلما فى جمع من صالحى تريم قتلهم بعض الخوارج خرج على البلاد سنة ٥٧٦ هـ ويقول :

ذكر القاضى المؤرخ محمد بن مسعود باشكيل بان جماعة من السادة العلويين قد قتلوا أيضاً ونقله عنه الطيب بامخرمه وذكر منهم الفقيه المقدم وغيره ، وأنكر ذلك القُطب أبو بكر العيدروس العدنى ، وربما كان بين من قتل من العلويين من اسمه محمد بن على فتوهم ان المراد به الفقيه المقدم اهـ .

وقد عاد عبد الله بن راشد وأخوه من عدن فى سنة ٥٧٦ هـ وفى بداية سنة ٥٧٧ اجتمع هو وأخوه شجعنه بكحلان جبل على مقربة من تريم فى جنوبها تلتقى عنده مياه عِدِم وسَر[1] ، ثم دخلا تريم وتولى الحكم فيها شجعنه فى ذلك العام نظرا لأنه أسن من أخيه عبد الله ، أما بقية المناطق الأخرى فقد ظلت هدفا لغزو الاتراك من الغز تارة فى حجر وميفع ومرة فى عمد والريدة وشبوة وجردان وأخرى فى عندل والهجرين يقتلون وينهبون ويفتكون بالأهالى ، وكلما اخضعوا منطقة انتفضت عليهم أخرى ، وظل الحال كذلك الى القرن السابع الهجرى : فتن متلاحقه آخذ بعضها بتلابيب بعض .

ولاية عبد الله بن راشد

قلنا ان شجعنه بن راشد تولى حكم تريم سنة ٥٧٧ هـ ، وقد استمر سلطانا عليها إلى سنة ٥٩٣ هـ فى ٧ ربيع الثانى حيث قتله أحد عبيد آل راشد فحامت التهم حول أخيه عبد الله واشيع كذبا بأنه مدبر هذه الحادثة ، ولكنه نفى هذه التهمة بالقبض على المشتركين فى قتل أخيه وقتلهم وتولى الحكم عقب ذلك فتكون بداية سلطنته سنة ٥٩٣ هـ

وقد حاول السلطان عبد الله بن راشد منذ تولى السلطنة أن يضرب على أيدى العابثين بالأمن ، وان يضع حدا للفتن والفوضى الضاربة أطنابها فى البلاد ، فقامت فى سبيله صعوبات وعراقيل لم تكن لديه وسائل التغلب عليها ، ومع ذلك فقد أصاب بعض النجاح ، فقد قام أثر توليه السلطنه باحتلال شبام وأخرج منها راشد بن أحمد بن نعمان ، وفى عقود الالماس للسيد علوى بن طاهر الحداد ما يشير إلى أن آل النعمان هؤلاء من الخوارج ، فقد قال عن السلطان

---

(١) عِدم و سَرّ : واديان فى حضرموت الداخل

عبد الله بن راشد : وهو الذى جاهد آل النعمان ولاة شبام وألفافهم كما جاهدتهم السكون من كندة بعد زيغ كان منهم حتى أذعنوا بالطاعة وتفرق شمل الخوارج

ومرت سنوات والسلطان عبد الله بن راشد يعانى المتاعب ويقاسى المصاعب فى اخضاع الثائرين وقمع الحركات العدوانية ، فغزا حوره وهدم مصنعتها وسار على رأس جماعة من أتباعه واستولى على مدينة بور ، ثم قصد الساحل سنة ٥٩٩ هـ فحاصر الشحر شهرا ، ثم انقلب عنها دون ان يظفر بطائل ، وكثرت حوادث القتل والتخريب والنهب والسلب واستولى غير واحد من الرؤساء على شبام وانتقضت نهد وبنو حارثة وحضرموت وتجيب وغيرهم وحصلت حوادث قتل وتخريب فى سيؤن وجفل وشبام وغيرها من مدن الوادى وقراه وحوصرت تريم وشق راشد بن أحمد وفهر بن عبد الله عصا الطاعة وعاثا فسادا فى أراضى صوح بالقرب من تريم وقتل الإمام سالم بن بصرى أحد كبار العلويين سنة ٦٠٤ هـ بعد ما امتحن قبل ذلك وعقب قتله بنحو عشرة أيام وصل راشد بن أحمد بن نعمان إلى تريم ومعه يحيى بن عبد الله ابن جعفر ، واجتمع أهل حضرموت وتحالفوا على السمع والطاعة لراشد المذكور ضمن دائرة الشريعة ، وفى ذى الحجة سنة ٦٠٥ هـ وقعت حادثة جفل التى هلك فيها نحو الثلاثين منهم راشد بن أحمد بن النعمان الذى انعقدت له الرئاسة أثر مقتل الإمام سالم بن بصرى .

وهكذا ظلت البلاد فى فوضى وخراب شامل فى الأمن والنظام والعمران إلى سنة ٦٠٦ هـ حيث اجتمع بنو حارثة وبنو حرام على طاعة عبد الله بن راشد وبايعوه على السمع والطاعة علانية فى جامع تريم وتخلوا له عن جميع ما فى أيديهم من القرى والحصون وخضعت له القبائل ودانت بالطاعة من العقاد غربا إلى شعب نبى الله هود شرقا حتى سمى هذا الوادى وادى ابن راشد نسبة إلى السلطان عبد الله بن راشد

عند ذلك بدأت فترة من الهدوء والاستقرار فى حياة هذا الوادى استتب فيها الأمن واتسق النظام ونفذت أحكام الشريعة المطهرة واطمأن الناس على أرواحهم وأموالهم وانصرفوا إلى الزراعة واستثمار الأرض والعناية بالنخيل والماشية ، وكانت الأرض مستعدة

خصبة لبعد عهدها بالحرث من جراء الفتن والاضطرابات فأتت الأرض أكلها وكثرت الخيرات وفاضت الزكوات حتى ذكروا أنه اجتمع لدى السلطان عبد الله من معشرات الأرض من الحبوب والتمر الشيء الكثير وقيل إنه قال ذات يوم مطمئنا الى نتائج مجهوداته : لا يوجد فى بلدى سارق ولا حرامى ولا محتاج ، فقد انصرف الناس الى استثمار أراضيهم وشغلت الأيدى العاملة ووصل الى الفقراء والمحتاجين حقهم من الصدقة والزكاة فلم يبق من تدفعه الحاجة الى أخذ قوته عن طريق القوة أو الاختلاس

غزو ابن مهدى

ولم يكتف الغز بالفظائع التى ارتكبوها فى عهد أميرهم عثمان الزنجيلى [1] فقد عادوا سنة ٦١٤ هـ بقوة كبرى تحت قيادة عمر بن مهدى اليمنى الذى بدأ فاحتل الشحر بعد ان نكل بولاتها آل فارس ثم اتجه الى الداخل ماراً ببلدة عرف فيقاتله أهلها ويقتل منهم جماعة من أشهرهم أحمد بن سالم بن بلعان ويستمر سائرا إلى الغيل الأسفل فيحاصر أهلها إلى أن يذعنوا ثم يواصل سيره إلى تريم وفيها السلطان عبد الله بن راشد فيحاصرها ، ثم يدخلها فى ٢٣ جمادى الأولى سنة ٦١٦ هـ وينفى منها السلطان عبد الله مع جماعة من أنصاره وأتباعه .

واتجه ابن مهدى بعد احتلال تريم إلى شبام فيدخلها بعد أن قاتله حكامها من بنى حارثة قتالا شديدا ثم تذعن له جميع أهالى حضرموت ودوعن سنة ٦١٧ هـ ، وقد حصّن مدينة شبام سنة ٦١٨ هـ بان بنى بها حصنا للدفاع وحفر خندقا يحيط بها ، ثم أعاد بناء قارة العر بالقرب من حوطة سلطانه وسرعان ما انتقضت البلاد عليه عقب عودته إلى اليمن لمقابلة الملك المسعود [2] بتعز ، فعاد مرة أخرى إلى حضرموت ماراً بحجر فتقتل من أهلها الجم الغفير ،

---

(١) فى سنة ٥٧٦ هـ نشب خلاف بين الزنجيلى فى عدن وزملائه فى اليمن من عمال الايوبيين أدى إلى اثارة فتن وحروب ، فأرسل صلاح الدين أخاه طغتكين لقمع دابر الفتنة فهرب الزنجيلى من عدن الى الشام

(٢) الملك المسعود ابن الملك الكامل أبى بكر بن أيوب ، أحد ولاة اليمن من الايوبيين الذين تولوا اليمن وحضرموت من سنة ٥٦٩ هـ إلى ٦٢٢ هـ

وكانوا قد أعلنوا العصيان كما انتقضت عليه دوعن وشبام وبنو ظبيان وبنو سعد ونهد كلها فأكثر القتل والفتك ، وكان كلما اتجه الى بقعة انتقضت عليه أخرى وماجت البلاد بالثورة والتمرد وعج الجو بالمطامع والفوضوية والفتنة تقلع الرؤس وتحصد النفوس وتطوح بالقطر الحضرمى الى الخراب والدمار

واستمر الغز وقائدهم عمر بن مهدى يصولون ويجولون ويحكمون البلاد بالقوة والعنف إلى أن هجمت قبائل نهد على عمر بن مهدى فى شحوح سنة ٦٢١ هـ فقتلته فى عدد كثير من أصحابه واستولت على شبام وتريم وجميع بلدان الوادى ، وكان قتله نهاية دولة الايوبيين ونفوذهم فى البلاد الحضرمية . فقد ذكر المؤرخون أن الملك المسعود الأيوبى الذى ذهب عمر بن مهدى لمقابلته فى تعز عاد إلى مصر بعد سنة ٦٢٠ هـ وأناب عنه على اليمن عمر بن على بن رسول الغسانى وكان هذا يقظا حازما طموحا فضبط البلاد كما ينبغى وأعلن استقلاله وتغلب على ملك اليمن وانتقلت إلى سلطته مخاليف لحج وعدن وحضرموت وغيرها ، ثم إلى خلفائه من بنى رسول .

مقتل السلطان ابن راشد

كان آخر عهد السلطان عبد الله بن راشد بتريم عندما غادرها عقب احتلالها من قبل ابن مهدى سنة ٦١٦ هـ حيث أقام بقارة العر معتزلا شؤن السياسة لما رأى من اضطراب الأحوال وعدم موالاة القبائل له وعجز أنصاره عن نصرته ، وتخلى هناك للعبادة واكتساب الخيرات والاصلاح بين الناس ، ولما سئل عن السبب فى اعتزاله السياسة قال : ما وجدنا أهل حضرموت يوالوننا على الحق .

ولم تطل مدة اقامته بقارة العر فقد خرج مرة ليصلح بين قبيلتين متخاصمتين فقتل فى الطريق رحمة الله عليه سنة ٦١٦ هـ أى فى نفس العام الذى أخرج فيه من تريم وتسمى بعض كتب التواريخ قاتله ومكان قتله فتقول : ـ قتله ابن مداره تحت طاحس ودفن قريبا من مربته .ويرى السيد علوى بن طاهر الحداد فى كتابه عقود الألماس ان الخوارج هم السبب فى

قلة ، قد قال ما نصه بالحرف الواحد : ـ

« وتحرك الخوارج فى أواخر القرن السادس وأظهروا ما فى صدورهم وأغروا بأهل العلم والدين وضايقوا السادة العلويين بالطعن فى أنسابهم . . . ثم ضعف أمرهم بعد ذلك بهرب سندهم الزنجيلى الشامى وخمدت فتنتهم بعد تولى السلطان عبد الله بن راشد الشافعى السنى ، ثم قتل شهيدا مغيظا بمماندتهم حتى سلط الله عليهم طوفان القبائل النازعه من سروات جبال قضاعة فاجتاحوا البلاد وتشتت أكثر سكانها الأولون »

وفى موضع آخر من نفس الكتاب ذكر القبائل التى انتقلت إلى حضرموت من السروات[1] بعد القرن السادس فقال : ـ

« هم بنو حرام وفصائلهم من بنى ضنة وبنى لبيد وبنى مسعود وبنى جعفر وبنى اليماني وآل كثير وآل شماخ من مذحج والصبرات وآل جميل وآل حسن وهم بنو سعد ان لم يكن هؤلاء هم سعد كندة كما هو الأقرب ، وبنو خيثمة وفصائلهم مثل آل شماخ ومنهم آل جابر وآل فضالة وآل عساكر وبنو معروف وبنو ظبيان ومنهم بنو سويد بن ظبيان وبنو مرة وآل الحمراء وبنو معقل وغيرهم من القبائل المنقرضة أو الناقلة إلى الاحساء والقطيف ، وكان يطلق فى القديم على هذه القبائل اسم نهد لتقارب بلادهم فى جبال السراة وتجاورهم ، ثم امتازت كل قبيلة منهم باسم خاص ، وهؤلاء غير قبائل مذحج الناقلة من سرو مذحج كآل عوبث وآل باجنادة وآل مخاشن »

ضياع المصادر التاريخية

ويعتقد السيد علوى بن طاهر فى كتابه عقود الالماس أن لهذه الفتن الدموية التى منيت بها حضرموت فى ذلك العهـــد دخلا كبيرا فى ضياع مصادر التاريخ الحضرمى وانطماس المعلومات التاريخية عن هذه العهود فيقول : ـ

---

(١) السرو ما ارتفع عن الوادى وانحدر عن غلظ الجبل

ان كارثة الزنجيلي والغز وما تلا ذلك من هجوم القبائل الناقلة جعل أهل الفضل يشتغلون بأنفسهم وهم الذين يحفظون التاريخ وهرب أكثرهم إلى ظفار واليمن ومكة ومقدشوه وغيرها ومن تأمل ذلك علم أن تلك الكوارث بالنسبة لحضرموت كواقعة التتار بأقطار الاسلام وما تلا ذلك من أعمال تيمورلنك ، فلا عجب من اندراس الآثار وخفاء الأخبار .

وردد هذا المعنى مرة أخرى فى موضع آخر فقال : ـ

وقد كان لحملات الغز والخوارج والزنجيلي وحملات قبائل جبل السراة والسروين : سرو حمير وسرو مذحج أثر عظيم فى انطماس الكتب والمؤلفات ، مع ما عرف به أهل حضرموت من الاضاعة والاهمال لآثار ومناقب من سبق . اه

ونحن حين نسجل هنا أسفنا الشديد لفقد المصادر التاريخية لاجزاء مهمة جداً من ماضى حضرموت لا نستطيع حتى الآن أن نبدى رأيا قاطعا فى الموضوع حتى تتجمع لدينا الأدلة الكافية للحكم فى هذه الظاهرة الغريبة .

أولاد عبد الله بن راشد

لا نعرف عن أولاد السلطان عبد الله بن راشد أكثر مما ذكره المؤرخون من أن قبائل نهد حين استولت على تريم بعد قتل ابن مهدى أخرجت أولاد عبد الله بن راشد من سجن ابن مهدى وأنهم انطلقوا إلى الشحر فسكنوها ، كما أنهم ذكروا ان له أبنا اسمه محمد كان فقيها ووالياً على حضرموت ، وتروى عنه بعض كتب التاريخ هذه الحكاية : ـ

« سأل السلطان الفقيه محمد بن عبد الله بن راشد والى حضرموت الشيخ القديم عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن باعباد عن بعض شطحات الفقيه المقدم وذكر له أنه قد سأل عنها الشيخ بافضل والشيخ باطحن فانكراه على الفقيه ، فقال له القديم أمتحنّ أنت أم مستفيد ؟ فقال له السلطان : بل مستفيد . فقال : اشهدوا علىّ أن الفقيه المقدم محمد بن على لا تمضى عليه ساعة وهو خال من السكر ، وما قال هذا إلا فى حال السكر ، ولا يصلح من هذين الشيخين الاعتراض عليه مع ظهور وجه العذر »

ويذهب مؤرخ مشهور الى أن السلطان محمد بن عبد الله بن راشد امتدت به الحياة إلى أواخر القرن السابع الهجرى حيث توفى بالريده سنة ٦٨٧ هـ ، وسيأتى فى موضعه أن مسعود ابن يمانى احتل تريم وأخرج منها نهد فى نفس العام الذى استولوا عليها فيه ، وهكذا كانت حضرموت تتلاعب بها أمواج الاضطرابات والفتن والثورات بدون انقطاع

والى دولة آل راشد القحطانيين يشير صاحب المشرع الروى بقوله : ـ

ثم وَلِى حضرموت بنو قحطان ، فملكوا برهة من الزمان ، ثم ظلموا الناس ، وأخذوا أموالهم بالقهر والباس ، فنفرت عنهم قلوب الخلق ، وآل الأمر إلى آل أحمد والصبرات ، وكثر فى أيامهم الفرح والمسرات ، إلى أن طغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، وملك كل واحد فى بلاد ، وجمع له العدد والاعداد ، ومن قتل قتيلا والتجأ إلى أحد منهم لم يمكن الوصول اليه ، فكثر بسبب ذلك القتل والقتال ، والجلاد والجدال ، الى ان تولى بدر بن عبد الله الكثيرى فعمل بالحيل والخداع ، حتى أخذ ما معهم من الحصون والقلاع ، وأخذ ملوكهم واحداً واحداً ، وفرقهم فى البلاد بددا ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً . اهـ

(٧)

سالم بن ادريس الحبوظى

أسرته — استيلاؤه على حضرموت — عماله من آل كثير — قحط ومجاعة
هجومه على الشحر — الحبوظى وبنو رسول — حضرموت بعد الحبوظى
أوقاف الحبوظى — بداية السلطنة الكثيرية

أسرته

الأمير سالم بن ادريس بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الحبوظى ، لم يكن حضرميا بالمولد ، فقد ولد ونشأ وعاش فى ظفار ، ولكنه ينتسب إلى أصل حضرمى ، كان جده الثالث محمد بن أحمد الحبوظى عاملا من عمال السلطان محمد بن أحمد الاكحل أمير مرباط الواقعة على الساحل شرقى مدينة ظفار ، وكان يلى بعض شؤن الاكحل التجارية فقط ، فلما مات الاكحل هذا ولم يترك عقبا ولم يكن فى أقاربه من كان متأهلاً للملك تولى الأمر بعده محمد الحبوظى الذى وجد فى نفسه القدرة على تولى السلطنة والقيام بالأمر .

فلما مات محمد هذا تولى السلطنة بعده ابنه أحمد الذى بنى مدينة ظفار الحديثة سنة ٦٢٥ هـ وأمر أهل مرباط وهى ظفار القديمة ان ينتقلوا اليها ، وكان السلطان أحمد جوادا شهما حسن السيرة وهو أول من ملك ظفار من الحبوظيين رسميا بعد ولاية أبيه التى كانت كتمهيد لانتقال الإمارة إلى خلفائه ، وقد تولى الأمر بعد وفاته ابنه محمد ثم ادريس بن محمد ثم سالم ابن ادريس الذى عقدنا هذا الفصل للحديث عنه

استيلاؤه على حضرموت

كان الأمير سالم بن ادريس جم المطامع طموحا إلى السيطرة شديد الشغف بتوسيع رقعة

مملكته ، وقد عظم شأنه فى ظفار وقويت شوكته ، ولما أنس من نفسه القدرة صمّم على غزو حضرموت والاستيلاء عليها ، وكانت الفوضى التى شملت البلاد الحضرمية فى ذلك العهد تشجع الطامحين على الادلاء بدلوهم بين الدلاء

والمصادر التى بين أيدينا لا تذكر المعدات التى أعدها لهذا الغزو ، ولا تتعرض لتفصيل الحوادث الحربية وما يتصل بها ، وكل ما ذكرته بهذا الصدد أنه قدم حضرموت واشترى مدينة شبام سنة ٦٧٣ هـ وجعلها مركزا لنفوذه وقاعدة لبسط سلطانه ، ثم ترك أخاه موسى بن ادريس فى شبام وأخذ يهاجم مدن الوادى وقراه ، فاحتل سيؤن وتريم والعجز والغيل ، وضرب الحصار على تريم وكان فيها أميرها عمر بن مسعود بن يمانى ، وأقام محاصرا لها عدة أشهر اشتدت الفتنة أثناءها على تريم وخلت البلاد من أهلها وعم الخراب حتى أنه لم تقم فى تريم جمعة أثناء تلك المدة

وحاول ابن مسعود ان يستنجد بالغُزّ فذهبت محاولته سدى ، فقد أرسل ابنه يمانى أثناء الحصار ليجند منهم جندا للدفاع عن تريم فلم يفلح فى مهمته ، ومع ذلك فقد صمد إلى النهاية حتى يئس الحبوظى وانقلب دون أن يظفر بطائل حيث عاد إلى شبام فاجتمع بأخيه موسى ، ثم كر عائداً إلى ظفار .

عماله من آل كثير

كان آل كثير قد شرعوا منذ أواخر القرن السادس الهجرى يتناجون فيما بينهم للقضاء على جميع السلطات الفوضوية فى البلاد وتشييد دولة كثيرية على أنقاضها وطفقوا يجمعون حولهم الأنصار ويستعينون بشتى الوسائل للوصول إلى هدفهم .

ولما قدم الحبوظى إلى حضرموت انتهزوا هذه الفرصة فأظهروا له الولاء والطاعة وقاموا بالسعاية له وترويج سياسته وتولّوا إدارة شؤنه العسكرية ، فلما عاد إلى ظفار مقر مملكته أناب

عنه فى قرى حضرموت آل كثير يحكمون باسمه ويصولون بسلطانه ، وكان ذلك سنة ٦٧٥ هـ. وقد توفى فى هذا العام على بن عمر بن كثير الأول رئيس العائلة الكثيرية التى كانت تمهد للاستيلاء على الحكم

قحط ومجاعة

فى حدود سنة ٦٧٦ هـ انتشرت فى حضرموت مجاعة شديدة بسبب قلة المواد الغذائية وارتفاع أسعارها نتيجة للقحط والجدب الذى عم البلاد ، فقدمت على الحبوظى وهو فى ظفار وفود من حضرموت يشكون إليه ما حل بهم ويطلبون منهم المعونة ، وعرضوا عليه مقابل ذلك حصونهم وقلاعهم ، فاهتم بالأمر وخرج بنفسه معهم إلى حضرموت وأعطاهم جميع ما يطلبون لتخفيف المجاعة ، وسلموا إليه الحصون التى كان يعتبرها من أهم الوسائل لبسط نفوذه وتقوية مركزه فى البلاد . وعاد إلى ظفار مطمئنا إلى نجاح هذه الخطة التى هيأتها له الأقدار .

ولكن الرجل لم تكن لديه إدارة منظمة فى حضرموت ، ولا قوة كافية من الجند للمحافظة على المناطق الخاضعة له ، فكان يكتفى بشىء من الرسوم ، ثم يترك البلاد وشأنها جاعلا عليها عاملا من قبله لا يلبث ان يستقل بالحكم فيها أو يأتى من يطرده عنها ، وكان بعد المسافة وصعوبة المواصلات فى ذلك العهد من بين الأسباب التى جعلت الحبوظى لا يستطيع المحافظة على أملاكه فى حضرموت ، ولذلك فقد رأى أصحاب الحصون التى سلموها له أثناء المجاعة أنهم فى حاجة إلى حصونهم وأنهم لن يجدوا كثيرا من الصعوبات فى استرجاعها بالقوة فمالوا عليها ميلة واحدة واستردوها ، ولم يستطع الحبوظى أن يصنع شيئاً فاكتفى بالندم والأسف على ما فرط فيه من جهد ومال ، وما خسره من نفوذ وسلطان .

هجومه على الشحر

كان الحبوظى ـ كما قلنا سابقا ـ واسع المطامع بعيد الهمة ، فكان ينتهز كل فرصة لبلوغ

آماله وتنفيذ أحلامه ، وقد أسرع عندما بلغه استيلاء الغز على الشحر سنة ٦٧٧ هـ إلى إعداد العدة لغزوها وتخليصها من الغُزّ والاستيلاء عليها وضمها إلى أملاكه ، وكان راشد بن شجعنه أمير الشحر قد فرّ هاربا إلى الجبال عقب الهجوم الذى قام به الغز على مقر إمارته .

وجهز الحبوظى من ظفار حملة بحرية وبرية حسب أنها كافية لتنفيذ خطته التى رسمها لاحتلال الشحر ، ولما وصلت قواته إلى ضواحى المدينة خرج الغز للقائه فدارت المعركة بينه وبينهم فى البر وانتهت بفشله وانهزامه حيث عاد بعد ذلك إلى ظفار

الحبوظى وبنو رسول

حدث أن أرسل الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول ملك اليمن سفيرا له إلى ملك فارس بهدية ثمينة بطريق البحر وصحبه جماعة من التجار ، فصرفهم الريح عن طريقهم ورمى بسفينتهم إلى ساحل ظفار فألقى القبض عليهم سالم بن ادريس واستولى على ما معهم من الهدايا والأموال ، ونحن لا نعلم أى سبب مشروع يبرر هذا التصرف من قبل الحبوظى ، وان كان التنافس على الحكم فى حضرموت هو مصدر الجفاء والاحتكاك بين الرجلين على ما يظهر

وانتهى خبر الحادث إلى الملك المظفر فكتب إلى الحبوظى يقول له : ـ إنه لم تجر عادة بهذا ونحن نجلك عن قطع الطريق وأنت تعلم ما بيننا وبين والدك من الصحبة والجميل ولا نعجز عن مكافأتك على ما فعلت ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب ﴾ ولكنا نتأدب بأدب القرآن ، فان الله سبحانه يقول ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

فغضب الأمير سالم بن ادريس ورد على ملك بنى رسول رداً عنيفا افتتحه بقول الله عز شأنه : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ ، وكان فى جملة ما قاله : ـ هذا الرسول فأين العذاب ؟ وبذلك توترت العلاقات بينهما واتجه الفريقان إلى تحكيم السيف .

وعلم الملك المظفر بأن الحبوظى هو الذى شجع راشد بن شجعنه حاكم الشحر على خلع

طاعة بنى رسول ، وكان يخضع لسلطانهم ويدفع اليهم خراجا سنويا ، كما بلغه أن الحبوظى يفكر فى الهجوم على عدن ، ولذلك أعد الملك الرسولى حملة عظيمة من البحر والبر تكفى لمحو سلطان الحبوظيين والقضاء عليه . فقد ذكر المؤرخون أن الجيش الذى غزا ظفار كان مؤلفا من سبعة آلاف من المشاة وخمسمائة فارس ، وكانت السفن فى البحر تسير محاذية لسير الجيش فى البر تحمل العتاد الحربى وما يحتاج اليه الجنود من أطعمة ومتاع ونقود .

وخرجت فرقة من جيش الرسولى قوامها ثلثمائة فارس من صنعاء متجهة صوب حضرموت الداخل فى طريقها إلى ظفار ، وقد اصطدمت فى حضرموت بقلاع الحبوظى وحلفائه ، ولم يكن بحضرموت من يوالى الملك المظفر سوى ابن شماخ النهدى وعمر بن على بن مسعود ، ويقال بأنه لم يصل من هذه الكتيبة إلى ظفار سوى مائة وثلاثة عشر فارسا .

وتكامل الجيش الرسولى والتقى بعضه ببعض عند ريسوت بالقرب من ظفار ، وخرج الأمير سالم بن ادريس فى جيشه متأهبا للقائهم وصفّ لهم على بعد من المدينة ، وانتشرت اشاعة بأن نجدة للحبوظى قد وصلت من حضرموت والهجرين فلم يهتم بها قائد الجيش الرسولى شمس الدين ازدمر اتكالا على وفرة عدد جيشه وكثرة أسلحته ، ونشبت المعركة واحتدم القتال وصمد كل فريق للآخر ، ثم كرت فرسان الجيش الرسولى وجالت جولة فرقت جنود الحبوظى وحلت بهم الهزيمة وانكشفت المعركة عن قتل سالم بن ادريس فى ثلاثمائة من أصحابه وأسر ثمانمائة منهم وطلب سالم بن ادريس بين القتلى فوجدوه قد قطع رأسه فقبر جسده بدون رأس

ودخل شمس الدين ازدمر بجيشه إلى ظفار فى يوم الأحد ٢٨ رجب سنة ٦٧٨ هـ وقبض على كافة بنى الحبوظى وحملهم إلى زبيد حيث ظلوا هناك يعيشون على الصدقات السلطانية ، حتى انقرضوا أو اندمجوا فى أهل اليمن .

حضرموت بعد الحبوظى

عقب الاستيلاء على ظفار أناب الملك المظفر عنه بحضرموت الأمير محمد بن محمد بن ناجى فأقام فيها برهة ، ثم عاد إلى اليمن وقد تسلمت جنود المظفر مدينة شبام فى رمضان سنة ٦٧٨ هـ بعد مقتل الحبوظى ، وظلت حضرموت خاضعة لبنى رسول الذين امتد ملكهم فى اليمن إلى القرن التاسع الهجرى ، إلا أن هذا الخضوع ربما كان اسميا فى أكثر الأحيان وفى أغلب المناطق ، فالمتتبع للتاريخ الحضرمى فى هذا العهد يجد أن سلطات محلية متعددة كانت تحكم فيه بأمرها دون اللجوء إلى سلطة عليا .

وذكروا أن محمد بن محمد بن ناجى الآنف الذكر قيل له عندما عاد إلى اليمن : كيف عاملت أهل حضرموت ؟ قال : لما دخلت شبام راعنى منهم رجل هو أعظمهم حالا وجمع لحربى عسكراً فطاولته حتى أنفق جميع ما عنده ونفد كل ما بيده من ناطق وصامت ، ولما لم يجد ما يدفعه لعسكره وصلنى بنفسه حتى أناخ بعيره على باب دارى ودخل الحاجب يستأذن له فأذنت ، فلما دخل قال : اعلم أنى لما أردت الخروج إليك أشهدت كافة أهل بيتى على أنى فى ذمة ابن رسول ثم فى ذمتك . فقلت له هالك واكرمته وأحسنت إليه ، وجرى على ذلك النمط أربعة نفر يؤدون أنفسهم إلى ، ثم لم يرفع أحد رأسه من أهل حضرموت بعد ذلك

وكانت مدينة الهجرين قد خضعت لبنى رسول قبل فتح ظفار ، فقد هاجمتها الكتيبة التى قدمت من صنعاء مارة بداخل حضرموت ، ثم سلمتها بعد الاستيلاء عليها لابن شماخ النهدى الذى سبقت الاشارة إلى أنه من الموالين لبنى رسول .

أوقاف الحبوظى

تحكى عن الأمير سالم بن ادريس الحبوظى أحاديث غريبة جداً عن ولعه بالصدقات ورغبته الشديدة فى أن لا ينافسه فى كثرة ما ينفق أحد . وبصرف النظر عما يمكن أن تحمل هذه الأخبار من مبالغات فانها تدل على أن الرجل كان يحمل نفسا كبيرة وقلبا عطوفا على الفقراء

والمحتاجين وذوى الحاجة ، والدليل الخالد الباقى إلى الآن على هذه الخلال الحميدة هو هذه الأوقاف الكثيرة التى تصدق بها السلطان الحبوظى من أراضى زراعية واسعة ونخيل فى مقاطعات وادى عمد وحريضه وهين وحوره والهجرين ودوعن ورخيه وغيرها ، وتقدر قيمة هذه الأوقاف بعشرات الآلاف تصرف غلتها على المحتاجين من الغرباء والمنقطعين وأبناء السبيل ولا تزال هذه المكرمة الخالدة إلى الآن معروفة بين الحضارم بصدقة الحبوظى .

ومن المؤسف أن هذه الأوقاف الواسعة ليس لها إدارة موحدة للإشراف عليها وتنظيم استغلالها والانتفاع بها فى وجوه البر ، وحبذا لو فكرت الحكومة فى حماية هذه الأوقاف وحفظها .

بداية السلطنة الكثيرية

بعد قتل الحبوظى فى ظفار تثبت آل كثير بما فى أيديهم من البلدان التى كانوا يحكمونها باسم الحبوظى ، وضاعفوا من جهودهم فى التقرب إلى رجال الدين وكسب مودتهم ، وكان الشيخ محمد بن عمر باعباد الذى أسس الغرفة سنة ٧٠١ هـ وابنه عبد الله القديم فى مقدمة الذين لا يقصرون فى نصرة آل كثير وتنشيطهم وترويج مشروعهم بين الدهماء ، علاوة على ما يقوم به العلويون من الجهة الأخرى من حسن الدعاية وتمهيد السبيل .

وأصبحت أغلبية قرى السليل خاضعة للنفوذ الكثيرى فى بداية القرن الثامن ، ما عدا قرية بور فقد رفضت قبيلة آل بانجار تسليمها ولم تفلح الوساطات الكثيرة للوصول إلى حل سلمى فهجم آل كثير عليها واحتلوها بعد أن قتلوا جماعة من آل بانجار سنة ٧٢٣ هـ ، وما انصرم القرن الثامن حتى كانت الدعاية لآل كثير قد خطت خطوات واسعة وأصوات المعارضين من طلاب السلطة خافتة ، وأخذ رؤساء آل كثير يتقربون إلى العلماء وأهل الفضل ويقبلون شفاعاتهم حتى تمنى كثير من الناس أن تشملهم رعاية السلطة الكثيرية .

وفى سنة ٨١٤ هـ غادر على بن عمر بن جعفر بن بدر بن محمد بن على بن عمر بن كثير بلدة

بور مسقط رأسه ، واتصل بالشيخ على بن عمر باعباد وغيره من رجال الصلاح ، وكانوا يعدونه بالاستيلاء على ظفار وجميع بلدان حضرموت فتشجع على بن عمر بذلك وشرع يذلل العقبات ويزحزح الحواجز ويحارب ويغزو حتى استتب له الأمر واستحق لقب سلطان ، وهو لذلك أول من نصب سلطانا على حضرموت من آل كثير التى كانت إلى عهده متفرقة بين ولاة كثيرين ، وهو أول من حول القبيلة الكثيرية إلى دولة منظمة .

وتوفى السلطان على بن عمر سنة ٨٢٥ هـ بعد أن دانت له ظفار وشبام وكثير من مدن الوادى وقراه ، وبعد ان أمضى أكثر حياته فى قمع الحركات المعادية وإخضاع الثوار . وقد بقيت ظفار فى يد الدولة الكثيرية الأولى إلى أن أفل نجمها منها سنة ١١٣٠ هـ

وهكذا برزت السلطنة الكثيرية إلى الوجود بعد محاولات وتمهيدات وتضحيات . وسنرى فى تراجم الشخصيات الكثيرية الآتية ما مر بهذه الدولة من تطورات وتقلبات وما صاحبها من حوادث وتغيرات .

(٨)

عبد الله بن عبد الرحمن باوزير

فى عاصمة الرشيد — الرحيل عن العراق — هجرة آل الوزير — الشيرازى الحضرمى
أبو بكر بن محمد — صاحب الترجمة — ابنه عمر — مؤسس غيل باوزير
عبد الرحيم صاحب الطرائق

فى عاصمة الرشيد

العلامة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن باوزير أحد الرجال البارزين من أسرة حضرمية كبيرة لها تاريخها المجيد وآثارها الواضحة فى ما جريات الأحوال فى البلاد الحضرمية فى مختلف العهود . ولهذه الأسرة الكبيرة قصة تبتدئ فى بغداد عاصمة الخلفاء من بنى العباس، وتتوالى وقائعها وحوادثها مسرعة فى البصرة والكوفة وبلاد فارس وخراسان وتركستان ، ثم فى مكة والمدينة المنورة وجُدَّة من أرض الحجاز ، حتى إذا كان الجزء الأخير والخاص منها بحضرموت أخذت وقائع القصة وحوادثها تسير فى بطء وفى شىء من الاسهاب والتفصيل يصرفنا عنه ضيق المقام

فى نهاية القرن الخامس الهجرى أو بداية السادس ولد فى بغداد يعقوب بن يوسف بن على بن طراد ، ومات أبوه يوسف وهو طفل لم يبلغ الحلم ، فكفله جده على بن طراد نقيب العباسيين ووزير الخليفتين المسترشد والمقتفى ، وأشرف على تربيته وتعليمه حتى نال حظا كبيراً من العلم والمعرفة ، وكان من بين أساتذته أبو الفتوح الغزالى أخو حجة الاسلام صاحب الإحياء والامام السهروردى وأحمد الرفاعى وغيرهم من كبار رجال العلم والتصوف

ثم اذن له جده فى السفر إلى البصرة والكوفة والحجاز فأخذ عن علمائها وعاد إلى العراق مقيما فى بغداد الجديدة للتدريس ونشر العلم مبتعدا عن قصور الخلفاء والوزراء ، ناقما على ما آلت إليه الخلافة من ضعف وفساد وتزعزع واضطراب ، واشتدت نقمته وتضاعف قلقه وتبرمه

بالحالة عندما قبض الخليفة المسترشد على جَدِّه وأودعه السجن فرحل إلى بغداد القديمة واختفى هناك ، ولما عاد جدّه وقبل وزارة الخليفة المقتفى سنة ٥٣١ هـ أتى إليه ووعظه وحذّره عاقبة الاتصال بالخلفاء المسلوبى الارادة المشتغلين بملذاتهم عن مهامّ الخلافة وواجباتها ، فلم يلتفت اليه فتركه وشأنه ، وقد صح ما توقعه حفيد الوزير الكبير فتغير المقتفى على جدّه وهمّ بالقبض عليه فاحتمى منه فى دار السلطان مسعود ثم لزم داره إلى أن مات سنة ٥٣٨ هـ

الرحيل عن العراق

وضاق يعقوب ذرعا ببغداد بعد وفاة جده ولم يستطع صبراً على الاقامة بها ، واتفق مع أبنائه الثلاثة على الرحيل عنها فسار ابنه عمر إلى بخارى من أرض تركستان ، وتوجه عبد الله إلى شيراز قصبة فارس حيث تزوج بكريمة أحد العباسيين هناك فأنجبت له ابنه سالما ، أما هو فقد سافر الى خراسان ومعه ابنه الثالث يوسف ، ولكنهم عاودهم الحنين إلى العراق بعد سنوات قضوها فى بلاد الأعاجم فعادوا إلى وطنهم سنة ٥٤٩ هـ

ولم تكد تستقر أقدامهم فى بغداد حتى أدركوا أنه لن يطيب لهم المقام فى بلد اضطرب فيه الأمن واختلّت فيه شؤن الحكم وتكاثرت فيه الفتن فصمموا على الهجرة ، ويقال بأن بعض أصدقائهم أشار عليهم بالهجرة إلى أطراف اليمن ومن بينهم العلامة الكبير الشيخ عبد القادر الجيلانى أحد كبار رجال التصوف فى ذلك العهد ، فقد قال لهم : ان أطراف اليمن أسلم للدين وأبعد عن الفتنة وأخفّ للمعيشة .

هجرة آل الوزير

كذلك كان يعرف أهل هذا البيت بآل الوزير ، فقد كان رئيس هذه الأسرة على بن طراد وزير الخليفتين المسترشد والمقتفى ، قال الهمدانى : لم يل الوزارة عباسى سواه ، وقال ابن كثير : لا يعرف أحد من العباسيين باشر الوزارة غيره ، وقال الذهبى : كان صدرا مهيبا نبيلا كامل السؤدد ، دقيق الفهم ، بعيد النظر ، ذا رأى وإقدام ، فمن أجل ذلك دعيت هذه الأسرة بآل الوزير كما هو ظاهر .

هاجر آل الوزير من بغداد خفية متسترين قاصدين الحجاز لأداء فريضة الحج ، فلما قضوا مناسكهم وزاروا المدينة المنورة اتجهوا إلى جُدَّه حيث ركبوا سفينة شراعية كانت مسافرة إلى بلدان المحيط الهندى وبحر العرب ، وشعر شيخ الأسرة يعقوب بن يوسف وهو فى البحر بانحراف فى صحته لازمه واشتدّ به حتى حاذت السفينة ساحل حضرموت فاختار أن ينزل فى المكلا بجانب الكثيب الأبيض ، وكانت قرية صغيرة لا توجد بها سوى أكواخ الصيادين المقيمين بها .

وأحس الشيخ بدنو أجله فجمع أبناءه الثلاثة وحفيده سالما وتحدث اليهم طويلا وأوصاهم بالتمسك بالتقوى والزهد والاجتهاد فى طلب العلم ونشره والصبر على المشقات فى الحياة ولزوم الاستقامة ، وحذرهم من الكسل والكبر والعجب وطلب الشهرة ، ثم أدركته الوفاة فقضى نحبه سنة ٥٥٣ هـ ودفن فى الكثيب المعروف الآن فى العاصمة بتربة يعقوب وضريحه مشهور يقصد بالزيارة حتى الآن وعليه قبة مرتفعة .

ولم تكن المكلا فى ذلك العهد بدار اقامة لمثل آل الوزير فارتحلوا عنها إلى الشحر ، وكانت إذ ذاك أكبر وأصلح مدينة على الساحل ، فأقاموا بها واستوطنوها وتصدوا فيها للتدريس ونشر العلم ونفع الناس ، فالتفّ حولهم الأهالى وأكرموا نزلهم لما عرفوا به من كرم الاخلاق وحسن السيرة .

وبينما كان يوسف بن يعقوب فى أرض حجر يعلّم الناس ويدعوهم إلى الله أدركته المنية فمات وقبر هناك . ومات أخوه عمر بعد برهة وجيزة فدفن بالخور غربى مدينة الشحر ، واعتصم أخوهما عبد الله بالصبر لفقدهما ووجد فى الانصراف إلى تربية ابنه سالم والاشتغال بتعليمه بعض السلوى عن فراق أخويه وعما كان يشعر به من آلام الغربة

الشيرازى الحضرمى

قلنا إن عبد الله بن يعقوب عندما كان بشيراز من أرض فارس تزوج كريمة أحد أبناء عمومته من العباسيين ورزق منها بولد هو سالم بن عبد الله الذى قضت الأقدار بأن يولد فى

شيراز من عائلة بغدادية ثم يقضى شبابه وبقية حياته لا فى العراق ولا فى بلاد فارس ولكن فى حضرموت موطن عاد وبلاد حمير وكندة

أتم سالم بن عبد الله تعليمه فى الشحر تحت إشراف والده ، ثم أخذ يتنقل باشارة منه بين البادية يعلمهم ويصلح ذات بينهم ، وقد دفعه اختلاطه بالبدو إلى أن يتزوج بنت أحد رؤسائهم فى قرية (عرف) وهى جميلة بنت أحمد بن على رئيس قبيلة المسيليين التى لم تلبث أن أنجبت له محمد بن سالم الجد الأعلى لآل باوزير المعروف الآن بمولى عرف لأنه عاش ودفن هناك .

ومحمد — مولى عرف — هذا هو الوارث الوحيد فى حضرموت لأسرة آل الوزير المهاجرة من العراق والعباسى الأول الذى ولد بحضرموت من هذه العائلة ، فقد توفى أخوا جده يوسف وعمر دون عقب وتوفى جده عبد الله بالشحر عن والده سالم فقط الذى مات بالجويب الواقعة بالقرب من حورة ولذلك اعتبر محمد بن سالم الجد الأول لآل باوزير وكان أحد كبار رجال التصوف فى القرن السابع الهجرى ومن أقران الفقيه المقدم محمد بن على باعلوى والشيخ سعيد بن عيسى العمودى وله بهما صلة وثيقة . وقد توفى عن ثلاثة من الولد هم أبو بكر وسعيد وعمر وهذا الأخير هو والد الشيخ عبد الرحيم بن عمر مؤسس مدينة غيل باوزير

وقد رأيت فى رسالة خطية قديمة لدى أحد المشايخ فى حورة أن من بين أساتذة الشيخ محمد بن سالم مولى عرف العلامة الامام محمد بن على صاحب مرباط والشيخ أحمد الهدهدى والشيخ أحمد البطين والعلامة الفقيه محمد بن اسماعيل الحضرمى بزبيد فى جملة من علماء اليمن ، كما أخذ عن والده سالم وجده عبد الله بن يعقوب

أما من أخذ عن الشيخ محمد بن سالم فقد ذكرت منهم هذه الرسالة : الشيخ على بن سالم الحضرمى والامام الفقيه العلامة محمد بن أحمد بن يحيى بن أبى الحب التريمى والشيخ سعد بن على الظفارى والفقيه المقدم محمد بن علوى باعلوى والشيخ سفيان اليمنى والشيخ أحمد بن الجعد والشيخ سعيد بن عيسى العمودى والشيخ سعيد بن عمر بلحاف والشيخ عبد الله بن محمد باعباد وغيرهم

وتقول هذه الرسالة ان الشيخ محمد بن سالم تزوج فى حورة بنت استاذه العلامة الشيخ أحمد البطين بامزاحم باجابر فولدت له ابنه أبا بكر ، أما ولداه الآخران فهما من زوجة أخرى

أبو بكر بن محمد

ولد ونشا فى حورة بين أخواله آل باجابر ودرس على أبيه محمد بن سالم ـ مولى عرف ـ علوم الشريعة والطريقة ، ثم سار الى اليمن واجتمع بمشايخ كثيرين منهم الشيخ محمد بن حسين البجلى والشيخ محمد بن أبى بكر الحكمى وله معهما الصحبة الاكيدة والأخوة الرشيدة ، وذهب إلى مكة والمدينة لأداء فريضة الحج والزيارة ، ثم لطلب العلم والاجتماع بالعلماء ، وقيل إنه بقى يتردد بين الحرمين الشريفين للدراسة ما يقرب من أربع وثلاثين سنة حتى أخذ من جميع العلوم بالحظ الأوفى

ولما عاد إلى وطنه ومسقط رأسه حُوْرَة عكف على العبادة ونشر العلم والتدريس والتذكير بالله والدعوة الى الله ، وأقبل الناس على الاستفادة منه حتى تخرج على يديه وانتفع به خلق كثير وكان الى جانب نشاطه الدينى والثقافى ذا بسطة فى الجاه والمال استغلها فى الاحسان إلى الفقراء ومساعدة المحتاجين وإكرام الضعيف وصلة الأرحام ، وقد اشترى الأطيان الواسعة والنخيل والبيوت وحفر الآبار لينتفع بمائها الناس وبنى مسجده المعروف الذى هو الآن جامع حورة ثم تصدق بجميع ما يملكه من عقار وقفا مؤبدا بعضه على مصالح المسجد والبعض الآخر للضيافة واصلاح الآبار ، فكان كل غريب ينزل بحورة يجد من وقف الشيخ أبى بكر نُزُلاً يأويه وطعاما يقدم اليه فى وجبات محدودة ، ولا تزال هذه الأوقاف موجودة حتى الآن وان كانت فى حاجة إلى مزيد من الحفظ والعناية

ولما كلمه أخواله آل باجابر فى ذلك قائلين له : كيف تصدقت بجميع مالك ؟ أتريد أن تترك ورثتك عالة على الناس ، هلا تركت لهم ما يكفيهم . قال : تركت لهم (نشر المال وفخذ النخل وقسمهم من العطب يكفيهم ستر العورة) وقال هذا يكفيهم إذا اتقوا الله وصدقوا فى معاملته

وكان الشيخ أبو بكر يحتفظ بمكتبة كبيرة عامرة بالكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وقد احتفظ بها وزاد عليها ابنه عبد الرحمن وأحفاده من بعده ، وكان عبد الرحمن بن أبى بكر هذا قوى الذاكرة سريع الحفظ ، فكان يحفظ المحرر للرافعى وكثيراً من كتب الحديث ، وله مشاركة فى علوم الأدب والتفسير والمنطق حتى قيل ان والده قال عنه : لو عاش عبد الرحمن طويلا لكان مجدّدا للمذهب ، فمات رحمه الله فى حياة والده وكانت زوجته حاملا فوضعت بعد وفاته ولدا ذكرا سماه والده عبد الرحمن بن عبد الرحمن ، وهو والد صاحب الترجمة الذى عقدنا هذا الفصل لذكر جانب من سيرته وتاريخه

صاحب الترجمة

هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سالم . ولد بحورة ولم أقف على تاريخ ولادته ولكن من المؤكد أنه عاش فى أول القرن التاسع الهجرى وآخر القرن الثامن ، فقد ثبت أنه لزم وصحب كثيرا من العلماء كلهم عاشوا فى هذين القرنين . بدأ دراسته الدينية واللغوية فى حورة على والده وأعمامه ، ثم رحل للاستزادة من العلم الى اليمن والحرمين الشريفين حيث لقى وأخذ عن جماعة كبيرة من مشاهير علماء اليمن والحجاز كما أخذ عن عدد من أقطاب الثقافة الاسلامية فى العالم العربى ممن يردون الى الحجاز أثناء موسم الحج

وتذكر الرسالة التى اعتمدت عليها فى بعض معلومات هذه الترجمة من اساتذة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن فى الحجاز الامام عبد الله بن أسعد اليافعى اليمنى ثم المكى والامام المربى جمال الدين محمد بن سعيد كبن الطبرى القرشى والشيخ محمد بن ابراهيم بن أحمد بن عبد الوهاب وأخيه عبد الواحد وفقيه المدينة ومحدثها أبو بكر المراغى وحافظ مكة الامام محمد بن ظهيرة كما تذكر منهم الشهاب ابن العربى وتاج الدين السبكى والجلال البلقينى والجلال الاسنوى وذلك فى زمن الحج وكذلك العلامة تقى الدين الحصنى شارح أبى شجاع والشمس البرماوى والامام أحمد بن العماد والشيخ الكازرونى عالم المدينة وغير هؤلاء من العلماء الأعلام

أما من أخذ عنهم من علماء اليمن فمنهم شرف الدين بن الصيف اليمنى وشرف الدين المقرى

صاحب عنوان الشرف وجمال الدين الناشرى والعلامة مسعود بن سعد باشكيل وغيرهم .
وللشيخ عبد الله بن عبد الرحمن ـ صاحب الترجمة ـ رسالة جمع فيها مشايخه الذين أخذ عنهم وأسانيد إجازاتهم له المتصلة بالامام الشافعى وتلميذيه المزنى والربيع كما جمع فيها أسانيد مشايخه فى علم الحديث المتصلة برسول الله ﷺ

وقد كانت رحلاته الكثيرة الى الخارج لطلب العلم ولقاء العلماء وقراآته العديدة فى مختلف العلوم والفنون وتوفر الكتب لديه فى مكتبة أجداده بحورة كل ذلك كان من بين الأسباب لغزارة علمه وتوسيع أفقه الثقافى ومشاركته فى علوم الشريعة والأدب والتاريخ واللغة والمنطق وغيرها ، وقد ذكرت الرسالة التى أشرت اليها سابقا مجموعة كبيرة من الكتب التى قرأها صاحب الترجمة فى مقدمتها كتب الأئمة أبى إسحق والرافعى والنووى والغزالى والسهروردى فى الفقه والتصوف كما ذكرت طائفة أخرى من كتب التفسير والحديث لا حاجة لذكرها هنا

ولما عاد الى حورة من رحلاته العلميّة تفرغ لنشر العلم والتذكير بالله والاتصال بعلماء القطر الحضرمى وصالحيه ، وكانت له زيارات متعددة إلى تريم والشحر وغيل باوزير وغيرها من مدن البلاد الحضرمية وقراها ، وكانت له صلة صهارة بالعلامة الكبير السيد عمر المحضار ابن عبد الرحمن السقاف ، فقد تزوج المحضار أخت صاحب الترجمة فاطمة بنت عبد الرحمن وعاش معها فى تريم ، كما كان صاحب الترجمة على صلة وثيقة بالعلامة الامام عبد الله بن أبى بكر العيدروس وكان كثير الأعجاب به والتقدير له وله فى مناقبه كتاب سماه تحفة النفوس فى مناقب العيدروس ، وقد أشار صاحب المشرع الروى فى مناقب السادة آل باعلوى إلى هذه الصلة بين العيدروس والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن فقال ما نصه بالحرف الواحد : ـ وكان الامام العارف بالله محمد بن على صاحب عيديد وتاج العابدين سعد بن على والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن باوزير مع الاتفاق على جلالة قدرهم وعلو منصبهم ممن لازم صحبته وأخذ عنه طريقته ـ انتهى ، أما السيد على بن أبى بكر السكران فقد عدّه من بين مشايخه وذكر اجازته له سنة ٨٤٣ هـ

وقد ذكر الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن فى كتابه تحفة النفوس أن الشيخ عبد الله بن أبى بكر العيدروس قدم الى حورة وهو أى العيدروس إذ ذاك صغير السن (لان العيدروس ولد سنة ٨١١ هـ) فنزل ضيفا عليه ، وقال ان السيد العيدروس قرأ عليه عدة كتب وطلب منه عقد الصحبة والمواخاة على طريقة أهل التصوف من السلف فأجابه إلى ذلك .

ابنه عمر

وقد توفى الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بعد حياة كريمة مليئة بالشرف والفضل وكرم الأخلاق ونشر العلم والاحسان إلى الناس والدعوة إلى الله وترك عدة أولاد أشهرهم وأجلهم ابنه عمر بن عبد الله الذى سماه والده بهذا الاسم باشارة من السيد عمر المحضار ، ونحن ننقل هنا بتصرف من الترجمة التى أوردتها له الرسالة المشار اليها آنفا ما يكفى فى التعريف به ، قالت : —

ولد بحورة ونشأ بها وتعلم القرآن مع المعلم محمد باصادق ، ثم حفظه وأتقنه على القراآت السبع تحت ارشاد والده وجماعة من الصلحاء والحفاظ ، حتى كان يقال له المقرىء ، ودرس علوم الشريعة على والده وأعمامه وغيرهم من كبار العلماء العارفين

فقرأ على والده المنهاج للنووى والتنبيه لأبى اسحق والعمدة لابن النقيب والمحرر للرافعى وجملة رسائل فى علم التصوف ، كما قرأ على والده أيضا كتاب الاحياء للامام حجة الاسلام الغزالى وعوارف المعارف للسهروردى وقوت القلوب لأبى طالب المكى ، وقرأ الاحياء أيضا على السيد عبد الرحمن بن أبى بكر العيدروس وعلى السيد عمر المحضار منهاج العابدين للغزالى ، والمقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وكيمياء السعادة للغزالى أيضا ، وعلى السيد أبى بكر ابن عبد الرحمن السقاف بداية الهداية ، وقرأ رسالة القشيرى على الشيخ فارس باقيس وعلى السيد عبد الله بن أبى بكر العيدروس جملة رسائل فى علوم الطريقة والحقيقة ، وقد أجازه الجميع فى العلوم والاذكار وأذنوا له بالتدريس والافتاء ، وكان كثير المطالعة فى كتب التفسير والحديث ، وان كان جل مطالعته فى كتب التصوف والرقائق

وكان الشيخ عمر من أكثر الناس احتمالا وأشدهم صبرا وأحسنهم صفحا وأوسعهم صدرا ، ان قطع وصل وان ظلم عدل وان نصح فبالتى هى أحسن وان وعظ أبكى وأحزن ، وقد ابتلى بكثير من الحساد فصبر على أذاهم ، وفى ذلك يقول تلميذه العلامة الشاعر الصوفى الكبير الشيخ عمر بامخرمة فى مطلع قصيدة مثبتة فى ديوانه المخطوط :-

باوزير ان جفى جافى وجا منه أجناف الى آخرها

وفى مطلع قصيدة أخرى :-

باوزير ان رماك العوف بالجور واحنف

وفى هاتين القصيدتين يشير الشيخ عمر بامخرمة إلى ما لقى الشيخ عمر باوزير من عداوة الحساد وصبره عليهم ، وقد عده الشيخ عمر بامخرمة من كبار مشايخه الذين اعتمد عليهم فى الطريق الى الله ، وكانوا أربعة من المشهورين بالتقوى والولاية ذكر ثلاثة منهم فى إحدى قصائده وقال عن الرابع :-

والرابع هو قال لى لا تظهر اسمى

يعنى بذلك الشيخ عمر بن عبد الله باوزير

وكان من أبرز أخلاقه الحميدة الكرم والسخاء ، فكان يعطى الجزل ويداوم على البذل وينفق فى جميع أوجه البر وخصوصا فى الأوقات الفاضلة كرمضان والأعياد الدينية وأوقات المجاعة والإسنات ، ويخص الفقراء والايتام والأرامل والأرحام بمزيد من العناية ، وربما وردت اليه أموال كثيرة فيأتى المساء وليس له منها العشاء

روى خادمه أحمد بن صالح بازياد قال جئت أنا ووالدى ذات يوم قاصدين الشيخ عمر فى وقت مجاعة والحبوب غير موجودة فوجدنا بيته غاصا بالضيوف والزوار وقلت لوالدى الاولى أن نعود فان بيت الشيخ مزدحم (والوقت حان والطعام غير موجود) وبقيت أحسن لوالدى الرجوع ونحن فى أشد الفاقة ، فاذا بسيدى عمر يدعونا للدخول ويقول : تعالوا احضروا مجلس المحبين ، وما عليكم من باقى الأمور فهى صالحة ، فدخلنا عليه وهو يتحدث

مع أضيافه فرحا مستبشرا ، فقلت فى نفسى : سبحان الله ، الشيخ فى مثل هذه الأوقات الحرجة يضحك وأنا عالم بحاله . فأنشدنا : ـ

لا يرفع الضيف رأسا فى منازلنا إلا إلى ضاحك منا ومبتسم

فقلت زدنى يا سيدى . فقال : أما سمعت قول الشاعر ؟ قلت وماذا قال ؟ قال سأكتب لك فى قرطاس حتى لا يسمع أحد ، فكتب : ـ

أضاحك ضيفى قبل أنزال رحله ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للاضياف أن تكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

ولم نلبث كثيرا حتى قدم الأكل وهو من البر والذرة والرز واللحم فأكلنا مع الأضياف حتى شبعوا وشبعنا ، ثم قلت للشيخ : ليس المحل جديبا ، ولكنه خصيب ووجهك أخصب منه ، فقال : الحمد لله الذى تفضل على عباده بالنعم وأراد منهم الشكر ، ثم تكلم حتى بكى وأبكى . انتهى

وكان الشيخ عمر ذا جاه واسع لدى كثير من قبائل الجهة الحضرمية ، وكلمة نافذة عند عاهل حضرموت الكبير فى القرن العاشر الهجرى السلطان بدر أبى طويرق الكثيرى ، وقد حدث سنة ٩٣٧ هـ أن جملة فخائذ من بنى هلال فى مدينة هينن ومصنعتها المسماة (فرحة) يقال لهم آل النمر وآل فشر وآل باقار وآل العمرى وغيرهم ، ومن مذحج ونهد ، كانوا ينهبون رعايا السلطان أبى طويرق ويتحرشون به فغزاهم أبو طويرق بجيش كبير قوامه ألف جندى من الخيالة والهجانة والرجالة ودامت الحرب مدة انتهت بهزيمة أعداء السلطان وانكسارهم ، فالتجأوا إلى الشيخ عمر بن عبد الله وطلبوا منه ان يتوسط لدى أبى طويرق فى عقد معاهدة بينه وبينهم يعلنون فيها طاعتهم له على أن يبقيهم فى محلاتهم ومنطقتهم

واتصل الشيخ عمر بالسلطان فوافق على أعطائهم الأمان ، ولكنه رأى أن بقاءهم مجتمعين فى محل واحد خطر يهدد كيان السلطنة الكثيرية ، وعرض على الشيخ عمر أن يقنعهم بوجوب التفرق من هينن الى محلات أخرى فقبلوا ، وتم الصلح على ذلك

وأراد السلطان أبو طويرق أن يكافىء الشيخ عمر على صنيعه هذا ومجهوداته فى هذا السبيل مكافأة مادية فرفض وطلب من السلطان أن يأمر برفع جميع العشرات الحكومية عنه ، ان لا تؤخذ منه زكاة ، بل يتولى توزيعها هو بنفسه ، وان تقبل شفاعته هو وأولاده فى كل من يحبس فى مصنعة هينن فأجابه السلطان إلى ذلك وكتب له وثيقة بما طلب هذا نصها :ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ . أما بعد فليعلم الواقف على هذه الرقمة المحررة بأن سيدى ومولاى وملاذى وملجأى وعمادى الشيخ الأجل الفاضل الولى الكامل العالم العامل الشيخ عمر ابن الشيخ الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن ابن الشيخ الكبير أبى بكر بن محمد بن سالم باوزير مجللا ومكرما ومحشما ومعظما ومجبرا فى جميع أملاكنا بحراً وبراً هو وأولاده وذريته من يومنا هذا إلى يوم الدين ، ليس عليهم عشر ولا زكاة ولا شىء من القوانين التى للديوان فى طالع ونازل من البحر والبر ، ولا يفرق عليهم الفارق ولا يحرسهم الحارس ولا يطوف عليهم الطائف ، بل مجبرين فى جميع أملاكنا بحراً وبراً من كل ما هو للديوان من القوانين والقواعد المعتادة ، وكذلك لهم الشفع فى كل من حبس فى مصنعة هينن شفاعتهم غير مردودة ، ومن تعدى أو خالف جميع ما ذكر فلا يلوم إلا نفسه ، ولا ينال إلا خسره وبخسه . قال ذلك وأملاه وأقر به الفقير إلى الله

بدر بن عبد الله بن جعفر الكثيرى

والله الشاهد على ما أقول والحسيب . وكتبه بيده

وفى هذه الوثيقة توقيعات سبعة من الشهود هم عمر بن عبد الله بامخرمة وعبد الصمد باكثير وأحمد بن عبد الله باكثير وأحمد بن سهل بن إسحق ومحسون بن عامر بن إسحق وعبد الله بن أحمد باجبير وأحمد بن ليث باجابر

وللشيخ عمر شعر شيق يكتبه باللغة الدارجة القريبة من الفصحى ، منه هذه الأبيات من

قصيدة طويلة قالها بمناسبة تجمّع والى المخيبق على بن ظفر وأهل السور والمقاريم والظلفان لمعارضته فى عمارة ضمير[1] حورة ، وقد انتصر للشيخ عمر أتباعه من نهد ونشبت معركة حربية بين الفريقين انتصر فيها أتباع الشيخ عمر وفى ذلك يقول : ـ

ويوم قمنـــا فى الوادى جاروا علينـا فى الطغيـان
أهل المخيبق وأهـل السور بالنهـب والسلب باللصـان
وخوفوا من سكن حـوره جميعهـم وأرضـوا الشيطان
العـدن من بطلهم شـارب ونخـل حوره بقى عطشان
على بن ظفر قام وأصحابه رماهم الله بالخـــذلان

إلى ان قال : ـ

وأولاد عامر معى قامـوا بصـدق نيـه بنو قحطان
ثابت ومسعر وبن مسعر وبن مزعزع أبو الحـكمان
وآل الطويل الذى طـالوا هم وآل عبـد الله الغلمان
وأصحابهم آل بن مـدرك والرأس ثابت أبو روضان
وآل عجاج قد سعـــدوا صبيانهم هم ويا الشبـــان
قاموا معى صـدق بالنيـه جميعهـــم بالهنا فرحان

مؤسس غيل باوزير

عرضنا فيما سبق لجانب من تاريخ بعض أحفاد الشيخ أبى بكر بن محمد سكان حورة ونريد أن نذكر فى ختام هذا الفصل التاريخى عن آل باوزير موجزا عن تاريخ أخويه سعيد بن محمد وعمر بن محمد وأبنائهما

---

(١) الضمير فى عرف أهل حضرموت الـد يقام فى مجرى السيل للتحكم فيـه وتحويل الماء الى الأرض التى يراد سقيها

توفى الشيخ سعيد بن محمد بحورة عن سبعة أبناء أشهرهم محمد بن سعيد جد أهل النقعة الساحلية وقبره فى غيل باوزير ، وله ولد يدعى أحمد بن محمد وهو أول من قبر بالنقعة وانتشرت ذريته بها ولهم فيها صدقات وأوقاف للضيافة ومصالح المسجد الجامع الذى بنى على طريقة غربية لم يحتج معها إلى الاستعانة بالأخشاب فى سقفه ، وتوجد لديهم مخطوطات قديمة بعضها لا يزال موجودا حتى الآن . ومن أشهر أحفاد الشيخ سعيد بن محمد مولى عرف العلامة المحسن الكبير الشيخ عبد الرحيم بن عبد الله بن سعيد صاحب ساه ومؤسس المسجد الجامع بها وصاحب الصدقات وأوقاف الضيافة العامة فى هذه المنطقة . وله ذرية بساه يقال لهم آل الشيخ

أما عمر بن محمد فهو الذى بنى الغيل الأسفل سنة ٦٥٦ هـ ، والتى تعرف الآن بغيل عمر ومؤسس المسجد فيها ، وقد لزم وصحب الاستاذ الكبير عبد الله باعلوى ابن الفقيه المقدم ، ويعتبر من أخص مشايخه ، وكانت وفاته بالغيل الأسفل سنة ٧١٢ هـ وهو والد العلامة الامام الفقيه الشيخ عبد الرحيم بن عمر مؤسس مدينة غيل باوزير المشهورة ، والذى كان من أبنائه وأحفاده جماعة كبيرة عرفت بالعلم والفضل والصلاح

وتقول المصادر التى بين أيدينا ان الشيخ عبد الرحيم بن عمر قدم إلى الساحل سنة ٧٠٦ هـ باحثا عن المنطقة الصالحة للاقامة له ولعقبه من بعده ، فوقع اختياره على البقعة التى تدعى الآن بغيل باوزير ، وقد بنى بها أول منزل لسكناه غربى مسجده الجامع المشهور ، ثم حفر فى الناحية الشمالية للمسجد غير بعيد منه أشهر العيون بها ، والتى كانت ولا تزال تروى مساحات واسعة من النخيل والأراضى المزروعة جنوب مدينة الغيل ، وتجمعت لديه ثروة مكنته من أن يشترى عقارات وأطيانا واسعة فى الخربة والبقرين وغيرها من ضواحى المكلا تصدق بها جميعا ، مع أكثر ما يملك فى الغيل كوقف دائم تصرف غلته فى مصالح المسجد والضيافة وتوزع منه فى مناسبات دينية وأعياد خاصة صدقات على الطريقة التى اشترطها هو ، وقد أضاف أبناؤه من بعده أوقافا إلى هذا الوقف حتى أصبح الآن يقدر محصوله بما لا يقل عن خمسة عشر ألف شلن سنويا .

ولم يكن نشاطه فى الناحية الثقافية بأقل من نشاطه فى جانب الاقتصاد ، فقد بنى مدرسة لأبنائه وأحفاده وغيرهم من طلاب العلم ، واستقدم لها المدرسين الأكفاء ، وأرسل أبناءه للاستزادة من العلم ، فرحلوا إلى اليمن والحجاز للقاء العلماء والأخذ عنهم حتى عرف كثير من أبنائه وأحفاده بسعة العلم وكثرة الاطلاع وحب الخير والتفانى فى منفعة الناس ، كما كانوا ألْسِنَةَ الدعوة والارشاد فى مناطق الساحل ، ورسل السلام والإصلاح بين القبائل ، ومثال الكرم وسماحة النفس إذا نزل بهم طارق أو زائر

والواقع ان كرم الضيافة وحسن استقبال الغرباء من أشهر الصفات الخلقية الفاضلة التى امتاز بها أفراد هذه الأسرة فى ساحل حضرموت وداخلها ، فقد أعدُّوا فى أكثر المدن والقرى التى يقيمون بها بيوتا للضيافة يطعم فيها المسافر أياما معلومة وضمنوا استمرارها بأوقاف تصدقوا بها لهذا الغرض ، نذكر منها على سبيل المثل بيوت الضيافة فى غيل باوزير والقمة وبيدة الجرهيين ورحبة ابن جنيد وفى وادى عِدِم وساه وحورة ووادى العين وجعيمة وعرف وغيرها .

وانقضت أربعون عاما منذ وضع الشيخ عبد الرحيم بن عمر حجر الأساس لهذه المدينة ، كان فيها القانت العابد إذا جنّ الظلام ، والعالم العامل إذا ارتفع النهار ، لا يطغى فيها المسجد على المزرعة فيخل بشؤن دنياه ، ولا تشغله المزرعة عن المسجد فتفسد عليه أمور دينه ، وكان له فيما بين المزرعة والمسجد متسع من الوقت للاشراف على المدرسة ونشر العلم والتدريس بين العامة واستقبال ضيوفه الذين لا ينقطعون ، والاصلاح بين القبائل ، إلى غير ذلك من أوجه النشاط الاجتماعى التى كان من بينها الدعاية لاستيطان هذه المنطقة والإفراج عن المياه المخزونة فى أرضها بحفر العيون والقنوات لاستخدامها فى زراعة تربتها الخصبة ، وقد دفع لهذا الغرض ابن عمه محمد بن سعيد فحفر هو وأبناؤه عيون المقمة ووديكة وغيرها حتى صارت هذه المنطقة مروجا خضراء وجنانا عامرة بالنخيل والمزارع .

وهكذا كان للشيخ عبد الرحيم بن عمر فى الارشاد لسان ، وفى العلم باع ، وفى الاقتصاد

يدٌ ، وفى العبادة قدم حتى وافاه أجله فى منتصف شعبان سنة ٧٤٧ هـ ، ودفن خارج مسجده بجانب الجدار الشرقى (داخل المسجد الآن) ، وترك من الأولاد ثلاثة هم : سعيد وعثمان وأحمد ينتمى اليهم كل أفراد آل باوزير السكان فى الغيل

عبد الرحيم صاحب الطرائق

للشيخ سعيد بن عبد الرحيم ولدان هما عمر بن سعيد وهو جد آل بن طاهر الموجودين الآن فى الغيل ، وعبد الرحيم بن سعيد ، ولم يترك عقبا ذكرا ، وهو أحد مشاهير رجال التصوف فى القرن الثامن ، وله صلة وثيقة بالعلامة السيد عمر الحضار بن عبد الرحمن السقاف ترجمه الشرجى فى طبقاته فقال : ـ

« الشيخ الكبير عبد الرحيم بن سعيد بن عبد الرحيم بن عمر بن محمد بن سالم باوزير ، كان أفضل المشايخ المتأخرين وأكملهم تربية للمريدين ، وله فى طريق القوم معرفة تامة وكلام مشهور منه قوله : القدرة حاملة للكون والكون بما فيه مسخّر للقدرة والأمر بينهما منتظم ، وقال فى وصف القوم : إن رأيتَ مكنون سعدهم فيحبهم ويحبونه ، وان رأيت منشور مجدهم فرضى الله عنهم ورضوا عنه ، وان سألت عن مقامهم فعند مليك مقتدر ، وان أردت وصفهم فأولئك أعظم درجة عند الله ، وان أكبرت ما ظهر منهم فما تخفى صدورهم أكبر . وتوفى ليلة الثالث والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٨٢٧ هـ ودفن شرقى قبر جدّه ، وله من التصانيف والطرائق يمليها على سبيل الوارد »

وكتاب ـ الطرائق ـ هذا أثر تاريخى يعطينا صورة صحيحة عن مدى ثقافة مؤلفه ومناحى تفكيره ومبلغ تمكنه من اللغة واقتداره على الكتابة . وهى رسالة صغيرة تتألف من سبعة وعشرين فصلا يسمى كل فصل منها طريقة تتحدث فى أسلوب صوفى ومصطلحات صوفية عن طريق القوم فى الاتصال بالله عز شأنه وإخلاص العبودية له والفناء عن كل ما سواه . خذ مثلا افتتاحية الطريقة السابعة عشرة التى يقول فيها : ـ

« الحمد لله الذى ألبس قلوب أوليائه لباس التقوى فتشوقت واستبشرت ، وجلا قلوبهم

من صدى الغفلة بذكره فانصقلت وتنوّرت ، وحجب أسرارهم عن مشاهدة غيره فما حادت ولا تغيّرت ، وكشف لبصائرهم عن نور توحيده فطاشت وذهلت واستغرقت وتحيّرت ، فأرسل لها فى طىّ نسيم القرب أسرارا فاستنشقتها بأنف ذوقها فحنّت للقائه ولعهده القديم تذكرت »

وهذا مثال آخر من الطريقة الثانية : ـ

« يا أرباب الوله فى حب معشوق الأرواح ويا أصحاب الخوف فى غاية أمان العارفين ما بينكم وبين مطلوبكم سوى ارتفاع الصور وما يحجبكم عنه إلا حجاب الهياكل فطيروا اليه بأجنحة الغرام واطلبوه عند الحياة الابدية ، وموتوا عن شهوات إرادتكم ليحييكم به عنده فى مقعد صدق »

ومنها : ـ

« البراءة من الحول والقوّة إلاّ به حقيقة التوحيد ومَحْوَ كلّ ما يلوح لعين العقل محض التفريد ، وإلقاء ما فى الوجود من يد الطمع عين التجريد ، قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون »

— ٩ —

محمد بن سعيد بادجانة

إمارة الشحر ـ الأمير سعيد بادجانة ـ محمد بن سعيد ـ محاولة احتلال عدن ـ استيلاء آل طاهر على الشحر ـ بادجانة يعود إلى الشحر ـ وفاة الأمير محمد

إمارة الشحر

تعاقبت على الشحر فى تاريخها الإسلامى حكومات متعددة تستقل بالأمر فيها تارة وتخضع لملوك اليمن فيها تارة أخرى ، وقد تكون الشحر أحياناً هى عاصمة الإمارة ، بينما تكون أحياناً أخرى تابعة لإمارة تتخذ من مدن حضرموت الأخرى عاصمة لها . وقد عرفنا فى الفصل الذى تحدثنا فيه عن سالم بن إدريس الحبوظى كيف كانت هذه المدينة التاريخية والمنفذ البحرى المهم ميداناً لصراع الطامعين الطامحين من ملوك اليمن وظفار وحضرموت

وقد كانت الشحر تطلق فى القديم على المنطقة الساحلية الواقعة ما بين عمان وساحل حضرموت جميعها ، ويطلق على ساحل حضرموت خاصة (الاسماء) . أما الشحر بمعنى المدينة المعروفة اليوم ، فلا يعرف بالضبط تاريخ تأسيسها ، ولكن المنقول أن ملك اليمن من بنى رسول فى القرن السابع الهجرى وهو الملك المظفر ، جدد بناءها سنة ٦٧٠ هـ ، وكانت قبل ذلك (أخصاصاً) أى أكواخاً وبيوتاً حقيرة

وقد كان يحكم الشحر فى عهد الملك المظفر الأمير أبو محمد عبد الرحمن بن راشد بن اقبال ابن فارس بن محفوظ بن محرم بن فارس . قال عنه الجندى : كان أحد ملوك العرب دهاء وكرماً وشجاعة ، يحب الفضلاء ويخالط العلماء ، ما قصده شاعر أو غيره إلا أكرمه ، وشاعره المنقطع لمدحه أبو حنيف العدنى

تولى إمارة الشحر سنة ٦٢١ هـ وكان يؤدى الخراج لملك اليمن . ولما استولى نور الدين

الرسولى على الشحر وحضرموت ، أناب على الشحر رجلا من الغز ، وأضاف إليه نقيباً يدعى الأصبحى ، واستدعى إليه الأمير عبد الرحمن بن راشد ، فقدم عليه بهدايا قدمها إليه

ثم ان النقيب الأصبحى قتل الوالى الغزى واستقل بحكم الشحر بعد سنتين من وصولها ، فندم الرسولى على عزله عبد الرحمن بن راشد واستدعاه وخلع عليه وأمره أن يسير إلى الشحر ، فلما علم الرسولى بوصوله هرب إلى مقديشوه ، ودخلها الأمير عبد الرحمن سنة ٦٣٨ هـ فأحسن إدارتها

ولما تولى المنصور نور الدين الرسولى قدم إلى خلفه المظفر بهدايا جليلة ، من بينها قطعة كبيرة من العنبر ، فكافأه الملك المظفر مكافأة حسنة وأمّره على عمله ورده إلى الشحر ، وقد بقى حاكما عليها مرضياً عنه إلى أن أدركته الوفاة سنة ٦٦٤ هـ ودفن بالشحر ، وقد خلفه فى الإمارة ابن أخ له يدعى راشد ، فلبث حاكما بها حتى نقم عليه المظفر أشياء ، فاعتقله سنة ٦٧٠ هـ ، وأودعه سجن زبيد حتى مات ، وقرر له رزقاً معلوماً يقوم به وبأهله مدة حياته

وهكذا كانت الشحر تخضع لحكام اليمن بواسطة أمرائها من الحضارم أو بغيرهم من النواب يعينون من قبل الحاكم فى اليمن ، وكان حكام اليمن فى هذا العهد هم بنو رسول الذين امتد حكمهم فيها من سنة ٦٢٠ هـ إلى سنة ٨٥٨ حيث تلاشى أمرهم وقام بالأمر بعدهم المشايخ آل طاهر بن معوضة بن تاج الدين من بلاد رداع ، واستولوا على عدن وتهامة وبلاد تعز فى سنة ٨٥٨ هـ ، وكان أول حاكم منهم هو الملك الظافر عامر بن طاهر . أما آخر ملوكهم فهو عامر بن داود الذى حكم إلى سنة ٩٤٥ هـ

الأمير سعيد بادجانة

الأمير سعيد بن مبارك بن فارس بادجانة السكندى ، كان يحكم الشحر فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى . وكان حازماً يقظاً حليما مهاباً من جميع الناس ، وقد اهتم عقب توليه الشحر بتحسين حالتها الاقتصادية ، فبعث رسله إلى القبائل البدوية يدعوها إلى القدوم بقوافلها إلى الشحر لينافس بذلك الأسواق الحضرمية الأخرى

واستطاع الأمير سعيد أن يوطد لحكمه فى الشحر بما كان يقوم به من أعمال مجيدة أطلقت الألسنة بالثناء عليه ، فقد سار فى الناس بالعدل وساسهم بالحكمة والحزم حتى أدركته المنية ، فخلفه فى الحكم ابنه محمد بن سعيد

محمد بن سعيد

نشأ الأمير محمد بن سعيد كما ينشأ أبناء الأمراء شاعراً بشرف أصله وطيب أرومته ، وارثاً من أبيه صفات الكرم والشجاعة والتيقظ وبعد النظر والعدل وحب الخير ، وكانت أمه إحدى سيدات آل معاشر ، معروفة بالذكاء ورجاحة العقل وحسن السياسة

وبذل الأمير محمد كل مجهود لتحصين البلاد ضد الطوارىء المحتملة وتحسين حالتها التجارية وتوطيد علاقاته بالقبائل المجاورة ، آخذاً حذره من تسرب الدعاية المعادية اليهم ، فنجح فى ذلك إلى حد بعيد ، واشترى كثيراً من المراكب الشراعية لتنشيط الحركة التجارية بين الشحر وغيرها من البلدان التى لها سوابق صلات تجارية بالشحر ، وقد ساعدته الثروة التى تركها له والده على القيام بكثير من الإصلاحات ، وشجعته على التفكير فى توسيع مملكته الصغيرة الضيقة الحدود ، وكانت دولة آل رسول القوية العظيمة الشأن فى اليمن وحضرموت قد اختفت من الميدان وحلت محلها دولة آل طاهر التى لا تزال فى بداية عهدها لم يستفحل أمرها بعد

محاولة احتلال عدن

كان آل طاهر قد احتلوا عدن كما سبق فى بداية النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى كما احتلوا تهامة اليمن وبلاد تعز ، وكانت أحوال عدن خاصة فى بداية حكمهم من الاضطراب والاختلال بحيث تشجع أولى المطامح فى الاستيلاء عليها ، أضف إلى ذلك أن جماعة من آل كلد اليافعيين قدموا إلى الشحر أثر الخصومة والحرب التى حدثت بينهم وبين إخوانهم من آل أحمد فى عدن بسبب التنافس بينهم على النفوذ فيها ، وشجعوا الأمير بادجاة على احتلالها وتعهدوا له بالمساعدة بكل ما فى استطاعتهم

ورأى الأمير بادجانة أن الفرصة قد سنحت لتحقيق أحلامه ، فجمع قوماً خليطاً من قومه ومن يافع والحموم والمهرة وسافر بهم فى تسعة مراكب شراعية متجهاً إلى عدن ، وكانت أمه قد عارضته فى هذه الفكرة ونصحته بأن يعدل عن إعداد هذه الحملة لأنها كانت مرتابة فى نجاح الخطة التى اعتبرتها مغامرة ، فلم يلتفت لكلامها ولم يأبه لنصيحتها

وعلم أمير عدن من قبل آل طاهر بنبأ هذه الحملة ، فكتب إلى السلطان عامر بن طاهر وكان باليمن يطلب منه المدد ، فقدم السلطان عامر بنفسه على رأس جيشه متأهباً للقاء الأمير بادجانة الذى منته نفسه بالهجوم على عدن ، وكان هذا لا يزال فى سفنه البحرية لم يبدأ هجومه بعد

وحدث خلاف بين الأمير بادجانة وبين رؤساء جيشه ، فقد كان رأى هؤلاء التراجع بمراكبهم والتظاهر بالتقهقر والعودة ، حتى إذا اطمأنت حامية عدن وأمنت الهجوم عادوا فأنزلوا جنودهم إلى البر على حين غرة وتقدموا لتنفيذ خطتهم فيكون ذلك أضمن لنجاح الحملة ، ولكن الأمير أبى إلا الإسراع بالهجوم

وبينما هم فى أخذ ورد هبت عاصفة شديدة لم يتمكن الجيش المهاجم معها من التحكم فى سفنه ، فغرقت بعض السفن ومن بينها السفينة التى تحمل الأمير فنجا بنفسه إلى الساحل حيث ألقى القبض عليه جنود السلطان عامر بن طاهر وأخذوه أسيراً هو ومن معه سنة ٨٦٢ هـ

وسرعان ما بلغ نبأ هذا الحادث إلى الشحر ، فجمعت أمه أعيان الشحر واستشارتهم فى أمر ابنها ، فترددوا وخافوا من سطوة آل طاهر ، فحزمت أمتعتها وسافرت إلى عدن حيث اجتمعت بالسلطان عامر وكلمته بشأن ابنها ليطلق سراحه ، فتردد فى أول الأمر ثم خضع لتأثير المرأة فأجاب طلبها وأطلق سراحه ، فتجهز الأمير بادجانة عائداً مع أمه إلى الشحر

استيلاء آل طاهر على الشحر

تركت محاولة الأمير بادجانة الاستيلاء على عدن أثراً سيئاً فى نفس السلطان عامر بن طاهر ، وكان رد الفعل لتلك المغامرة الفاشلة أن أخذ السلطان عامر بعد العدة لاحتلال الشحر

وطرد الأمير بادجانة منها ، فجمع عسكراً كثيراً جهزهم من عدن بواسطة البحر سنة ٨٦٥ هـ ، فهاجموا الشحر واستولوا عليها بعد ما فر منها الأمير إلى حيريج من بلاد المهرة

وتقول رواية أخرى إن الأمير بادجانة ظل أسيراً لدى السلطان عامر بن طاهر عامين كاملين فى عدن حتى سمحت أمه الشحر فأطلقوه لها ولم تطل مدته بعد إطلاقه ، ومهما اختلفت الروايتان فانه ليس هناك خلاف فى أن السلطان بدر بن محمد بن عبد الله الكثيرى لما علم باستيلاء آل طاهر على الشحر طفق يتصل بالسلطان عامر كتابياً ويظهر له التودد حتى وثق منه ، وكتب له عهداً على الشحر سنة ٨٦٧ . فقدم السلطان بدر بن محمد إلى الشحر ودخلها مستخفياً عليها من قبل دولة آل طاهر ، وكان ذلك أول حكم آل كثير للشحر

بادجانة يعود إلى الشحر

وتقول بعض الروايات إن الأمير بادجانة ظل قابعاً فى قريته الصغيرة (حيريج) بساحل المهرة يتحين الفرص لاسترداد الشحر من آل كثير حتى تجمعت لديه قوة كافية فهجم بها على الشحر براً وبحراً سنة ٨٨٣ هـ واحتلها بعد أن انسل منها السلطان بدر الكثيرى إلى حضرموت حيث عاد إلى شبام مركز السلطنة الكثيرية فى ذلك العهد

وإذا صح ما تقوله الرواية السابقة من أن الأمير محمد بن سعيد لم تطل به حياة بعد إطلاق سراحه ، فان الذى استرد الشحر من آل كثير قد يكون أحـــد أفراد العائلة من أمراء آل بادجانة

وقد استمر حكم الشحر فى أيدى الأمراء من آل بادجانة إلى مستهل القرن العاشر الهجرى ، وقد كانت المدينة أثناء هذه المدة عرضة للغزو الكثيرى ، وكانت الحرب سجالا بين الطرفين ، ولم تكن مؤهلات القائمين بالأمر بعد وفاة الأمير محمد بن سعيد كما ينبغى ، فلم يستطيعوا القيام بأعباء السلطنة ، فثارت القبائل وقطعت الطرق وفقد الأمن وساءت حالة البلاد واشتد استياء الأهالى ، وكانت النهاية استيلاء السلطان جعفر بن عبد الله بن على الكثيرى عليها سنة ٩٠١ هـ وضمها إلى السلطنة الكثيرية نهائياً

وفاة الأمير محمد

لا نعرف بالضبط تاريخ وفاة الأمير محمد بن سعيد بادجانة ، فقد رأينا كيف اختلفت الروايات فى أمر عودته من عدن ، فى حين قالت رواية إنه لم تطل مدته بعد إطلاق سراحه ، وقد زعمت إحدى الروايات أنه مات متأثرا بالسم الذى دسه له أحد أعوان آل طاهر ملوك عدن ، وقد أبدت أمه من الثبات ورباطة الجأش ما أدهش الناس ، فقد برزت للناس تخبرهم بوفاة ابنها والدموع تتحدر من عينيها ، وهى محتفظة بهدوئها متجلدة للمصيبة ، مظهرة الرضاء بقضاء الله

(١٠)

أبو طويرق

بدر بن عبد الله الكثيرى

رجل الوحدة الحضرمية ـ أعماله الإدارية والحربية ـ عهده ـ بدر والبرتغال ـ بدر وعاهل الترك ـ مسألة اضطرابات قبائل الحموم ـ نهد ـ عمد ودوعن وسيبان ثورة المهرة ـ عبيد يمانى ـ أمراء من آل كثير ـ أبو طويرق فى المعتقل

رجل الوحدة الحضرمية

أبرز شخصيات آل كثير أبو طويرق بدر بن عبد الله بن جعفر الكثيرى ، وهو يتحدر من سلالة السلطان الكثيرى الأول على بن عمر بن جعفر ، مؤسس السلطنة الكثيرية فى أوائل القرن التاسع الهجرى وجَدّ سلاطينها أجمعين

ولد سنة ٩٠٢ هـ وظهرت عليه بوادر الذكاء والفطنة منذ صباه ، ولم يبلغ سن الرشد حتى نضجت مواهبه وظهر نبوغه ، فتولى السلطنة وتصدى للحكم قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، وعرف منذ صغره بالإقدام والشجاعة والاعتماد على النفس والتطلع إلى المجد

وقد كان جده الأمير جعفر بن عبد الله بن على بن عمر معروفاً بالرأى الثاقب والاستقامة ، وقد ضمه يوماً فى حوطة سلطانه مجلس مع الشيخ عمر المحضار بن عبد الرحمن السقاف ، فاقترح هذا عليه أن يكون سلطاناً فى بلدة بور المستعصية ، وأكد له أن واليها قد تعب من ولايتها وأنه يستطيع أن يقنع واليها بالتنازل عن الولاية لجعفر ، وكان الأمر كذلك ، فقد ذهب الأمير جعفر إلى بور وتولاها صفواً عفواً ، ولم يزل بها سلطاناً حتى تآمر عليه الظلفان فقتلوه سنة ٩٠٥ هـ

وتوفى والده عبد الله بن جعفر سنة ٩١٠ هـ وأبو طويرق فى سن السابعة ، فتولى السلطنة

أخوه الأكبر محمد بن عبد الله الذى حدثت بينه وبين أخيه أبى طويرق فتن ومشاغبات فيما بعد نتيجة التنافس على الحكم ، وقد قيل فى سبب تسميته بأبى طويرق إنه دعى بهذه الكنية لأنه طرق أراضى حضرموت من ذمار إلى ظفار

ويعتبر أبو طويرق بحق السلطان الأول الذى عمل لتوحيد مناطق حضرموت إلى أقصى حدودها تحت سلطته ونجح فى ذلك إلى حد بعيد ، فقد كان يرى ضرورة القضاء على السلطات المتفرقة التى سببت من الفوضى ما كان أقل نتائجها فقد الأمن وخراب العمران وسوء الحالة العامة ، ولذلك فهو يعتقد أن لا سلامة للبلاد إلا فى أن تنضوى تحت لواء واحد وسلطة واحدة ، كان يحلم بأن يكون هو صاحبها والساهر على حمايتها

ولم تلبث هذه الأفكار أن تحولت إلى عقيدة راسخة فى دماغه ، فهب بكل ما أوتى من قوة فى عزيمة الجبابرة وإقدام الطامحين ينفذ برنامجه الضخم بكل وسيلة ويعمل لتحقيق أهدافه فى غير كلل ولا ملل

كان يعلم أن التفكير فى وحدة سياسية كبرى تخضع لها جميع البلاد الحضرمية أمر من الصعوبة بمكان ، فالأمراء من آل كثير لهم طموحهم إلى السيطرة وتطلعهم إلى النفـــوذ والاستغلال ، وهم فى سبيل ذلك مستعدون للثورة واراقة الدماء والتضحية بأمن البلاد ووحدتها الكبرى ، وكل قبيلة مسلحة تتحين كل فرصة لإعلان عصيانها وفصم كل عروة تربطها بأية سلطة عليا فى البلاد ، وليست هناك وسيلة لإخضاع تلك الرءوس المتطلعة إلى الفتنة الساعية فى تجزئة البلاد غير الالتجاء إلى القوة التى تعتمد على عناصر من الخارج

لذلك عمل أبو طويرق على أن يكون أكثر جيشه مؤلفاً من عناصر غير حضرمية ، فكونه من الأتراك ومن يافع والموالى الإفريقيين وقبائل اليمن من الزيود وغيرهم لكى يطمئن إلى ولائهم ويضمن عدم ثورتهم وانتقاضهم ، وقد وصلت إليه أول قوة تركية وهو بالشحر تحت قيادة تركى كبير يدعى رجب فى شهر جمادى الآخرة سنة ٩٢٦ هـ

وقد كان لهذا التدبير من أبى طويرق الداهية أثره الفعال فى استتباب الأمن والقضاء

على دابر المشاغبين ، فقد عمّ الرعب الأهالى ولم يكن لهم حديث إلا رجب التركى صاحب الشوارب الطويلة ورجاله ـ شاربين المسكرة ـ وزاد فى رعب الاهالى ما يحمله جيش الاتراك من الاختراع الغريب فى تلك الايام وهو ـ البندق أبو فتيلة ـ الذى كان لظهوره رجة كبرى كالتى أحدثها ظهور القنابل الذرية فى هذه الايام ، وكان الحضارم يسمون الاتراك الروم ومن أجل ذلك سموا هذه البنادق (بنادق الروم)

وقد امتد سلطان أبى طويرق من العواقى غرباً إلى سيحوت شرقاً ، ومن السواحل الجنوبية جنوباً إلى رمال الاحقاف شمالا . وقد أذعن له بنو عبد الواحد والعواقى وأقروا له بالطاعة . أما بلاد المهرة فقد استولى منها على قشن وبنى بها حصناً وجعل عليها نائباً من قبله ، وكان المهرة يظهرون له الطاعة ويرسلون إليه الهدايا

وقد وصفه بعض المؤرخين فقال : إنه كان شجاعاً مقداماً ، حسن الاخلاق ، جواداً ، كثير الإنفاق . وكان محظوظاً جداً لا يقصد باباً مغلقاً إلا انفتح ، ولا يقدم على أمر إلا اتضح . وقال عنه بعض الفضلاء : كان بدراً منيراً أينما طلع سطع ، وغيثاً غزيراً كيفما وقع نفع

أعماله الادارية والحربية

بدأ عقب توليه السلطنة بعزل الوزير مطران بن منصور سنة ٩٢٢ هـ لشىء كان ينقمه عليه ، ثم قبض عليه وزجه فى السجن وصادر أمواله ثم أطلقه سراً . وولى الوزارة بعده عطيف ابن على بن دحدح . وفى رجب سنة ٩٢٨ هـ أعيد مطران وعزل عطيف

ثم اتصل بضباط من الاتراك واتفق معهم على تجنيد جيش من الترك يخضع به حضرموت عند ما رأى الروح العسكرية بين جنده خامدة ، وأدرك أن الثقة بينه وبين غيره من أولى الشأن فى حضرموت غير متوفرة . وأن القوة التى لديه غير كافية لحل المشاكل المحيطة به . وقد وصلت إليه أول قوة تركية سنة ٩٢٦ هـ كما سبق

وفى سنة ٩٣٧ هـ أمر أن تضرب باسمه نقود فضية من فئة الريال وفئة النصف والربع ،

ونقود نحاسية صغيرة وكبيرة ، وفى سنة ٩٤٢ هـ ضرب أيضاً عملة تسمى بُقشة ، ولقد كان للناحية العلمية أثر كبير من اهتمامه ، فقد بث الدعاة والمعلمين فى البلاد وأجرى رواتب لرجال العلم وأرباب التعليم ، وأسس بالشحر مدرسة جليلة سارت بفضلها الركبان ، قصدها طلاب المعرفة من كل صوب ، واختار لها من الأساتذة والنظار من يشار إليهم بالبنان علماً وفضلا ، وبذل مجهوداً كبيراً لإقناع العلامة نور الدين على بايزيد بتولى إدارة هذه المدرسة والتدريس والإفتاء بها ، وجعل عليها وقفاً يقوم بما تتطلبه المدرسة من نفقات

وقد كان السلطان بدر حريصاً على تأمين حدود بلاده من الشرق والغرب حريصاً على فرض سلطته عليها وإخضاع القبائل المحيطة بها . ففى سنة ٩٤٨ هـ عمل التدابير لتحصين رخية وشبوة على الحدود الغربية وتأمين ما بينهما من مياه وسبل . وله فى الاحتفاظ بشبوة حوادث ذات شأن ، وكانت صلاته بقبائل الجوف حسنة ، وربما استخدمهم فى بعض أغراضه وسلطهم لمشاغبة بعض القبائل الحضرمية المناوئة له ، وقد استعان به ابن عبد الواحد أمير حبان ، فجاءه وأبو طويرق فى شبوة يستنجد به على ابن ثاقب صاحب يشبم ، فتوجه معه ونهبها وأحرق فيها ثم عاد إلى شبوة . أما على الحدود الشرقية فقد قام بعدة حملات لإخضاع المهرة فى الشرق والاستيلاء على بلادهم

أما أولى أعماله الحربية فقد كانت الاستيلاء على شبام ، فقد قصدها لانتزاعها من آل محمد الذين استقلوا بالسلطة فيها ، فكتب إليهم ينذرهم وينصحهم بالتسليم فرفضوا ولم تستمر مقاومتهم أكثر من ليلة واحدة دخل أبو طويرق على أثرها إلى شبام منتصراً . وفى ذى الحجة من سنة ٩٢٧ هـ اتجه إلى تريم فحصرها نحو عشرين يوماً ، وكان بها محمد بن أحمد بن جردان وآل يمانى وآل عمر ، ثم رماها بعلوق الروم فاستسلموا وسلموا البلاد ، وأجلى آل يمانى وأبقى عبيدهم المعروفين الآن بعبيد يمانى ، وذلك أول دولة آل جعفر الكثيريين بتريم

وأذعنت هينن لأبى طويرق فى ذى الحجة من سنة ٩٢٧ هـ بعد حصار دام أشهراً ، ثم طفق يزحف بجيوشه على جميع حضرموت حتى خضعت له خضوعاً تاماً وتنازل له أخوه

الأكبر (محمد) عن الولاية وكتب بخط يده إلى خطيب الشحر الشيخ أحمد بن محمد السبتى أن يسقط اسمه من خطبة الجمعة ويخطب لأخيه بدر ، وكان ذلك فى سنة ٩٢٧ هـ

ثم أخذ السلطان بدر ينشىء المحاكم القضائية وينظم شئون الإدارة ويدبر ملكه بحزم وعزم رغم ما كان يقاسيه من الاتعاب فى مداراة عشيرته وبنى عمه الذين دفعهم الحسد له إلى أن يقعوا فيه بما لا يرضى من القول ، ويكيدون له من المكايد ما لا يستطيع أخذهم بها ومحاكمتهم عليها

عمـــلـه

كان القرن العاشر الذى عاش فيه أبو طويرق من أحفل العصور التاريخية فى حضرموت بالعلماء والأدباء ، فقد ضمت هذه المائة العاشرة جمهرة من رجال الدين والتصوف وكبار العلماء بالشريعة واللغة والشعر ، أمثال الفقيه اللغوى العلامة محمد بن عمر بحرق والشيخ الفقيه الكبير والشاعر الأديب عبد الله بن عمر بامخرمه ووالده الصوفى الشاعر والشيخ أبى بكر العيدروس الصوفى المشهور والعلامة الشيخ أبى بكر بن سالم صاحب عينات والشيخ عبد الرحيم بن عمر باوزير مولى الجيش والشيخ معروف باجمال والشاعر الفحل عبد الصمد با كثير وغيرهم كثير وكثير من أجلة الفقهاء كالشيخ محمد بن أحمد بافضل وابن عبسين وبا مزروع وبا يزيد وبا جمال وبا قشير

وقد كان السلطان بدر موفقاً فى اختيار خواصه ورجال دولته من بين أمثال هؤلاء العلماء . فقد وكل كثيراً من شئون دولته الإدارية والحربية إلى العلامة محمد بن عمر بحرق ، كما ولى الشيخ عبد الله بن عمر با مخرمة قضاء الشحر ثم كان له بمثابة كاتم السر (سكرتير) يستشيره فى شئونه ويفوض اليه قراءة الأوراق الرسمية والإجابة عليها

وبالرغم من حظوة الفقيه عبد الله بن عمر با مخرمة لدى السلطان بدر وقربه منه فان علاقة السلطان بدر بوالده الشيخ عمر غير حسنة لخلاف كان بينهما بسبب تدخل أبى طويرق فى شئون الهجرين بلدة الشيخ عمر التى كان يحرص على بقائها بعيدة عن تدخل آل كثير . وقد

نفاه أبو طويرق إلى الساحل غير مرة ، ثم رأى أن يضعـــه تحت مراقبته فاستقدمه إلى سيؤن [1] حيث أقام بها إلى أن مات

وهكذا نرى أن الظروف السياسية تضطر أبا طويرق أحياناً إلى الخروج عما عرف عنه من تقدير العلماء وإجلالهم . وقد اتهم مرة الشيخ معروف باجمال بموالاة أحد الثائرين عليه من بنى عمه ، فقبض عليه وأمر بأن يعلق فى عنقه حبل وأن يطاف به فى شوارع شبام وينادى : هذا معبودكم يا أهل شبام ، ثم نفاه من شبام إلى دوعن ، وكان الشيخ معروف من أئمة العلم والصلاح والمعروفين بالولاية

بدر والبرتغال

كان للبرتغال الأمة الإفرنجية الواقعة فى أقصى الغرب من أوربا مكانة فى الشرق لا تضاهى تجارة واكتشافاً واستعماراً ، وكانت سفنها تمخر المحيط الهندى إلى الجزائر الأوقيانوسية الشرقية وبعض بقاع الهند التى وطدت أقدامها فيها ، وكانت تفكر فى احتلال سواحل جزيرة العرب لتأمين مواصلاتها إلى الشرق ، لذلك هاجمت موانىء عدن وقشن وسيحوت وغيرها . وفى ربيع الآخر من سنة ٩٢٩ هـ هاجموا مدينة الشحر بأربع عشرة سفينة ، وأخذوا يتسورون البيوت وينهبون ويحرقون ويخربون

وقد تصدى الناس فى الشحر لقتالهم ، فدارت معارك حامية فى شوارع المدينة وكثر القتل فى الفريقين ، وقتل من أعيان الشحر جماعة منهم : الأمير مطران بن منصور ، والإمام العلامة أحمد بن عبد الرحمن بلحاج بافضل ، وكان هذا الإمام قد قاتل قتال الأبطال وأرسل رسلا مستعجلين إلى داخل حضرموت برسائل مؤثرة يستنفرهم للجهاد ، وقتل أيضاً أحمد وفضل ابنا رضوان بافضل ، والفقيه يعقوب بن صالح الحريضى وخلق كثير ، ودفن سبعة من

---

(١) المشهور أن مدينة سيؤن بنيت حوالى القرن السادس الهجرى ، وقد نقل بعض المؤرخين أن ذى أصبح وسيؤن مدينتان بالسرير لبنى معاوية الاكرمين ، مما يفيد أنها أقدم من ذلك بكثير

الشهداء فى موضع واحد لا تزال قبورهم معروفة إلى اليوم فى حارة (عقل باغريب)

واستمر القتال فى المدينة من يوم الجمعة إلى يوم الأحد حيث اضطر البرتغاليون إلى الانسحاب إلى سفنهم ليلة الاثنين ، فضربوا عرض البحر متجهين نحو الهند ، وتكررت محاولاتهم بعد ذلك لمهاجمة الشحر ولكنهم لم يظفروا بطائل

وفى سنة ٩٢٣ هـ قرر البرتغاليون القيام بحملة كبرى لتنفيذ خطتهم ، فأقبلوا بعدد كبير من السفن ، وكان أبو طويرق موجوداً بالشحر هذه المرة ، فأعد العدة لقتالهم ، ولم يكد جنود الإفرنج ينزلون إلى البر حتى أرسل أبو طويرق إلى سفنهم من يأسرها ويلقى القبض على من فيها ، واشتد القتال فى البحر والبر ، وحمد جنود أبى طويرق وقاتلوا قتالا شديداً ، وطلعت شمس يوم الأحد الخمس من رمضان وقتلى الإفرنج فى كل شارع

وعلم الذين فى البر من جنود البرتغال بأن سفنهم قد وقعت فى يد بدر وأن جنوده يسحبونها إلى الساحل سحباً وبحارتها يقادون بالأكبال فاضطروا إلى طلب الأمان وتسليم أنفسهم ، فأمنهم أبو طويرق ومن بينهم القبطان الأكبر ، وكان عدد الأسرى فى هذه الحادثة سبعين ، فرقهم بدر على فرق عساكره ، فجعل لأشراف الجوف الذين حضروا المعركة عشرة أسارى ، وللعساكر الزيود عشرة ، وللجنود من يافع عشرة ، وللعبيد النوبيين عشرة ، واستولى على سفنهم ونقودهم وعبيدهم وجميع ما معهم من أموال ، وعثر على جماعة منهم مستخفين فى بعض البيوت فألقى القبض عليهم

وقد استطاعت إحدى السفن البرتغالية الهرب من الميناء فنجا فيها مائة شخص منهم . ثم قدم جماعة آخرون من البرتغاليين عقب انتهاء المعركة من سواحل إفريقيا الشرقية ومعهم مال فأخذهم السلطان بدر وجميع ما معهم وألحقهم باخوانهم الأسرى المكبلين

وأهدى السلطان بدر خمسة وثلاثين من هؤلاء الأسرى إلى السلطان العثمانى فى اسطنبول ـ القسطنطينية ـ تودداً إليه وطمعاً فى تحسين صلته بالأتراك لتنفيذ مطامحه السياسية ، كما أرسل أحد عشر أسيراً إلى أخيه محمد وهو يومئذ والى ظفار ، واستصحب معه ثلاثين منهم عند ما

عاد إلى داخل حضرموت فى صيف سنة ٩٤٢ هـ

وتكررت حوادث البرتغاليين بعد ذلك : صلح يعقبه حرب وحرب تنتهى بصلح ، وكثر أسرى الإفرنج عند بدر واختلط الأهالى بهم وأنس السلطان ببعضهم فجعلهم من ندمائه حتى أنه كان ذات ليلة ساهراً معهم فى أحد بيوت الشحر فحدث أن أغلقوا عليه الأبواب ليشرعوا فى تنفيذ مؤامرتهم لاغتياله ، فأسرعت إليه بعض الجوارى تُسِرُّ إليه الخبر فاستطاع أن يحبط مؤامرتهم بالتسلل خفية من مؤخرة البيت ، فلما أصبح أمر بهم فقتلوا عن آخرهم وبعث برءوسهم إلى السلطان سليمان القانونى عاهل الترك

وكان آخر صلح عقده السلطان بدر مع البرتغاليين فى شوال سنة ٩٤٤ هـ عند ما وصل عبد الله بن أرقل من الهند فى سفينة إفرنجية وتوسط فى الصلح ، فأجابه السلطان وفك أسراهم

بدر وعاهل الترك

من بين التدابير التى اتخذها أبو طويرق لحماية بلاده فى الداخل ومن الخارج ان أخذ يكاتب السلطان سليمان القانونى عاهل الدولة العثمانية التى كانت لذلك العهد الدولة الوحيدة المُسْلِمة التى ينظر إليها العالم بعين الإكبار والرهبة ، وكان فى رسائله يبذل الطاعة للدولة ويستنجدها على البرتغال الذين يهددون سلامة بلاده

وكان الأتراك بدورهم يتطلعون إلى التوسع فى الشرق ويغيظهم ما يسمعون من بطولة البرتغال وسعيهم لبسط نفوذهم فى البلدان الإسلامية الشرقية ، فجهزوا فى سنة ٩٤٤ هـ جيشاً عظيما مكوناً من نحو أربعين ألف مقاتل بقيادة وزير الدولة بمصر سليمان باشا الألبانى ، وزودته بأسطول بحرى مؤلف من مائة سفينة صغيرة وما يزيد عن ثمانين سفينة كبيرة وتوجه قاصداً نحو الهند

وفى جمادى الأولى من تلك السنة وصلت إلى ميناء الشحر سفينة تركية تحمل مؤناً للجيش التركى استودع صاحبها تحت تصرف الجيش ، فيها مقادير كبيرة من البر والشعير والفول والبصل والزيت وعدد من المدافع والأسلحة

وفى ربيع الأول من هذا العام كتب الباشا سليمان إلى السلطان بدر يخبره بوصوله إلى عدن وأنه استولى عليها بدون قتال وقبض على الشيخ عامر بن داود آخر ملوك بنى طاهر فى عدن واليمن وأميرها عبد الصمد والأمير الحلى وحكم عليهم بالشنق وتركوا مشنوقين بالحسارة قرب باب الساحل يومين كاملين ثم دفنوا فى اليوم الثالث ، وغادر الباشا سليمان عدن بعد أن ترك بهرام عاملا عليها من قبله ومعه خمسمائة تركى

وكان قد وصل إلى الشحر ثلاثون تركياً فى ربيع الأول سنة ٩٤٤ هـ ليخبروا السلطان بدر بالحملة التى أعدها السلطان سليمان ضد البرتغاليين وقدموا لأبى طويرق مرسومين وخلعتين من السلطان سليمان القانونى العاهل العثمانى قدمها إليه الأمـــير فرحات شومانى مملوك سليمان باشا

وبهذه المناسبة عقد السلطان بدر اجتماعاً كبيراً بمسجد الجامع فى الشحر قام فيه الأمير فرحات خطيباً ، فقدم إلى السلطان بدر المرسومين ونوه بالحملة التى جددت لحرب الإفرنج ، ثم وقف العلامة الشيخ عبد الله بن عمر بامخرمة وقرأ المرسوم السلطانى ، وبعد ذلك تكلم السلطان بدر فرحب بالمرسوم وبأول رسول تركى يصل إلى الشحر ، وأشار إلى أنه سيأمر بأن يخطب الخطباء فى مملكته للسلطان سليمان ، وجاء يوم ٢٤ من هذا الشهر ربيع الأول سنة ٩٤٤ هـ فصادف أول جمعة بعد الاجتماع السابق فكانت أول جمعة خطب فيها لسلطان آل عثمان بحضر موت

وغادر الأمير فرحات مدينة الشحر مزوداً بهدية ثمينة من أبى طويرق للسلطان سليمان هى قطعة من الأناس النادر الوجود وخمسمائة مثقال من العنبر الأصيل . أما فرحات نفسه فقد أهداه السلطان بدر ثلاثين بهاراً من الفلفل

وفى رجب سنة ٩٤٤ هـ وصل الأسطول العثمانى إلى الشحر بعد عودته من الهند ونزلت الجنود إلى المدينة يبيعون ويشترون ، وطلب الباشا بقية الأسراء كما طلب إحضار الفيتور البرتغالى الأسير بحصن عرف فأحضروا وسلموا إلى الباشا ولم يكن أبو طويرق موجوداً بالشحر

هذه المرة ، فناب عنه الأمير أحمد مطران فى مقابلة الباشا والترحيب به ، فقد قصد السفينة الكبيرة التى تحمل الباشا والمزينة بالعلم التركى ، فقابله الباشا أحسن مقابلة وخلع عليه وقال له : ان الدولة العلية سترسل للسلطان بدر — فرماناً — بعقد الولاية له من باب عدن إلى مدينة ظفار وقدم له الأمير أحمد هدايا فاخرة وما يحتاجون إليه من البر . ثم غادر الباشا الشحر فى طريقه إلى عدن بعد ما وضع على الشحر رسوماً سنوية عشرة آلاف أشرفى تسلم كل سنة إلى مندوب الدولة الذى يصل سنوياً لتناول هذه الرسوم

وهكذا استطاع السلطان بدر أن يحسن علاقاته مع أقوى دولة إسلامية فى ذلك العهد ، ويضمن ولاءها ومساعدتها له

سلسلة اضطرابات

لم تكن البلاد الحضرمية التى حاول أبو طويرق جمع شتاتها تحت لواء واحد وساطة واحدة مستعدة لقبول هذه الوحدة ، فهناك من العوامل المتعددة ما يجعل ضمان هذه الوحدة التى سعى لها أبو طويرق أمراً بعيد المنال صعب التحقيق ، فقد كان الأمراء من آل كثير ورؤساء القبائل وغيرهم من كل طامح وطامع سبباً فى تعكير الجو السياسى وإحداث القلاقل والمشاغبات وإثارة الفتن والثورات ، حتى لقد كان الجانب الأكبر من عهد أبى طويرق عبارة عن سلسلة من الاضطرابات والثورات لا تنطفىء ثورة حتى تندلع نيران أخرى ، ولا تهدأ فتنة حتى تشب فتنة أخرى ، ويظهر أن صعوبة المواصلات وعدم توفر المال الكافى لأرزاق الجنود من بين الأسباب التى حالت دون القضاء على هذه الاضطرابات

قبائل الحموم

بدأت قبائل الحموم فى الساحل بالتحرش برعايا السلطان ، فألقى أبو طويرق القبض على جماعة منهم ، فأعانوا العصيان وأكثروا من النهب والسلب وقطعوا السبل وروعوا المارة حتى هرب الناس من ضواحى الشحر إليها ، فجهز أبو طويرق عدداً من جنوده لقمع ثورتهم ، فتوجه الجنود يلقون القبض على كل من يلقونه منهم حتى انتهوا إلى غيل بن يُمَين فاستولوا عليها سنة ٩٣٦ هـ

وهاج الحموم وفكروا فى القيام برد فعل ، فأغاروا على تبالة ونهبوا منها أموالا كثيرة كان الناس قد نقلوها اليها خوفاً من البرتغاليين وقتلوا أشخاصاً

نهـــد

وفى غربى حضر موت ثارت نهد تحت رئاسة محمد بن على بن فارس النهدى ، فوجه اليهم أبو طويرق حملة شتتت شملهم وأسرت ابن فارس فعظم أسره على نهد وطفقت تعمل كل ما فى استطاعتها لمناوأة بدر والكيد له ، وبينما كان السلطان ماراً ببلاد نهد فى طريقه إلى دوعن اعترضه من السور ـ موضع لنهد ـ مائة وستون فارساً غضباً لصاحبهم ، وبعد توسط المصلحين وافق أبو طويرق على إطلاقه

واستمرت المناوشات بين نهد والسلطان حتى زحف ثابت بن على بن فارس النهدى على دوعن فاستولى على القرين سنة ٩٤٠ هـ بعد حصار طويل وبعد إطلاق حجر العرادة على البلاد ـ آلة حربية أشبه بالمنجنيق وأصغر منه ـ وزاد ذلك فى نقمة أبى طويرق على نهد فحمل عليهم حملة كبرى زحزحهم بها عما استولوا عليه ، ثم أزالهم من منطقتهم الكسر حتى أخذوا يستنجدون ببعض ولاة اليمن ، فتوسط هذا فى صلح يقضى بعودة نهد إلى منطقتهم

عمد ودوعن وسيبان

وامتد لهيب الثورة إلى وادى عمد حيث ثار هناك واليها فارس بن عبد الله العامرى ، فسار اليه السلطان بدر بنفسه واستولى على الوادى بعد قتال شديد وألقى القبض على فارس العامرى ، وعند عودته من عمد عرّج بالهجرين وكانت قد ثارت هى الأخرى فدخلها بدون قتال وأخرج منها ولاتها من آل عامر

وعلم أبو طويرق بأن الشيخ عثمان العمودى فى دوعن قد عقد معاهدة مع نهد ضده ، فهاجمه فى ٩ رمضان سنة ٩٤٨ هـ واحتل قيدون واستولى على الحصن بعد ان اضطرت حاميته إلى التسليم ، وكانت هذه الحامية تحت قيادة الشيخ أحمد العمودى شقيق الشيخ عثمان حاكم دوعن ، وتوالت الحملات على دوعن ، والعمودى مصر على المقاومة حتى سنة ٩٥١ هـ حيث

عقد السلطان بدر صلحاً مع العمودى قضه الأخير سنة ٩٥٥ هـ ، فقد اتحد مع آل عامر وآل عبد العزيز والشنافر والعوامر ضد بدر ، وعاثوا فى البلاد وروعوا السكان واستولوا على بور وأغاروا على تريم وهينن ، وحاصر آل عامر شبوة وانهزمت عساكر بدر ولم تستطع الثبات والوقوف أمام القبائل المتحدة على الثورة

وانتهزت قبائل سيبان فرصة هذه المشاغبات فأدلوا بدلوهم بين الدلاء ، وأقلقوا سكان روكب وغيل باوزير ، فابتنى السلطان بدر حصناً فى روكب وحصنه بالجنود خوفاً من صيال سيبان

عبيد يمانى

وتجمع عبيد يمانى — الذين سبق لهم ذكر — فى أسفل وادى حضرموت ومعهم أخلاط من بعض القبائل الناقمين على أبى طويرق أو الطامعين فى السلب والنهب ، فعاثوا فى الأرض وأكثروا الفساد ، فجهز السلطان بدر عدداً كبيراً من جنوده فقتالهم فى سنة ٩٥٨ هـ فحاصرهم الجنود فى قرية تدعى — الجرب — بأسفل الوادى واشتد عليهم الحصار حتى أكلوا الجلود والميتة ، ثم هجم عليهم الجنود وقتلوهم عن آخرهم وكانوا خمسمائة

ثورة المهرة

وعلم السلطان بدر بأن المهرة تتجمع فى المشقاص لمهاجمة الشحر فجهز حملة كبرى من رجال نهد والشحابلة الزيود ويافع وبنى حسن تحت قيادة الأمير أحمد مطران والأمير على بن عمر الكثيرى والفقيه محمد بن عمر بحرق ، وتوجه معهم هو وأخوه محمد وقد استولت الحملة على قشن ، ثم عاد بالجيش بعد ما بنى حصناً هناك جعل فيه حامية من جنوده وترك الأمير أحمد مطران والفقيه بحرق نائبين عنه فى قشن

ولم يلبث المهرة أن ثاروا مرة أخرى فقتلوا الأمير أحمد واستردوا بلادهم فاتهم أبو طويرق أخاه محمداً باغراء المهرة وتحريضهم على العصيان فاعتقله وقيده بالشحر ، وعاد مرة أخرى إلى المشقاص فأخضعهم وقتل من مقاتليهم عدداً كبيراً

وضاقت المهرة بما تلقى من سيطرة جنود بدر ، فذهب رئيسهم سعيد بن عفرار إلى الهند مستصرخاً بالبرتغاليين ، وأقبل بجماعة منهم فى شهر صفر سنة ٩٥٥ هـ ، واستولى بهم على حصن قشن وقتل جميع عساكر بدر ، وبلغت أنباء هـــذا الحادث إلى أبى طويرق وهو بحضرموت ، فقدم إلى الشحر وأنفذ جيشاً بواسطة البحر ، وخاف سعيد بن عفرار فجاء إلى أبى طويرق نادماً معترفاً إلى مكان يدعى (حيريج) أثناء الطريق ، فقبله السلطان بدر وعقد صلح بينهما تعهد المهرة فيه بأن لا يتحرشوا بموانى بدر ولا بأى جزء من بلاده ، على أن يترك لهم السلطان حكم بلادهم بأنفسهم ، وعاد أبو طويرق بعسكره من حيريج

أمراء من آل كثير

كان بعض الأمراء من آل كثير يقمون على السلطان بدر أشياء منها : استبداده بالأمر دونهم وإسناده شئون الدولة الكبرى إلى شخصيات غير كثيرية ، أضف إلى ذلك ما تجيش به نفوس الأقران من التنافس والتكالب على الجاه والمجد والمطامع المادية ، فكان ذلك سبباً فى تعكير الجو بينهم وبين أبى طويرق

فقد ثار فى شبام على بن عمر الكثيرى وخلع طاعة أبى طويرق وأعلن تمرده ، وناصره جماعة من وجهاء حضرموت ، وفى مقدمتهم الشيخ معروف با جمال ، فاهتم أبو طويرق بأمره وتابع عليه الهجمات ووالى نحوه الكتائب حتى ظفر به واستولى على شبام سنة ٩٥٨ هـ وقبض عليه وسجنه بحصن ـ مريمة ـ الذى أصبح فيما بعد سجناً للمغضوب عليهم من أمراء آل كثير

وثار الأمير محمد بن بدر بن محمد فى هينن وطفق هو والأمير محمد بن عبد الله يناوئان السلطان بدر ويهاجمان شبام فألقى أبو طويرق القبض عليهما واعتقلهما فى حصن مريمة ، ولم تكن العلاقات بين السلطان بدر وبين أخيه محمد دائماً على ما يرام فقد عملت الوشايات على خلق جو من المنافسة والمعاكسة بينهما أدت إلى الفتنة والحرب ، فقد جند الأمير محمد قوماً من المهرة سنة ٩٤٠ هـ وغزا بهم الشحر ، ثم انصرف إلى المشناس خائباً

وساد الصفاء والوئام بعد ذلك مدة بين الأخوين ثم ساءت العلاقات بينهما مرة أخرى ،

فحشد محمد جمعاً كثيفاً من أهالى ظفار وآل كثير للقيمين هناك واستولى بهم على قشن ، ثم عادت الأمور إلى مجاريها وتم الاتفاق بين الأخوين ، واكتفى الأمير محمد بن عبد الله بولاية الشحر نائباً عن أخيه بدر ، وبقى كذلك حتى وافته المنية

أبو طويرق فى المعتقل

وهكذا أخذت الحالة تسير من سيء إلى أسوأ وتعددت الثورات والفتن واستفحل الخلاف بينه وبين الناقمين عليه من أعيان آل كثير وعلى رأسهم ابنه الأمير عبد الله الذى كان يعارض سياسة أبيه ولا يوافق على كثير من تصرفاته ، فقرروا القبض عليه وإبعاده عن ميدان السياسة ، فدخل عليه ابنه عبد الله فى بضعة نفر وهو بحصن سيؤن فألقى القبض عليه وحبسه فى بعض حجرات القصر أياماً ، ثم نقل إلى حصن مريمة حيث تقرر اعتقاله هناك وكان ذلك فى شهر صفر سنة ٩٧٦ هـ

وأدركت أبا طويرق وهو فى معتقله علة لزم بسببها الفراش ، ولما ثقل عليه المرض أعيد إلى سيؤن بعد حوالى سنة ونصف من اعتقاله حيث أدركته الوفاة فى العشر الأواخر من شعبان سنة ٩٧٧ هـ عن خمس وسبعين عاماً قضاها فى نضال وكفاح من أجل تحقيق مطامحه الكبيرة

ومهما قيل فى أسباب فشل أبى طويرق فى إخماد الثورات التى عمت أجزاء البلاد فى النهاية ، ومهما قيل فى تعليل نقمة ابنه عبد الله وبعض الأمراء من آل كثير عليه ، فان الرجل كان ناجحاً إلى حد بعيد فى كثير من أعماله العسكرية والإدارية التى قام بها . حتى صح أن يقال إنه الحاكم الوحيد الذى استطاع أن يوحد حضرموت جميعها تحت حكمه من بين حكام حضرموت فى تاريخها الإسلامى

فقد استطاع أن يؤمن بلاده ضد الغزو الخارجى وأن يقضى على كثير من أسباب الفوضى ودعاتها فى الداخل مستعيناً فى ذلك بالأسلحة النارية التى قدمتها له الدولة العثمانية والتى مكنته من التفوق على جميع خصومه ، وكان استعمال هذه الأسلحة لأول مرة فى تاريخ حضرموت ،

وكانت طريقته فى حماية الأمن فى الداخل تعتمد على إنشاء سلسلة من مراكز الحدود مجهزة بالجنود يعمل كل منها تحت إمرة قائد حربى ، ووضع حاميات فى نقط استراتيجية مهمة فى طول البلاد وعرضها لتأمين المواصلات وإرهاب كل من تحدثه نفسه بتعكير الأمن

وإذا كانت حكومة السلطان بدر حكومة عسكرية فى جوهرها فانه لم ينس النواحى المدنية فى الإدارة ، فقد عين فيما سبق قضاة فى أهم مدن البلاد للفصل بين الناس بموجب أحكام الشريعة الإسلامية . ويقال بأن قاضيه فى الشحر العلامة الفقيه الكبير عبد الله بن عمر بامخرمة كان يعتبر بمثابة رئيس القضاة ، فتقدم اليه جميع طلبات الاستئناف من محاكم القضاة الآخرين ، كما كان مسئولا عن نواحى أخرى فى الإدارة ، فهو لذلك أول سكرتير للدولة فى حضرموت

وقد اختار أبو طويرق عاصمته مدينة سيؤن ، ثم بقيت المركز التقليدى للسلطنة الكثيرية منذ ذلك الحين إلى الآن ، وإن كان المركز الإدارى قد تحول كما يبدو فى أواخر حكم أبى طويرق إلى الشحر لأهميتها كميناء على الساحل ذات أهمية عظيمة فى السيطرة على الداخل

ولا يعرف النظام المالى الذى اعتمد عليه أبو طويرق ، وإن كان من المحتمل أنه كان يعتمد غالباً على الضرائب الجمركية ، وربما يضاف إلى ذلك الضرائب التى يفرضها قواد الحاميات على مناطقهم . وبالجملة فقد حكم أبو طويرق حضرموت حوالى ستين عاماً كانت من أخصب العهود الحضرمية بالحوادث الجديرة بعناية المؤرخين والوقوف عندها طويلا

وقد حكم البلاد بعد وفاته ابنه عبد الله بن بدر المتوفى سنة ٩٨٥ هـ ، بعد أن حارب أخاه جعفرا الذى أعلن العصيان فى الشحر واستقل بحكمها فنهض اليه وأخرجه منها ونفاه إلى قشن . ومن أشهر أبناء أبى طويرق السلطان عمر بن بدر ممدوح الأديب الشاعر الكبير عبد الصمد باكثير والمتوفى بالشحر سنة ١٠٢١ هـ . ومن أشهر مراثى عبد الصمد له قصيدته التى يقول فى مطلعها :

هوى من سماء المجد كوكبها القطب وأظلم فى أقطارنا الشرق والغرب

تضعضع طود المجد وانهدّ ركنه فيالك ركناً قد تضمنه الترب
ثوى عمر الخيرات أكرم من سعت إلى سوحه تطوى سباسبها النجب

ولعمر بن بدر ولدان هما عبد الله بن عمر جد سلاطين آل عبد الله الحاليين الذى اعتزل السلطنة بعد ثلاث سنوات من توليه ، والآخر بدر بن عمر الذى يقال انه اعتنق مذهب الزيدية . وسنتحدث عنه فى ترجمة خاصة به

(١١)

عبد الله بن عمر بامخرمة

الشافعى الصغير ـ مولده . نشأته ـ رحلاته ـ أول سكرتير للدولة

مؤلفاته ـ مقدرته الأدبية ـ أسرته ـ وفاته

الشافعى الصغير

عبد الله بن عمر بن عبد الله بن أحمد با مخرمة السيبانى الحبرى ، أحد أصحاب الكفاءات النادرة والمواهب الخارقة والقوى العقلية الممتازة فى التاريخ الحضرمى . ولقد أدهش كثيراً من معاصريه بسعة اطلاعه وكثرة معلوماته ووفرة ذكائه ، حتى قالوا عنه ما نحسبه نحن اليوم من قبيل المبالغات

فقد ذكروا أن العلامة الشيخ أحمد بن عمر الحكيم مفتى عدن ومحدثها أفتى بأن من حلف بأنه ليس فى زمان الفقيه عبد الله بن عمر با مخرمة على وجه الأرض من هو أعلم منه لم يحنث . وظاهر أن الحكيم يقصد بذلك الإشادة بغزارة مادة العلامة با مخرمة فى فقه الإمام الشافعى ، فقد كان بحق فقيهاً لا يجارى ، حتى أنه كان يعتبر من أقران ابن حجر الهيتمى صاحب التحفة وأحد عباقرة فقهاء الشافعية

كما ذكروا أن العلامة عبد الله بن عمر كان إذا دخل بلداً امتنع مفتيها عن الافتاء ما دام موجوداً بها . وكان علامة اليمن الشيخ عبد الرحمن بن زياد الزبيدى إذا استفتاه أحد من أهالى عدن بعد إقامة الفقيه با مخرمة بها أحاله عليه . وهكذا كان صاحب الترجمة معروفاً بين أهل عصره بأنه حجة يعتمد عليه فى مذهب الشافعية ، حتى لقبه الناس فى ذلك العصر بالشافعى الصغير

مولده . نشأته

ولد بمدينة الشحر فى جمادى الآخرة سنة ٩٠٧ هـ وبها نشأ وبدأ دراسته ، فحفظ القرآن الكريم وهو فى سن السابعة ، ودرس مبادىء العلوم الدينية واللغوية على علماء الشحر وعلى أبيه الصوفى الشاعر الكبير عمر بن عبد الله وعلى عمه العلامة المؤرخ الطيب باخرمة وعلى القاضى العلامة عبد الله بن أحمد باسرومى أحد علماء الشحر . وكان الأستاذ باسرومى يقول : استفدت من الفقيه عبد الله باخرمة أكثر مما استفاد منى ، وكان معظم تحصيله وجل انتفاعه بالإمام عبد القادر الحبانى ، وكان هذا الإمام يجل الفقيه عبد الله ويفضله على والده الشيخ عمر الصوفى الكبير

رحلاته

وكانت اليمن والحجاز فى ذلك العهد مورداً للعلم يفد إليها الناس من الأقطار العربية لينهلوا من معارفها وعلومها ، وقد رحل صاحب الترجمة إلى زبيـــد والحجاز لإتمام دراسته والاتصال بكبار العلماء حتى قيل إنه نبغ وتفوق فى أكثر من عشرين فرعاً من فروع العلم من بينها ـ عدا علوم الدين واللغة ـ علوم الحساب والجبر والمقابلة والفلك وشارك فى علم الطب ، وكان الفقه هو العلم الذى تخصص فيه وعرف به بين الناس حتى كان الناس يرجعون اليه لحل المشاكل ويأتون اليه من كل مكان فيجدون عنده ما يطلبون من فتاوى تسكن إليها نفوسهم وتطمئن لها قلوبهم . وقد كان عمه الطيب باخرمة يعجب بقدرته على حل غوامض المسائل والبت فى كبريات المشاكل

وكان صاحب الترجمة من الفقهاء المعتدين بأنفسهم الواثقين من ثقافتهم ، وقد منحه الله طلاقة فى اللسان وقدرة على التأثير ، وقد تقدم لمناظرات علمية مع كبار العلماء ومن بينهم العلامة الشيخ عبد القادر بن أحمد الإسرائيلى الحبانى ، ولما حج سنة ٩٤٩ هـ طاب مناظرة علامة الحجاز وأكبر فقهاء الشافعية الشيخ أحمد بن حجر الهيتمى ، وقيل ان ابن حجر أحجم عن مناظرة الفقيه الحضرمى معتذرا بما يقال عن الفقيه الحضرمى من حدة الطبع وسرعة الغضب

وأنه قد تؤثر غلبة أحدهما على الآخر فى الجماهير المتعلقة بهما فيرتاب الناس فى مقدرة المغلوب العلمية ويتشكـكون فى فتاويه

وروى أنه لما دخل الفقيه با مخرمة إلى الحرم المكى استقبل البيت الحرام وأحرم بركعتين ولم يطف ولم يتنبه من أثر الدهشة للسنة المتبعة فى تحية البيت ، وكان العلامة ابن حجر معتكفاً فى الحرم مع بعض طلبته ، فأرسل إليه ابن حجر أحد تلاميذه لينبهه ، فوقف التلميذ فى كثير من الأدب إلى جانب الشيخ وهو يصلى وأسر فى أذنه قائلا : يا شيخ ما تحية البيت ؟ فقطع الفقيه با مخرمة صلاته وشرع فى الطواف.

أول سكرتير للدولة

ولم تخفَ مواهب الفقيه با مخرمة ومقدرته العلمية على السلطان بدر أبى طويرق فصمم على الانتفاع به والاستفادة منه وولاه قضاء الشحر ومنصب الإفتاء فـكان بمثابة رئيس القضاة كما كان كاتم سر السلطان ـ سكرتيره ـ يستشيره فى شئونه الخارجية ، ويفوض إليه قراءة الأوراق الرسمية والإجابة عليها ، فـكان يجيب على الرسائل التى ترد إلى السلطان بدر من ملوك القسطنطينية ومصر والهند وأمراء الحجاز ، وهو الذى قرأ ـ فرمان ـ السلطان سليمان القانونى العثمانى للجمهور ببندر الشحر ، وكان مسئولا عن نواحى أخرى فى الإدارة كما سبق ، فهو لذلك أول سكرتير للدولة فى حضرموت

وبالرغم من حظوة الفقيه با مخرمة لدى السلطان بدر وقربه منه ، فقد كان والده الشيخ عمر ناقمـــاً على أبى طويرق حاقاً عليه ، وربما تـكلم فى بعض المجالس عن السلطان بدر بما لا يرضيه ، وقيل فى سبب ذلك أن الشيخ عمر كان حريصاً على بقاء بلدته الهجرين بعيدة عن السلطنة السكثيرية ، فنفاه أبو طويرق إلى الساحل غير مرة ، ثم رأى أن يضعه تحت مراقبته فاستقدمه إلى سيؤن حيث أقام بها إلى أن مات رحمه الله

مؤلفاته

ترك الفقيه با مخرمة آثاراً علمية قيمة تعطى القارىء صورة عن النشاط العلمى الذى كان

يقوم به صاحب الترجمة علاوة على أعماله الرسمية فى الدولة . ونحن ننقل عن المؤرخ الطيب باقتيه جانباً من مؤلفات الفقيه باخرمة كدليل على ما أشرنا إليه من مشاركة الرجل فى كثير من العلوم والفنون :

١ حاشية على أسنى المطالب شرح الروض
٢ الفتاوى الكبرى
٣ الفتاوى الصغرى الهجرينية
٤ المصباح : شرح العدة والسلاح
٥ النكت على تحفة المحتاج لابن حجر
٦ شرح الرحبية فى الفرائض
٧ شرح منظومة له فى ذوى الفروض والرد عليهم
٨ شرح منظومة له فى قسمة التركات
٩ تراجم تاريخية كتكميل لطبقات الاسنوى
١٠ شرح منظومة له فى ظل الاستواء
١١ رسالة فى علم الجبر والمقابلة تتعلق بالبيوع والضمان والإقرار والوصايا والصداق والعتق
١٢ » فى المناسك
١٣ » فى علم المساحة
١٤ » فى الربع المجيب
١٥ » فى سمت القبلة
١٦ » فى معرفة الأوقات والساعات
١٧ » فى اختلاف المطالع واتفاقها
١٨ » فى القهوة

مقدرته الأدبية

للفقيه باخرمة شعر جيد يضعه فى مصاف الشعراء الموهوبين ، وكان إلى جانب مقدرته

الشعرية حسن الإنشاء جيد الأسلوب موهوباً فى الناحية الخطابية ، وشعره مزيج من ألوان مختلفة فيها الغزل والمديح والرثاء والمواعظ والحكم وشكوى الزمان . وله شعر على يرد فيه على مخالفيه فى العقيدة . ومن أشهر مدائحه قصائده فى السلطان بدر والسلطان سند بن محمد الرداد صاحب ميفع ، وكانت بينه وبين الأديب الشاعر محمد بن أحمد با وزير البيتى مساجلات شعرية ومكاتبات نثرية كما أشار إلى ذلك المؤرخ الطيب با فقيه

ومن جيد شعره قصيدته التى يقول فى مطلعها :

مثلى يصان مدى الأزمان جانبه ولا يروّعه دهر يحاربه

والتى يقول فيها :

أنا الذى السعد والعلياء تخدمنى وطالع المجد فى بيتى وغاربه
من معشر زان فى الآفاق نعتهم كالدر ينظمه فى السمط ثاقبه
من كل مضطلع بالعلم متصف بالجود تهمى على الدنيا سحائبه
وكل طود من الأمجاد تحسبه إذا تكلم بحراً هاج صاخبه
لا يخضعون لجبار أخافهم قد رجّت الأرض من شرّ كتائبه
ولا يدينون فى سر ولا علن إلا بحق بدت صحواً مذاهبه
أبدى التغابى عن أشياء أعلمها كالسيف لان وقد حزت مضاربه

وله من مطولة فى الدفاع عن الأشاعرة :

أخطأت فى ذم الإمام وحزبه فهم دعاة الحق للرحمن
لولا الإمام الأشعرى ونصره للسنة البيضاء كل أوان
لعلا الفلاسفة الطغاة ظهورنا وتلاعبوا بالدين والإيمان
لكنّ ألسنهم وأقلاماً لهم أزرت بكل مهند وسنان

ويقول مضمناً الشطر الأخير :

قالت أراك من الذكا فى غاية جلّت عن الإسهاب والإطناب

فعلام تبدى فى الأمور تغابياً فأجبت سيد قومه المتغابى

وقال معرضاً بفقره :

وعاذلة أبدت لفقرى توجعاً وقالت أتاك الفقر من جانب الندا
فقلت لها لا تطمعى فى تغيرى لكل امرىء من دهره ما تعوّدا

ويشير إلى الظروف التى اضطرته مرغماً للرحيل عن حضرموت والإقامة بعدن فى آخر حياته :

فوالله ما جانبت أرضى عن قِلىً ولكن عجزى عن حقوق لوازم
وما العذر لى إن كنت عند قرابة يرجون نفعى من فقير وغارم
وما أشتهى طول الحياة للذة يعيش ذوو اللذات عيش البهائم
ولكن لكسب المجد ما عشت والثنا ونفع الورى طراً وبذل المراحم

أسرته

قلّ أن يجتمع فى أسرة من الأسر عدد من الشخصيات العلمية البارزة يعيشون فى عصر واحد تقريباً ، وإذا تم ذلك فلن يكون بمحض الصدفة ، وإنما نتيجة للتربية الحكيمة والمؤثرات الخاصة التى تحيط بالأسرة . وأسرة صاحب الترجمة غنية بالفضل والأدب والعلم إلى درجة تلفت الأنظار وتبعث على الإعجاب ، وإنها لجديرة بالدراسة العميقة من علماء الاجتماع للوقوف على جذور هذه الظاهرة الاجتماعية وآثارها فى المجتمع . وتاريخ حضرموت حافل بالأمثلة فى كثير من أسر السادة العلويين والمشايخ وغيرهم

ولنأخذ أسرة صاحب الترجمة على سبيل المثال :

(١) والده العلامة الصوفى الشاعر الكبير عمر بن عبد الله المتوفى سنة ٩٥٢ هـ وهو شاعر مكثر وله ديوان ضخم ومنثور جيد على أسلوب الصوفية

(٢) جده العلامة الفقيه مفتى عدن ومدرسها عبد الله بن أحمد المتوفى سنة ٩٠٣ هـ ، تولى قضاء عدن وله مؤلفات قيمة

(٣) عمه الفقيه المؤرخ الطيب بن عبد الله المتوفى سنة ٩٤٧ هـ فى عدن ، وله مؤلفات تاريخية منها :

النسبة إلى المواضع والبلدان ، وكتاب ثغر عدن . وقد تولى قضاء عدن سنة ٩٣٤ هـ

(٤) عمه الفقيه أحمد بن عبد الله بن أحمد المتوفى سنة ٩١٠ هـ كان فقيهاً بارعاً فى علوم كثيرة وخصوصاً فى علم الفرائض والحساب

(٥) ابن عمه الفقيه القاضى محمد بن الطيب توفى سنة ٩٣٣ هـ

(٦) ابن عمه الخطيب المحدث الفقيه عبد الله بن الطيب توفى سنة ٩٧٥ هـ

(٧) عمه عبد الله بن عبد الله المتوفى بحرض من أرض اليمن . كان ذا كاء مفرط . وله معرفة باللغة والنحو ، وله ديوان شعر جيد

(٨) محمد بن عمر قضام بالمحرمة يجتمع فى الأب السادس مع الفقيه عبد الله بن أحمد كان فقيهاً بارعاً توفى سنة ٩٥١ هـ

وفاته

قضى صاحب الترجمة الجانب الأكبر من حياته فى حضرموت متخذاً من مدينة الشحر مقراً لإقامته وسكناه ، ثم انتقل إلى عدن فى آخر سنى حياته حيث تولى هناك منصب الإفتاء ونظارة الأوقاف ووظائف التدريس فى المدرسة الطاهرية والمدرسة المنصورية والمدرسة الفرحاتية ، وكان يعقد دروساً عامة للجماهير فى الجامع

وكذلك استمر مباشراً وظائفه العلمية مقبلا على التأليف والإنتاج الفكرى والدعوة إلى الله وبث تعاليم الدين الإسلامى ، إلى أن وافاه أجله فى العاشر من شهر رجب سنة ٩٧٢ هـ ودفن عند مشهد الشيخ جوهر المعروف بعدن

— ١٢ —

محمد بن عمر بحرق

مولده ـ دراسته ـ آثاره العلمية والأدبية ـ نشاطه فى المجتمع

رحلته إلى عدن والهند ـ وفاته

مولده . دراسته

محمد بن عمر بحرق . أحد العصاميين النوابغ الذين يصلون إلى المجد والشهرة لا عن طريق النسب والوراثة بل عن جدارة واستحقاق ، وبواسطة الكفاءة وحسن الاستعداد ومواصلة الكفاح ، وهو حميرى النسب . ولد بمدينة سيؤن فى ١٥ شعبان سنة ٨٦٩ هـ ، وبها نشأ وفيها وفى غيرها من مدن حضرموت درس وتعلم

بدأ دراسته بحفظ القرآن الكريم ثم بدراسة علم الفقه والأصول وقواعد اللغة على جماعة من كبار علماء عصره . من أشهرهم العلامة الفقيه محمد بن أحمد با جرفيل أحد البارزين من علماء غيل با وزير والمقبور بجوار ضريح الشيخ عبد الرحيم بن عمر با وزير فى الغيل . ثم ارتحل صاحب الترجمة إلى عدن ولزم العلامة عبد الله بن أحمد با مخرمة وأخذ عنه الفقه والأصول وعلوم العربية والتاريخ وسمع عليه عدة علوم أخرى ، كما أخذ أيضاً عن العلامة الفقيه محمد بن أحمد با فضل ، ثم ارتحل إلى زبيد كعبة العلم اليمنية فى ذلك العهد ، فأخذ الحديث والتفسير والنحو عن العلامة الصائغ والتصوف عن السيد حسين الأهدل ، كما درس التصوف أيضاً على أستاذه الكبير الشيخ أبى بكر بن عبد الله العيدروس . وغادر البلاد اليمنية إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج وسمع من كبار علمائها منهم الحافظ السخاوى وقد ترجم له هذا فى كتابه ـ الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ـ وذكر أن الأستاذ بحرق تزوج فى زبيد ابنة حمزة الناشرى وأنجبت له

آثاره العلمية والأدبية

أنفق الأستاذ بحرق زهرة شبابه فى الجد والتحصيل والإكباب على الدرس والمطالعة والتنقل فى البلدان لطلب العلم والاتصال بالعلماء، حتى ظهرت مواهبه ونضج تفكيره واتسعت معلوماته، فأصبح أحد العلماء النوابغ الذين يشار إليهم بالبنان، وقد كان بجانب معرفته بالفقه وعلوم الدين أديباً شاعراً كاتباً خصب القريحة، كثير الانتاج. وقد ذكر المؤرخون من مؤلفاته أكثر من ثلاثين كتاباً فى علوم التوحيد والفقه والتصوف وعلم القراآت والنحو والصرف والطب والحساب والميقات والعروض وغيرها، وبعض هذه الكتب مطبوع يتداوله الطلبة فى المعاهد الدينية لسلاسة تعبيرها وحسن ترتيبها، وهى تعطينا صورة عن أسلوب صاحبنا العلمى فى الكتابة

ونحن نورد هنا جانباً من أسماء هذه المؤلفات نقلا عن المؤرخ الطيب بافقيه :

١ عقد الدرر فى الإيمان بالقضاء والقدر
٢ ذخيرة الإخوان من كتاب الاستغناء بالقرآن
٣ العقد الثمين فى إبطال القول بالتقبيح والتحسين
٤ الحسام المسلول على منتقصى أصحاب الرسول
٥ التبصرة الأحمدية فى السيرة النبوية
٦ تجريد المقاصد عن الأسانيد والشواهد
٧ حلية البنات والبنين فيما يحتاج إليه من أمر الدين
٨ العروة الوثيقة فى الشريعة والطريقة والحقيقة ـ نظم ـ
٩ الحديقة الأنيقة فى شرح العروة الوثيقة
١٠ العقيدة الشافعية فى شرح القصيدة اليافعية
١١ الحواشى المفيدة على أبيات اليافعى فى العقيدة
١٢ النبذة المختصرة فى معرفة الخصال المكفرة للذنوب

١٣ متعة الأسماع بحكم السماع
١٤ ترتيب السلوك إلى ملك الملوك
١٥ مختصر نهاية الناشرى فى علم القراآت
١٦ شرح الجزريّة فى علم التوحيد
١٧ رسالة فى إثبات رسالة هرون وكفر فرعون
١٨ شرح ملحة الإعراب فى النحو للحريرى
١٩ فتح الرءوف فى شرح منظومته فى معانى الحروف
٢٠ فتح الأقفال فى شرح أبنية الأفعال
٢١ أرجوزة فى الطب وشرحها
٢٢ أرجوزة فى علم الحساب وشرحها
٢٣ مختصر الخلاصة لابن مالك
٢٤ رسالة فى علم الميقات
٢٥ مختصر شرح الصفَدى على لامية العجم
٢٦ البهجة فى تقويم اللهجة
٢٧ شرح على منظومة فى العروض
٢٨ مختصر الأذكار
٢٩ مختصر الترغيب
٣٠ مواهب القدوس فى مناقب أبى بكر العيدروس

وللفقيه بحرق آثار أدبية جيدة بجانب آثاره العلمية ، فقد حفظ لنا التاريخ نماذج حسنة من شعره فى المدح والفخر والوصف والرد على مخالفيه فى العقيدة وغير ذلك من أغراض الشعر ، وهو فى هذه الأبيات يتحدث ـ واثقاً مما يقول ـ عن مقدرته الشعرية وقد ردّ بها على بعض الأدباء المتحنين له :

قسما بآيات البديع وما حوى من صنعتيه موشحاً ومسلسلا

لو كنت مفتخراً بنظم قصيدة لبنيت فى هام المجرة منزلا
من كل قافية يروق سماعها وتعيد سحبان الفصاحة باقلا
ويُرىٰ لَبيدُ بها بليدا قالُه حَصرا ويثقاب الفرزدق أخطلا

ومنها :

أظننتَ أن الشعر يصعب صوغه عندى وقد أضحى لدى مذللا
أبدى العجاب إذا برزت مفاخراً أو مادحاً للقوم أو متغزلا
لكننى رجل أصون بضاعتى عمن يلوم بخسها متبذلا
وأرى من الجرم العظيم خريدة حسنا تزف إلى اللئيم وتجتلى
ما كنت أحسب عقربا تحتك بالأ فعى ولا هيفا تزاحم بُزّلا
وأنا الغريب وأنت ذاك وبيننا رحم يحق لمثلها أن توصلا

وقال فى قصيدة يمدح بها السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى حين شروعه فى بناء مدرسة زبيد :

أبى الله إلا أن تحوز المفاخرا فسماك من بين البرية عامرا
عمرت رسوم الدين بعد دروسها فأحييت آثار الإله الدَّوائرا
فأنت صلاح الدين لاشك هذه شواهده تبدو عليك ظواهرا

وروى أنه لما اطلع على هذين البيتين لأحد المعتزلة يعرض فيهما بمذهب أهل السنة فى خلق أفعال العباد وهما :

زعم الجهول ومن يقول بقوله أن المعاصى من فعال الخالق
إن كان حقاً ما يقول فلم قضى حدّ الزناء وقطع كف السارق

ردّ عليه الفقيه بحرق بقوله :

يا تائهاً جعل القضاء مطابقاً للأمر جهلا وهو غير مطابق
إن القضاء أعم إذ ما كل ما يقضى الإله لأمره بموافق

فالحد مشروع لعاصى أمره وقضاؤه لا عذر فيه لفاسق

نشاطه فى المجتمع

بعد أن أدرك الأستاذ بحرق حظاً كبيراً من العلم تفرغ فى وطنه لخدمة بلاده ونشر الثقافة بين أبنائها ، فتصدى للتدريس والإفتاء ، ثم تولى قضاء الشحر فصدع بالحق ، وطبق أحكام الشريعة ، وانطلقت الألسنة بالثناء عليه لما عرف به من العدل والإنصاف وكرم الأخلاق ، ثم حدث خلاف بينه وبين الأمير مطران بن منصور حاكم الشحر من قبل سلطان آل كثير فاستقال متذمراً من تدخل الأمير مطران فى شئون القضاء

ومن الأمثلة على صراحته فى الجهر بالحق ـ ولو على نفسه ـ ما حدث من اختلاف فى مسألة فقهية بينه وبين العلامة الفقيه عبد الله بن محمد بن عبسين أحد كبار علماء الشحر حتى طال الجدل بينهما وتحدث الناس بذلك ، فجاء ابن عبسين ذات يوم يحمل إلى الفقيه بحرق كتاب الروضة للإمام النووى وهذا الكتاب أحد المراجع الفقهية المعتمدة عند الشافعية وفيه نص صريح يؤيد الرأى الذى ذهب إليه ابن عبسين ، فاعترف الفقيه بحرق ورجع عن رأيه الذى كان يناضل دونه وشكر لابن عبسين حرصه على تحرى الحقائق والبحث عن الصواب . ثم قصد الجامع وصعد المنبر وخطب فى الناس شارحاً لهم مسألة الخلاف بينه وبين العلامة ابن عبسين . ثم قال : لقد وجدت الحق معه وأشهدكم انى رجعت عن قولى

وفى هذا دليل على قوة الشخصية ومتانة الخلق والشجاعة الأدبية واحترام النصوص العلمية وعدم المكابرة فى الحق . وقد تحدث الناس بهذه الحادثة مكبرين فى العلامة بحرق سمو أخلاقه وجهره بالحق على نفسه

وقد اكتشف السلطان بدر أبو طويرق هذه المزايا الخلقية فى شخص العلامة بحرق ورأى فيه من الكفاءة لتولى الأعمال الحكومية ما جعله يدنيه إليه ويصطفيه ليستغل مواهبه فى تصريف أعمال حكومته . وقد برهن الأستاذ بحرق فى هذه الأعمال التى وكلت إليه عن حسن تصرف ورجاحة عقل ونفاذ بصيرة ودل بذلك على كفاءة رجل الدين الحضرمى وصلاحيته

للاشتراك والمساهمة فى الأعمال الإدارية والسياسية

فقد تحدث التاريخ أن العلامة بحرق كان أحد قواد الحملة التى جهزها أبو طويرق على المهرة فى رمضان سنة ٩٥١ هـ وكان جنود هذه الحملة من أبطال نهد والشحابلة ويافع وبنى حسن ، وقد استولت على قشن حيث بقى الفقيه بحرق عاملا عليها من قبل السلطان بدر بالاشتراك مع الأمير أحمد مطران

وقد كان الأستاذ بحرق عاملا على حضرموت الغربية وهو الذى قمع ثورة آل عامر فى الهجرين وآل محاشن فى هينن ، كما كان عاملا على منطقة الكسر يساعده الأمير عنبر التركى وكان ذلك بعد عودة أبى طويرق من شبوة ويشبم التى ذهب إليها لتأديب بعض الخارجين على ابن عبد الواحد أمير حبان

رحلته إلى عدن والهند

وتقلبت الأيام بصاحبنا الفقيه بحرق وحدثت أمور وجدّت أحوال فساءت حالته المالية ، واضطر إلى مغادرة الشحر إلى عدن حيث أقام بها مدة من الزمان فى رعاية أميرها مقبلا على نفع الناس بالتدريس والإفتاء والتأليف ، ثم سافر إلى الهند بعد وفاة صديقه أمير عدن ، وهناك اتصل برجال دولة الدكن وأعيانها ، وكان السلطان المظفر من أشد المعجبين به وقد قربه وبالغ فى إكرامه واحترامه

وقد نقل صاحب السناء الباهر عنه هذه الحادثة الغريبة فقال : انه كان ذات يوم فى مجلس أحد وزراء الهند وكان فيه أحد السحرة المشهورين ، فحدث أن تحرك ذلك الساحر من مكانه ثم ارتفع فى الجو وقعد فى الهواء فرمى إليه الفقيه بحرق باحدى نعليه فما زالت تضربه على رأسه إلى أن عاد إلى مكانه فى الأرض . وإذا كنا لا نستطيع أن نتأكد من صحة هذه الحادثة ، فانه من المعلوم أن أعمال السحر والشعوذة وظواهرها الغريبة منتشرة فى الهند بكثرة ولا يزال السحرة والمشعوذون فى الهند يأتون من الأعمال ما هو أشد دهشة وأكثر غرابة من حادثة الفقيه بحرق

وفاته

وظل صاحبنا مقيما فى الدكن موضع احترام السلطان والأهالى ، حتى وقف له بالمرصاد حاسد هندى اسمه ـ خداوند ـ بذيع عنه المفتريات ، فاضطر للرحيل عنها إلى كباية من أرض الهند أيضاً حيث مات هناك مسموماً من قبل بعض حساده كما تقول بعض الروايات بسبب حظوته عند أولى الشأن هناك . وهكذا قضى العلامة بحرق نحبه غريباً بعيداً عن أهله ووطنه عليه رحمة الله ورضوانه

(١٣)

عثمان بن أحمد العمودى

نسبه ـ العمودى الأول ـ بطل الوادى ـ حروبه مع أبى طويرق ـ أبو طويرق يهاجم
قيدون ـ حصار مدينة بضة ـ العمودى يحاصر شبوة ـ وفاة صاحب
الترجمة ـ آل العمودى وأئمة اليمن ـ ابن مطهّر وعيسى بن
بدر ـ الخلاف بين آل العمودى

نسبه

عثمان بن أحمد بن محمد بن عثمان بن عمر بن محمد ابن الشيخ سعيد بن عيسى العمودى الذى يرفع الأكثرون نسبه إلى الخليفة الأول أبى بكر الصديق التيمى القرشى . بينما يقول البعض إن نسب آل العمودى يتصل بحمير لا بقريش

العمودى الأول

والشيخ سعيد بن عيسى الذى ينتسب إليه آل العمودى قاطبة ولد سنة ستمائة هجرية فى مدينة قيدون بدوعن ، وتلقى علومه بواسطة الأخذ الشفهى والسماع ، فقد كان أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه كان من ذوى العزائم والجلد على الرياضات الروحية وسلوك طريق الصوفية . وقد استطاع هذا الأمّى بفضل شخصيته الموهوبة ومجاهداته أن يخلق له مكانة مرموقة بين العلماء ورجال الدين والصوفية فى عصره ، وأن يحشد حوله الأنصار والمريدين ، وأن يكون أحد أعلام الدعاة إلى الله بين البادية وغيرهم ، وأن يؤسس له فى دوعن نفوذاً روحيا تطور على مدى الزمن حتى أصبح نفوذاً سياسياً لعب دوراً مهما فى تاريخ البلاد

وينقل السيد عبد الرحمن بن عبيد الله فى تاريخه « البضائع » أن الشيخ سعيد بن عيسى

والفقيه المقدم كانا أول من تصوف بحضرموت ، بمعنى أنهما أول من سلك طريق الصوفية بالفعل ومشى عليها بالحال ، وإلا فقد كان التصوف ـ هكذا أضاف ابن عبيد الله ـ مشهوراً بينهم مقروءة كتبه فى مدارسهم وان منهم لمن قرأ قوت القلوب عن مؤلفه بمكة

أخذ التصوف عن الشيخ عبد الله المغربى المتوفى ببلدة كَنَيْنَة . ثم أخذ عن الفقيه المقدم محمد بن على ، وعن الشيخ عبد الله بن محمد با عباد صاحب شبام . ومن تلاميذه الشيخ عمر بن محمد بن أبى النشوات الكندى جد آل با سودان بدوعن ، والشيخ محمد بن سلمة بن عيسى ابن سلمة با كثير ، وكثيرون تركوا البادية بسبب دعوته وصاروا مشايخ علم وفضل بعد البداوة والجهالة ، وكانت له صلة بالشيخ محمد بن سالم با وزير مولى عرف

وكان الشيخ سعيد بن عيسى مكثراً من الطاعة والصلوات حتى قيل انه سمى لذلك ـ عمود الدين ـ لأن الصلاة هى عماد الدين ، وكان كثير التهجد بالليل مجبولا على التواضع وكرم النفس ودماثة الخلق والحلم والرحمة بالضعفاء ، كما كان كثير التنقل فى المدن والقرى وأودية البادية من وادى عمد غرباً إلى وادى هود شرقاً للدعوة إلى الله وتعليم البادية ، وعرف عنه تمسكه بآداب الصوفية وتخلقه بأخلاقهم . وقد سأله ذات يوم العلامة الشيخ أحمد بن أبى الجعد عن حال الشيخ من الصوفية فقال :

« حرام على الشيخ النجاح إذا رضى أن يقال له يا شيخ ، بل لا بد للشيخ أن يكون جوّال الفكرة جوهرى التفكير جميل المنازعة كريم المراجعة عظيم الحلم كثير العلم واسع الصدر ، يذكر الغافل ويعلم الجاهل ، لا يشتم بمصيبة ولا يذكر أحداً بغيبة ، مأموناً على الأمانات بعيداً عن الخيانات ، لا يجهل على من جهل عليه ، مسروراً بمن أتى إليه ، أنساً للغريب ، عوناً للمسلمين فى كل أمر نعيب ، أباً لليتيم معيناً للضعفاء محزوناً قلبه مسروراً بربه مستوحشاً من أهل الدنيا ، لا يبخل ولا يعجل ولا ينتصر ولا يغتاظ ، بل يحلم ويصفح ، ولا يخوض فيما لا يعنيه ، إن شُتم لا يشتم ، وإن سئل لم يمنع ، وإن منع لم يغضب ، ألين من الزبد وأحلى من الشهد ، قريباً من الخير وأهله ، بعيداً عن الشر وأهله ، عالماً بأصول الدين وفروعه »

وتوفى الشيخ سعيد بن عيسى بقيدون سنة ٦٧١ هـ ودفن بجانب مسجده بعد أن وضع حجر الأساس لتاريخ آل العمودى الحافل بالشخصيات والتضحيـــات والمطامع والحروب والسيطرة والنفوذ، وقد خلف الشيخ سعيد فى مركزه بقيدون ابنه محمدا يستقبل الضيوف والزوار ويعمل لتثبيت هذا المركز وتلك الوجاهة فى نفوس الناس، وتوارث هذا المنصب أولاده وأحفاده ولم يألوا جهداً فى التحلى بالعلم وكرم الأخلاق، فازداد إقبال الناس عليهم والتف حولهم رؤساء القبائل وكثير من حملة السلاح

وربما بلغت قيمة النفوذ الروحى عند آل العمودى فى يوم ما حدّا جعلهم لا يشعرون بأية سلطة سياسية يدينون بها بالولاء والطاعة. ولهذا فكروا فى الاستقلال السياسى وبسط نفوذهم المادى إلى جانب النفوذ الروحى، وكانت الفوضى التى تعيش فيها البلاد تشجع الطامحين الطامعين كما أشرت إلى ذلك غير مرة فى فصول سابقة

ونحن لا نعرف اسم العمودى الأول الذى حدث نفسه باستعمال القوة لإعلان نفوذه السياسى، غير أننا نجد فى التاريخ أن عبد الله بن عثمان بن سعيد العمودى استولى على الخريبة فى دوعن ووادى ليمن جميعه سنة ٨٣٧ هـ أى بعد حوالى مائة وسبعة وستين عاماً من وفاة الجد الأول لآل العمودى، ومن المحتمل جداً أن يكون قبله من أسلافه من حاول محاولات أقل خطراً من احتلال واد بأكمله ومهد لمن جاء بعده التوسع فى الاستيلاء

وآل العمودى من أصحاب النفوذ الروحى الذين حملوا السلاح وظلوا متشبثين به كوسيلة لحفظ مركزهم والدفاع عن مصالحهم، وربما كانت مطامحهم السياسية أو الظروف التى زجت بهم فى ميدان السياسة من أهم العوامل التى دفعت بهم إلى التشبث بحمل السلاح إلى هذا العهد حيث كانت العصبية القبلية وحدها هى التى تقوم فى الغالب مقام التجنيد لحفظ ما تحت سيطرتهم من مناطق، وحيث لا يمكن الاطمئنان إلى ولاء القبائل الأخرى التى كثيراً ما تنقض ولاءها لأتفه الأسباب

بطل الوادى

والعمودى الذى يتولى مشيخة قيدون وتزعم الحركات بها يكون ـ عادة ـ من الفقهاء ورجال الدين ، فقد كان متوليها الشيخ عمر بن أحمد ـ شقيق صاحب الترجمة ـ من كبار أهل العلم المشهود لهم بسعة الاطلاع . وقد تولى المشيخة بعد أبيه على طريقة سلفه . فلما رأى اضطراب الأمور وتحول ذلك النفوذ الروحى إلى سلطة سياسية فضل الخروج من الميدان وترك الأمر لأخيه عثمان ، ويقال بأن العامة فى دوعن كرهته وعزمت على قتله لأنه كان لا يحابى أحداً ولا يحسن المداراة ، وحمل الناس على تنفيذ القانون الشرعى بكل شدة وصرامة ، فاعتزل السياسة وذهب إلى الحجاز حيث توفى بالقنفذة ، مرجعه من الحج سنة ٩٤٧ هـ

وعلى هذا يكون الشيخ عثمان بن أحمد قد آلت إليه مشيخة قيدون وتزعم الشئون السياسية والحركات الحربية لآل العمودى فى دوعن فى النصف الأول من القرن العاشر عقب اعتزال أخيه عمر حكم الوادى وسياسته ، وإذا قلت ان هذا الرجل هو بطل وادى دوعن الأول من آل العمودى ، فليس فى ذلك شىء من المبالغة . لقد قضى الجانب الأكبر من حياته يبذل الجهود المضنية ويقوم بالمغامرات الخطيرة ويحشد الجموع ويؤلب القبائل حتى كان أبرز رجال السلطة فى ذلك العهد بعد أبى طويرق وأشدهم بأساً وأكثرهم قوة . ولقد لقى السلطان بدر أبو طويرق منه أشد العناء وقاسى بسببه كثيراً من المتاعب دون أن يستطيع التغلب عليها

حروبه مع أبى طويرق

قلنا إن الشيخ عثمان العمودى كان خصم أبى طويرق العنيد الذى عارضه فى سياسته وألّب عليه القبائل وأثارها عليه حرباً شعواء لا تهدأ إلا لتستعيد نشاطها من جديد ، وكان أبو طويرق يعلم حق العلم خطر العمودى على سياسته ، فأعد كل ما فى استطاعته من قوة مصمماً على سحق منافسه الخطير والقضاء عليه ، ولكن سياسته فى هذه الناحية منيت بالفشل وتحطمت قواته أمام معنوية العمودى التى لم تؤثر عليها تلك البنادق الجهنمية التى كان يتسلح

بها جنود بدر والتى أمدهم بها مصطفى أغا قومندان الأسطول التركى

وعند ما رضخ أبو طويرق لسلطان الأتراك وأعلن تبعية بلاده لسليمان القانونى عاهل الترك ، أعلن العمودى عدم موافقته على هذا التصرف وانحاز إلى إمام الزيدية فى اليمن وكوّن بذلك جبهة سياسية تعارض سياسة أبى طويرق وظل خلفاؤه من آل العمودى موالين لأئمة اليمن الزيود مدة حكمهم السياسى فى دوعن على العكس من سلاطين آل كثير الذين لم تكن علاقات بعضهم بأئمة اليمن ودية

ولم يكن موقف العمودى من أبى طويرق موقف المدافع الذى يقنع بالسلامة متى خلى سبيله وترك له ما تحت يده ، بل كان يبادئه بالهجوم ويشن عليه الغارات فى الساحل والداخل فقد أغار مرة على تبالة من ضواحى الشحر فى جمادى الآخرة سنة ٩٣٨ هـ ، وكان بها أموال لتجار الشحر حصّنوها فيها خوفاً من هجمات البرتغاليين ، وفيها جوخ وزئبق ومرجان وبضائع أخرى ثمينة ، فأخذ العمودى تلك الأموال جميعها وعاد بها إلى دوعن . واستولى عقب ذلك على القرين وبقيـــــة بلدان أبى طويرق فى الوادى الأيمن . ثم انصرف إلى الوادى الأيسر واستولى عليه جميعه

وأرسل مرة أخرى جنداً بقيادة أخيه عبد الله لمهاجمة الشحر فوصلوا إلى قُوّة وأتلفوا بعضاً من النخيل واشتد خوف أهالى الشحر وغيل با وزير منهم ، ولكن الجند العمودى عاد إلى دوعن لأسباب حربية بعد ما صالحه أهالى قوة على مال

لم يكفّ العمودى عن إثارة القبائل ضد أبى طويرق ، فقد أثار با حكيم فى القزة وأثار آل با مشموس فاستقلوا بحجر واتفق مع رؤساء نهد على أن يجمعوا له خيلا كثيراً وجنداً كثيفاً وتعهد بأن يدفع هو أكثر نفقات الجيش . فاجتمع لديه عدد كبير من الجنود هاجم بهم المناطق الغربية للسلطنة الكثيرية وحاصر شبوة . ثم استطاع أن يغرى كثيراً من قبائل البادية والعوامر والشنافر بالثورة ، فاستولت القبائل المتحالفة على بور وحاصروا هين وأغاروا تحت شبام كما هاجموا تريم أيضاً وهكذا كان العمودى مبعث قلق وإزعاج شديدين لابى طويرق

ابو طويرق يهاجم قيدون

وقد اضطر أبو طويرق أثناء حروبه مع العمودى أن يهاجم مدينة قيدون التى ينظر إليها الناس نظرة تقديس بفضل وجود جثمان الشيخ سعيد بن عيسى بها ، فنهبها جنده وخربوا كريفها ـ خزان الماء ـ وفتكوا بأهلها فتكا ذريعاً حتى خرج النساء والصبيان هاربين لائذين بالمسجد الجامع من فظائع الجند . وقد احتل الجيش مدينة قيدون وظل فريق من حاميتها متحصناً فى حصن قيدون المنيع ، فحاصرته الجنود الكثيرية مدة حتى وصلت أكياس من النقود أرسلها الباشا التركى من عدن فأدخلت إلى قيدون فى مهرجان عظيم ، وأبرقت عينا رئيس الجند العمودى للنقود فلم يلبث أن انحاز إلى السلطان بدر وغدر بالعمودى

ورأى أبو طويرق أن يخلى قيدون من السكان فنقل التجار أولا إلى صيف ثم نقل بقية الأهالى حتى لم يبق بها إلا ست عائلات فى ستة بيوت . وهكذا لم تقف حرمةُ مدينة قيدون وقداستها حائلا بين أبي طويرق وبين تنفيذ أغراضه الحربية

وفى ذى القعدة من سنة ٩٤٩ هـ حاول أبو طويرق أن يهاجم العمودى فى بضة مقر سلطته فلم يستطع ، لأن العمودى بنى حصناً فى مدخل الوادى وشحنه برماة البنادق فعاد ، السلطان بدر بطريق ريدة يا مسدوس ونزل إلى الوادى من عقبة الخريبة ومعه جند ليس بالقليل بينهم مائة وستون فارساً فخرب ساقية بضة بعد معركة قتل فيها عدد من الفريقين وبنى عليها ثلاثة حصون ، وترك فيها حاميات أمرهم بأن يحولوا دون كل محاولة لعمارة الساقية . ثم عاد إلى وادى حضرموت فى ذى الحجة من ذلك العام

حصار مدينة بضة

وفى شعبان من سنة ٩٥٥ هـ حاصرت جماعة من جنود السلطان بدر مدينة بضة وكانوا تحت قيادة الأمير يوسف التركى والأمير على بن عمر الكثيرى وأخذوا يرمونها بالمدافع ، وكان ذلك بعد انتقاض الصلح بين الفريقين الذى كان من أسبابه أن الفقيه بحرق عامل بدر على منطقة الكسر قبض على أبناء آل عامر فى هينن وسجنهم بالهجرين وأرسل يخبر بذلك

السلطان بدر وكان إذ ذاك فى مدينة الشحر ، واتفق ان كان لديه جماعة من آل عامر على رأسهم ثابت بن على بن فارس وريّس بن محمد بن على بن فارس ، فأمر بأخذ خيلهم ، وعلموا بذلك فهربوا قبل أن يتمكن من القبض عليهم

فكان ذلك سبباً فى انتقاض الصلح واضطراب الحبل ، واجتماع العمودى وآل عامر وآل عبد العزيز والعوامر والشنافر ضد السلطان بدر واستيلائهم على بور ومهاجمتهم تريم كما سبق ، وكان ذلك أيضاً من بواعث هياج آل عامر الذين هاجموا هينن وزحفوا إلى بضة لفك الحصار عنها ، وقد استطاعوا بمساعدة عساكر العمودى أن يفرقوا الجنود المحاصرين للمدينة بعد معارك قتل فيها عدد من الفريقين

العمودى يحاصر شبوة

وهاجم العمودى صيف وفرق عنها عساكر السلطان بدر ، ثم سار الى حبان فأصلح بين قبائلها ، ثم اتفق مع ثابت بن على بن ثابت ومحمد بن على بن سليمان وجمعوا خيلا كثيراً وجنوداً تمهد العمودى بأكثر نفقاتهم واتجه بهم نحو شبوة لحاصرها أشد الحصار . وقد حاول الأمير على بن عمر عامل بدر فى شبوة فك الحصار فلم يفلح لأن قوات العمودى ونهد المحاصرة كانت من القوة بحيث لا يمكن التغلب عليها

وفى رجب سنة ٩٥٦ هـ اضطر السلطان بدر لأن يعقد صلحاً مع العمودى حيث فشلت كل المحاولات للقضاء على سلطته وكان ذلك آخر صلح عقد بين الفريقين امتد إلى أن ألقى القبض على أبى طويرق وزجّ به فى المعتقل . وكان كل صلح يعقد قبل ذلك يعقبه اشتعال نار الفتنة من جديد

وفاة صاحب الترجمة

توفى الشيخ عثمان بن أحمد العمودى بعد حياة زاخرة بالكفاح والنضال ، تاركا لخلفائه من بعده مهمة المحافظة على ذلك التراث الذى أراق من أجله الدماء وبذل الجهود . ولم تشر المصادر التى بين أيدينا إلى تاريخ وفاته ، ولكنها تذكر أن حرباً نشبت بين السلطان عمر

ابن بدر أبي طويرق وبين الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله العمودى الذى يلى مشيخة قيدون فى حدود سنة ألف وأربعة عشر . وعلى هذا يكون صاحب الترجمة قد توفى قبل ذلك التاريخ

وإلى الشيخ عثمان يشير الشاعر الصوفى الكبير عمر بامخرمة بقوله :

يا عوض قل لمن كفّه غياث المساكين قل لعثمان وافى الذرع شمس البراهين

وقد سجل الشيخ عبد الصمد باكثير شاعر السلطان عمر بن بدر تلك المعركة التى دارت بين الوجيه الشيخ عبد الرحمن العمودى والسلطان عمر بن بدر فى قصيدة طويلة منها هذه الأبيات :

جَرّ الوجيه خميساً من عساكره مذ جَرّه التيه والطغيان والغرر
فجندوا جندهم بالفيل إذ عميت أبصار أفكارهم هذا هو الخطر
حتى رماهم أبو بدر وسوقهم بجحفل قاده التأييد والظفر
ظلت أسود الشرى حشو الدروع على الجرد المذاكى ونار الحرب تستعر
تفرى جماجمهم ضرباً وتوسعهم طعناً فكم صرعوا قتلى وكم أسروا
وللبنادق وقع فى عساكرهم وللنحور فيا لله كم نحروا
والترك لم يتركوا رأساً على جسد ولا بضرب القصيرى منهم اقتصروا
لله بالنقمة الغراء معترك دُمْنَا الأعادى به والنقع معتكر
فكان أسعدهم من فر منهزماً يبغى النجا حيث لامنجى ولا وزر

وهذه القصيدة تذكر الموضع الذى دارت فيه المعركة ـ النقمة ـ والبلدة التى تجمع فيها جنود العمودى ـ الفيل ـ وتشير إلى اشتراك الأتراك فى هذه الحرب ضد العمودى وانتهاء المعركة بهزيمة جيش الوجيه وقتل بعضهم وأسر البعض الآخر . وإن كان الشاعر فى سرده للحادثة يعبر عن وجهة نظر السلطان عمر بن بدر فقط وينظر إليها من زاوية واحدة

آل العمودى وأئمة الزيود

قلنا فيما مضى : إن الشيخ عثمان العمودى انحاز إلى إمام الزيدية فى اليمن وكوّن بذلك

جبهة سياسية تعارض سياسة أبي طويرق الذى أعلن تبعية بلاده للخلافة العثمانية ، وان خلفاءه من آل العمودى ظلوا موالين لأئمة اليمن مدة حكمهم السياسى فى دوعن ، حتى ان القائم منهم بالأمر سنة ألف وسبعين هجرية وهو الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن العمودى المكنى ـ أبو ست ـ طلب من الإمام فى صنعاء أن يعقد له ولاية رسمية على دوعن ، فأجابه الإمام وكتب له بما طلب

ولما غزا الزيود حضرموت سنة ١٠٧٠ هـ فى عهد المتوكل إسماعيل كان الشيخ العمودى الشخص الوحيد الذى ساعد هذه الحملة من الحضارم وانضم إليها بكل من أطاعه من القبائل ، وتقدم لملاقاتها والترحيب بها إلى أثناء الطريق

ومما يصور لنا العلاقات الودية المتينة بين الأئمة فى اليمن وآل العمودى ما ذكره المؤرخ الجرموزى فى كتابه ـ تحفة الأسماع والأبصار بما فى السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار ـ من أنه فى أواخر سنة ١٠٦٥ هـ حصل سوء تفاهم بين السلطان بدر بن عبد الله الكثيرى والشيخ العمـــــودى حتى كاد الأمر يؤدى إلى اشتعال نار الحرب بينهما ، فتدخل الإمام بالمكاتبة ونصح السلطان بإجابة مطالب العمودى والإسراع بعقد الصلح . فأجابه السلطان الكثيرى بما يأتى من أثناء رسالة له مؤرخة فى شهر محرم سنة ١٠٦٦ هـ

« والباعث على ذلك هو إعلامكم أن النقيب الأريب حسن بن هادى بطة قد وجهناه راجعاً إلى محلكم السامى بجواب مراسيمكم الكريمة ، وشرحنا لكم فيها إجابتنا على انعقاد الصلح بيننا وبين الشيخ العمودى سنة كاملة بعد أن أبدى علينا فى ذلك شرائط لا نعهدها فى سائر الإصلاح ، فأجبناه إليها رعياً لجبركم وطاعتكم وإيثارا للصلاح ، ثم بعد أن توجه إليكم النقيب حسن بن هادى أبدى الشيخ العمودى علينا شرائط غير السابقة تشق علينا غاية المشقة لأنها غير معهودة ولا موافقة ، فأجبناه إلى ما اشترط علينا إبتغاء جبر خواطركم ، وقصده بذلك تشمئز عن شيء منها أو تتعاظمها لمحشها وثقل عنها ، وقصده أيضاً بذلك أن نصير عصاة لأمركم المطاع وأن نتباعد عنكم بعد أن كنا لكم من الأتباع »

فهذه الرسالة صريحة فى أن السلطان الكثيرى يجد فى الرضوخ لتعنت العمودى فى شروط الصلح زلفى لدى الإمام ووسيلة لتجنب سخطه وفى ذلك ما نريد أن نقيمه من دليل على قوة ولاء العمودى لإمام الزيدية ومبلغ رضا الإمام عنه

ابن مطهر وعيسى بن بدر

واستمر الخلاف على أشده بين آل العمودى وسلاطين آل كثير بحكم التنافس على السيطرة فقد حدث سنة ١١١٥ هـ أن أغار الشيخ محمد بن مطهر العمودى على بلدة ـ القرة ـ وكان كثير التعرض للمناطق الكثيرية والفتك بمن يقاومه . فجمع السلطان عيسى بن بدر بن على بن عبد الله بن عمر بن بدر أبي طويرق عسكراً نتاله تحت قيادة ابنه الأمير جعفر . ولما رأى العمودى جيش السلطان تقهقر بعد أن نصب له العمودى كميناً . فانطلقت عساكر آل كثير تجرى وراء المتقهقرين غير شاعرة بالخطر ، وإذا بالكمين يركب على أكتافهم من ورائهم ويقتل منهم مقتلة عظيمة . وانسحب الأمير جعفر بفلول جيشه إلى الهجرين وأرسل إلى أبيه يطلب النجدة ، ولكن الشيخ سعيد بن عبد الله با وزير تدخل فى الأمر وأقام صلحاً بين الطرفين ـ هدنة ـ مدتها أربعة أشهر

وفى أواخر رمضان سنة ١١٢٣ هـ أغار الشيخ حسن بن مطهر على الهجرين بجماعات كثيرة من سيبان وآل باهبرى وغيرهم ، فنهبوا جميع ما فى البلاد من حلى وأثاث وتمر وحبوب وحيوانات . وأقبل السلطان عمر بن جعفر ومعه أولاد عيسى بن بدر ومائتا مقاتل من يافع ، فلقيهم العمودى أثناء الطريق واقتتلوا بموضع غربى ـ شرج با صقر ـ من طلوع الشمس إلى أن ارتفع النهار . فانهزم العمودى وقتل من عسكره الكثير ، وقرر السلطان أن يتعقبه إلى دوعن لولا توسط الشيخ على بن سعيد با وزير وعقده صلحاً بينهما لمدة ثلاثة شهور

الخلاف بين آل العمودى

فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى كان الخلاف بين حكام الوادى من آل العمودى قد استحكمت حلقاته وتوسعت شقته ، وكان ذلك نذيراً بذهاب قوتهم وتضعضع سلطانهم ،

وقد أدى هذا التنازع والانقسام فيما بينهم إلى التجاء بعضهم إلى الكسادى أمير المكلا مستنصراً به على منافسيه من أبناء عمومته ، فأرسل الكسادى سنة ١٢٨٦ هـ جنوداً برئاسة محجم بن أحمد محجم استولى على أكثر وادى لبمن . ولكن آل العمودى بعد أن تضايقوا من معاكسات جنود الكسادى ومشاكساتهم عادوا فتضامنوا للتخلص من هذا الاحتلال ، ودارت بين الفريقين معارك انتهت بجلاء عساكر الكسادى عن دوعن

ولكن المنافسات والضغائن ظلت مستمرة بين الرؤساء منهم الأمر الذى أدى إلى إرهاق سكان الوادى بالضرائب الفادحة الغير منتظمة وظلمهم والجور عليهم ، وازداد تذمر الأهالى وسخطهم حتى أن نفراً منهم لاذوا بالسلطان القعيطى بالمكلا وطالبوه بالتدخل لإنقاذهم ، وكان ذلك بعد جلاء الكسادى عن المكلا ، فاستقدم القعيطى الشيخ عبد الرحمن ابن على بن عبد الكريم أحد رؤساء آل مطهر واتفق معه على أن تكون السلطنة القعيطية هى المسئولة الأولى فى مناطق نفوذه مقابل نفوذ محدود له داخل منطقته . وكان هذا بداية التدخل القعيطى فى حكم دوعن ، كما كان بداية النهاية لحكم آل العمودى الذى امتد قروناً طويلة . وسنذكر فى ترجمة السلطان عوض بن عمر القعيطى من الحوادث ما يتصل بهذه النهاية

(١٤)

بدر بن عمر الكثيرى

نصير الزيدية ـ اختلافه مع ابن أخيه ـ تدخل الإمام فى الأمر ـ مؤامرة ـ السيف أصدق من الكتب ـ النفير للحرب ـ الأخطار التى تعرض لها الجيش ـ آخر مفاوضة تفشل ـ بدء القتال والمعركة الفاصلة ـ السلطان يطلب الأمان بدر بن عمر يستعيد سلطته ـ اختفاء السلطنة الكثيرية

نصير الزيدية

السلطان بدر بن عمر بن بدر أبى طويرق تولى السلطنة سنة ألف وأربع وعشرين هجرية بعد أخيه عبد الله بن عمر الذى خلع نفسه واعتزل السياسة . قال عنه السيد محمد بن هاشم فى كتابه « تاريخ الدولة الكثيرية » : كان السلطان بدر بن عمر آية فى الجود والسخاء ، يحب الخير وأهله ، ويكره الشر وأهله . أقام للشرع الشريف بحضرموت محاكم عديدة ، وبنى عدة مساجد منها مسجد الحصن الذى بسيؤن ، ومسجد السلطان الذى هو شمالى حصن الرّباط بتريم ووقف عليها أموالا كثيرة كافية

« ولم تكد تستقر قدما السلطان بدر بن عمر فى الولاية حتى تصدى له ابن أخيه بدر بن عبد الله بن عمر بالأذى وإذكاء المكايد حوله ، فلجأ إلى موالاة أئمة اليمن وأخذ يكاتبهم ويستنجد بهم . وأشيع عنه اعتناقه للمذهب الزيدى فازدادت الهوة اتساعاً والحالة حرجاً[1] »

وساعدت هذه الإشاعة على نفور الناس منه

وقد ذكر الجرموزى أنه لما حج السلطان عبد الله بن عمر سنة ألف وأربعين واستخلف أخاه بدراً تبادل هذا مع الإمام الرسائل والمكاتبات فى غيبة أخيه . ويمكن القول بأن بدر

---

(١) تاريخ الدولة الكثيرية

ابن عمر كان مخلصا فى ولائه للزيدية شديد التعلق بهم بصرف النظر عن الظروف التى مهدت لتوطيد هذه العلاقة

وبدر بن عمر هذا هو جد آل عيسى بن بدر الذين كونوا لهم دويلة منفصلة عن سلطنة آل عبد الله بن عمر ، وكان آخر سلطان فى آل عيسى بن بدر هو منصور بن عمر الذى قتلته يافع فى شبام سنة ١٢٧٤ هـ

اختلافه مع ابن أخيه

ومهما قيل فى أسباب الخلاف بين بدر بن عمر وابن أخيه بدر بن عبد الله فان الاخير كان طامعا فى السلطنة ويرى من نفسه القدرة والكفاءة لتصريف سياسة البلاد ، وقد استغلّ علاقة عمه بالامام فى تنفير آل كثير عنه ، وكذلك فى اثارة الرأى العام فى حضرموت الذى لا يميل الى الزيود لاختلافهم معهم فى المذهب والعقيدة

وهكذا كانت سياسة بدر بن عبد الله ابعاد الزيدية عن التدخل فى شئون السلطنة الكثيرية واستقلاله بحكم البلاد ، وقد طفق منذ تولى عمه السلطنة يجمع آل كثير والشنافر ويعقد معهم المؤامرات السرية ضد عمه ويهول لهم الأمر فى موالاته للزيدية ويزعم لهم أنه سيسهل لهم احتلال حضرموت . وساعده فى ترويج هذه السياسة والدعاية لها جماعة من العلويين وغيرهم من العلماء ورجال الدين

قال الجرموزى : —

« وكان هوى آل كثير وميلهم مع أولاد السلطان عبد الله بن عمر ، فاحتال هؤلاء على عمهم وقبضوا عليه وعلى أولاده وجميع ما يملكه وجعلوه فى حصن لهم ، وحلف آل كثير للسلطان بدر بن عبد الله ، فساس البلاد واطاعه أهلها وكانت له ملابسة للسياسة ومراعاة لأسباب الرئاسة فكان أكمل من عمه وأنهض ، فأحبّه أهل تلك الجهات ولكونه لم يوال الامام عليه السلام . . . »

وقيل فى كيفية الهجوم للقبض على السلطان بدر بن عمر : ان نحو أربعين من آل كثير وعشرة من مواليهم توجهوا الى حصن سيؤن من بين المدعوّين فى وليمة أقامها السلطان بمناسبة زواج بعض أقاربه ، ولما فتح لهم الباب دخلوا بعنف وفتكوا بمن قاومهم حتى دخلوا على بدر بن عمر فاستسلم بدون مقاومة ، وحاول ابنه محمد المردوف المقاومة فقهره أبوه وأمره بالاستسلام فقيدوهما معاً ثم ارسلا مكبلين بالاغلال الى حصن مريمة حيث سجنا هناك ثم نقلا من مريمة الى تريس وكان ذلك سنة ١٠٥٨ هـ

تدخل الامام فى الأمر

علم الامام ـ المتوكل اسماعيل ـ بالقبض على بدر بن عمر وأنه انما اعتقل بجريرة موالاته له فعدّ ذلك تحدّيا له واهانة موجهة اليه وكتب الى بدر بن عبد الله يامره باطلاق سراح عمه فاجابه هذا برسالة فى شهر رمضان سنة ١٠٦٥ هـ تتضمن اجابة الامام الى ماطلب من اطلاق سراح عمه والتنازل له عن ولاية ظفار ومتعلقاتها الى آخر رسالته التى ملأها بعبارات التودّد والاخلاص واظهار الولاء والطاعة الأمر الذى وصفه الجرموزى بانه لون من التلوّن والمداجاة

واعتذر بدر بن عبد الله للامام عن اعتقال عمه بما يلى من نص رسالته للمتوكل اسماعيل :

« فأحل بنا من ضيق المعاش ما يهون مقاساة الموت دون مقاساته وصبرنا على ذلك حتى عيل منا الصبر . ولما خشينا على أنفسنا الهلاك قدمنا على العم بدر واولاده وما ظننا ان نسلم من قبل ذلك الأمر ولما ضممناهم قمنا بهم وبمكالفهم ومن يلوذ بهم وقمنا لهم بالواجب من النفقات وغيرها . . . وما كان سبب طلوعنا على العم بدر إلا خوفا على أنفسنا . . . وربما رفعوا اليكم أعداؤنا وحسادنا ان لا سبب لثأرنا على العم الا قيامه بطاعتكم ، فلا والله العظيم انما السبب ما أو ضحناه لكم فى هذا المكتوب »

وهكذا لا يتردد السلطان بدر بن عبد الله فى اعلان الولاء والطاعة فى كل رسائله التى يبعثها للامام إذ لم تكن عنده القوة الكافية للجهر بآرائه السياسية فى ابعاد التدخل الزيدى عن شئون حضرموت . وقد كانت حكومة اليمن من جانبها تسعى جاهدة لربط حضرموت باليمن

سياسيا واداريا . وهذه الرسالة الآتية صريحة فى تمسك الامام بحقه فى الاشراف المباشر على شئون السلطنة الكثيريه وحتى فى فرض الرجوع الى مذهب أهل البيت فى الأحكام والعقائد كانه يريد العمل بالمذهب الزيدى بين أهل حضرموت الشوافع ، فقد جاء فى رسالته إلى السلطان بدر بن عبد الله بن عمر المؤرخة سنة ١٠٦٧ هـ ما يلى : ـ

وقد أرسلنا اليكم القاضى شرف الدين الحيمى لاخذ البيعة والعهد منكم ، وليساعدكم فى أمور الاصلاح ونشر أحكام الشرع ونصب النواب والحكام واحياء السنة ومحو آثار البدع والتذكير بحق الله ورسوله وحق أهل بيته المطهرين والالتجاء الى أهل البيت فى الاحكام الشرعية والعقائد وأخذ ما أمر الله بأخذه من نحو الصدقات والمظالم وصرف القدر الذى أمرنا بصرفه فى مواضعه ، وايصال مابقى إلينا لنضعه حيث أمر الله »

وقد وصل القاضى الحيمى الى هين بتاريخ ٧ جمادى الأولى سنة ١٠٦٧ فلقى السلطان بدر ابن عبد الله هناك وكان قد جاءها لقضاء بعض مهام السلطنة فسلم اليه الرسالة والعهد ، ثم انتقلا إلى سيؤن عاصمة السلطنه حيث قرأ القاضى الحيمى على الخاصة والاعيان عهد الإمام المتوكل للسلطان بدر بن عبد الله

وتحسنت العلاقات فى الظاهر بين الامام وبين السلطان بدر بن عبد الله بعد اطلاق سراح عمه وتوليته حكم ظفار ومتعلقاتها وتبودلت الهدايا والرسائل ، وهذه صورة من رسائل بدر بن عبد الله للامام فى رمضان سنة ١٠٦٧ هـ

« والصادر الى حضرتكم الشريفة العلية الامامية المحمدية من الخيل الكرام باسم الهدية ثلاثة رؤس : فمنهن فرس نعامة صفراء مليحة ومنهن فرس كحيلة حمراء جيدة والثالث من الروس سميطان اصفر ، تفضلوا بقبول تلك الهدية وان كانت تافهة غير سنيّة وكذلك الصادر من الخيل الجياد فى مقابل ما تقرر علينا لبيت المال من الزكاة والفطرة ثمانية رؤس حسبما ذكرناها لكم فى كتاب مفرد بيد القاضى الجليل ، ثم قبيل ما تقرر لكم من محصول بندر الشحر المحروس من الرسم الهندى وما تقرر مما رسم على البانيان فى مدة ثلاثة شهور ٢٢٠ و ٣٠٠

حرف و ١٥ ذهب أحمر : الذهب الأحمر محسوب بستمائة وثلاثين قرشا والذى من الموسم الهندى سنة ١٠٦٧ هـ وكذا الذى على البانيان ٨٥٠ . ومرسل اليكم هدية باسم محمد ابن الامام رأسان من الخيل ولاخيه صفى الدين رأسان أيضا واليه من ولدنا عبد الله رأس من الخيل وحلية لفرسه هدية ولاخيه حسام الدين حصان . والسلام »

مؤامرة

بعد ان تولى بدر بن عمر حكم ظفار حدث أن احتجز السلطان بدر بن عبد الله لنفسه مزرعة فى ظفار بحجة أنها كانت لابيه فمدّ عمّه ذلك تحكما به وتدخلا فيما فوض اليه من قبل الامام ، وعاد المتوكل اسماعيل يتدخل فى النزاع ويأمر بان تكون ظفار خالصة لبدر بن عمر فينفذ أمره ويكف بدر بن عبد الله عن التعرض للمزرعة ويكتب للامام رسالة جاء فيها :

« وأمرنا الخادم أن يتركها له وان كانت لنا ، لان قصدنا جبره فى كل حال ، ولان الحال واحد ، حال ولد ووالد ، وربما تتوهمون أننا نشاركه فى شىء من منافع ظفار حيث تعلمون أنا نسفّر شيئا من المراكب اليها لاجل النوال ونشترى اللبان مثل الاجانب ، والآن إن رضى الوالد حفظه الله أننا نترك تعهد البندر بمراكبنا مثل تعهد الاجانب تركناه ابتغاء لما فيه رضاكم ورضاه »

والمعروف ان السلطان بدر بن عبد الله كان من أغنياء سلاطين آل كثير ، وكان يملك فى ظفار غابات من اللبان ومعامل واسعة لتصفيته وشحنه فى سفنه الخاصة لبيعه فى الثغور المجاورة ، وكان يملك فى حضرموت غيل تاربة الذى يساوى عشرات الألوف من الريالات والذى يدر عليه أموالا وافرة ، فكان من الطبيعى أن يترك استقلال عمه بشئون ظفار أثرا سيئا فى نفسه يحمله على التخلص منه واستعادة هذه المنطقة الغنية وضمها الى سلطته التى تخضع له مباشرة

لذلك اتفق السلطان بدر بن عبد الله مع اخيه جعفر على احتلال ظفار بالقوة وطرد عمهما منها ، واحتالوا فى تنفيذ مؤامرتهم هذه — كما تقول بعض الروايات — بطريقة فيها كثير

من الغش والخداع ، فقد أوعز بدر بن عبد الله الى اخيه جعفر أن يكتب الى عمه بدر مظهرا له أنه سيسافر إلى الهند بطريق ظفار ، وانه سيقدم عليه ماراً بطريق سماها له فخرج بدر بن عمر للقائه وكان قد ارتاب فى ما كتب اليه جعفر وصدق ظنه ، فان جعفراً قد سلك بمن معه من جنود طريقاً غير التى سماها لعمه وأسرع بهم إلى ظفار واستولى على الحصن وقتل ابن عمه . وهكذا تم تنفيذ المؤامرة التى دبرت فى سيؤن عاصمة السلطنة

ولم يكن بُدٌّ للسلطان المخدوع من الهرب بطريق البحر ، فقد سافر إلى بلاد المهرة ثم منها إلى عدن حيث واصل سفره إلى اليمن لمقابلة الإمام والتحدث إليه بكل ما حصل من بدر بن عبد الله وأخيه جعفر . فأحسن الإمام استقباله وتلقاه الجند ومن بحضرته من العلماء ونزل ضيفاً كريماً على الإمام

السيف أصدق من الكتب

استطاع الأمير بدر بن عمر أن يوغر صدر المتوكل إسماعيل بما أفضى إليه من أحاديث تتعلق بابن أخيه بدر بن عبد الله وأياديه الخفية فى محاولة التخلص من سيطرة الإمام على السلطنة الكثيرية والحد من سلطته مهما كانت اسمية ومرنة . ولم يتردد المتوكل إسماعيل فى صحة الأنباء التى أفضى بها إليه الأمير المطرود ، فكتب إلى السلطان بدر بن عبد الله يستفسر عن الأسباب التى حملته على الإقدام على تدبير الحيلة المكشوفة لاحتلال ظفار والاستهانة بأوامر البيت الهاشمى فى اليمن ، فرد عليه السلطان بدر بن عبد الله كعادته فى المراوغة والتملص يتنصل من تبعة حادثة ظفار ويلقى مسئوليتها على أخيه جعفر وقال انه لم يكن على علم بما حدث . وتبودلت بينه وبين الإمام عدة رسائل لم تؤثر فى جلاء الموقف وإقناع الإمام

وفى رمضان سنة ١٠٦٩ هـ أرسل بدر بن عبد الله رسالة إلى الصفى أحمد أحد كبار رجال الدولة من الزيود الهاشميين لا تخرج فى معناها وأسلوبها عن الرسائل التى كان يبعثها إلى المتوكل إسماعيل . وكان الصفى أحمد قبل ذلك طامعاً فى انقياد السلطان بدر ولكنه يئس منه أخيراً . وقال بعد قراءته الرسالة : قد غششنا الإمام بانتظارنا لهذه المكاتبة التى هى خديعة

لا محالة . ثم التفت الصفى أحمد إلى رسول السلطان بدر وقد سلمه رداً على الرسالة قائلا : قل للسلطان هذا كتابي وبعده ركابي وسيفي هذا ، وأراه السيف ، وبهذا الإنذار النهائى انتهت المفاوضات الكتابية وتحرجت الحالة وأصبح الطرفان فى حالة حرب

النفير للحرب

لم يكن بُدٌّ من استعمال القوة لحل ما عجزت المفاوضات والمكاتبات عن حله ، فأصدر الإمام المتوكل أمره بالتعبئة العامة ودعوة الناس فى اليمن إلى الحرب ، وأسند القيادة العامة للجيش إلى الصفى أحمد بن الحسن أحد كبار رجال الزيدية والذى سبق ذكره

تحرك الصفى أحمد بمن حضر معه من الجند فى يوم الخميس ١٨ شوال سنة ١٠٦٩ هـ ، ولم يكد يصل إلى موضع يقال له المربك من أعمال جبل اللوز حتى اجتمع إليه من الجنود ألفان ومن الخيل مائة وأمده الإمام بأدلاء خبراء يهدونه الطريق إلى حضرموت ، ثم واصل سيره ماراً بأهم المناطق التى يوجد بها كثير من القبائل الراغبة فى الالتحاق بالجيش ، فكان كلما مر بقبيلة انضم إليه عـــدد من رجالها ، فانضم إليه كبار رجال خولان وأشراف الجوف ومشايخها وقبائل المعظة وعبيدة وغيرهم

وكان المتوكل إسمعيل يواصل إمداد الصفى أحمد بالمال والرجال فيلحقون به أثناء الطريق فقد جهز ابنه محمداً فى نحو ثلاثة آلاف يتسلح أكثرهم البنادق وبينهم ما يقرب من مائة وخمسين فارساً وأرسل إليه من رداع نحوا من خمسين فارساً وأربعمائة راجل ، ومن أصحاب الأمير على ابن المؤيد أربعة وعشرين فارساً ، ومن كوكبان عسكراً وخيلا كثيراً ، ومن أصحاب محمد بن الحسين زهاء ألف جندى ، ومن الحيمة أكثر من ألف جندى أيضاً جُلّ سلاحهم البنادق ووكل نظامهم إلى ابنه محمد ، وضم إليه العلامة أحمد بن الهادى والرئيس الكبير شرف الدين بن مطهر ، والفقيه المجاهد على بن صلاح الحلولى وغيرهم من السادة ورؤساء العسكر

وأمر الإمام أيضاً السيد عز الدين بن دريب والقاضى الحسن بن أحمد الحيمى والقاضى

الهادى الحارثى أن يسيروا بمعية السلطان بدر بن عمر الكثيرى وأولاده فيلحقوا بالصفى أحمد، وكان الإمام قد أحسن إلى السلطان بدر كثيراً وأجزل له العطاء وطيب خاطره

كانت هذه الإمدادات تصل إلى القائد الأول متقاطرة وهو يواصل سيره فى طريقه إلى حضرموت ، وكانت آخر هذه الامدادات قد وصلته وهو بواسط من بلاد العواقى ، ومن هناك استأنف سيره بعد ما رضى عن كثرة جيشه ووفرة عدده وكامل عدته

الأخطار التى تعرض لها الجيش

بمجرد ما تصور أن الصفى أحمد قد قطع بجيشه المسافة ما بين الموضع الأول الذى تحرك منه إلى أن وصل حضرموت فى نحو عشرة أشهر نعرف مدى المصاعب والمشقات التى يتعرض لها جيش كثيف كهذا يمر بمناطق لا يوجد فيها ما يلزم لتموين الجيش ودوابه من ماء وغذاء ، فقد اضطر الجيش أن يحفر فى بعض الطرق التى يمر بها آباراً بلغ عمقها إلى مائتى ذراع لسد حاجة الجيش إلى الماء ، وكان الخطر الأكبر الذى تعرض له الجيش عند ما كان يمر بجبل السوط بعد ما ارتحل من ميفعة قادماً إليها من بلاد العواقى وبلاد الواحدى التى من بينها ميفعة أيضاً ، فقد نفد ما كان مع الجيش من زاد وهلكت الجمال ووقع الجيش فى مجاعة حتى أنهم كانوا يأكلون ما عَيِيَ من الجمال بدون نحر

ولكن الشيخ العمودى حاكم دوعن وصديق الزبود الذى قدم للقاء الجيش ومساعدته عند ما رأى ما فيه الجيش من شدة ، أمر القبائل التابعة له بجلب كل ما قدروا عليه لتموين الجند فأتوهم بالطعام من الحبوب والدوم والسمن واللبن والمواشى وباعوه منهم وأضافهم الشيخ العمودى بثمانمائة جمل وعدد كبير من البقر والغنم

وأقام الجيش فى وادى « يبعث » ثلاثة أيام كان معظم زاده فيها من الدوم ـ ثمر السدر ـ الذى كان يرسله إليهم الشيخ العمودى ، فكانوا يأكلونه مع نواه من شدة الجوع

وكما تعرض الجيش لأخطار الجوع ، وقلة الماء ، وصعوبة الطريق كانت بعض القبائل

الموالية للسلطنة الكثيرية والمجاورة لحدود حضرموت الغربية تشاغب الجيش اليمنى وتفتك برجاله كلما وجدت إلى ذلك سبيلا

آخر مفاوضة تفشل

فى الوقت الذى كانت فيه جيوش الإمام تزحف إلى حضرموت ، كانت رسل الإمام تفاوض السلطان بدر بن عبد الله وتطالبه بأن ينفذ ما تعهد به من إرسال حملة إلى ظفار لتأديب أخيه جعفر واسترداد ظفار منه والقبض عليه أو طرده ، فيعتذر السلطان بدر بأنه لا يقبل أحد من آل كثير الاشتراك فى هذه الحملة بحجة أنهم لا يستطيعون أن يغادروا بلادهم لتخلفهم فيها الجنود الإمامية ، لذلك فهو يقترح أولا إيقاف الزحف وأن تعود الجنود إلى اليمن على أن يتكفل هو بدفع جميع النفقات التى استهلكها الجيش ، ولكن الإمام يصر على استرداد ظفار والقبض على الأمير جعفر ، فتفشل المفاوضات ، وتعود رسل الإمام بهذه النتيجة

وأيقن السلطان بدر بن عبد الله بأن جيوش الزيود ستكتسح بلاده فاستشار خاصته وذوى الرأى من أنصاره العلويين وغيرهم فأشار عليه البعض بالتسليم وعدم المقاومة ، وحثه الأكثرون على قتال الزيدية وحربهم ، ففضل المقاومة واستعد للقتال

بدء القتال والمعركة الفاصلة

انحدر الصفى أحمد بجيشه من ريدة الدثن إلى وادى حضرموت حيث عسكر بالقرب من الهجرين ، وكان السلطان بدر قد حشد جنوده قريباً من سَدْبه ، وبينما كان جنود الإمام فى معسكرهم خرج بعض من الجند فى يوم الجمعة آخر يوم من شهر رجب سنة ١٠٧٠ هـ يطلبون العلف لدوابهم حتى قاربوا مدينة الهجرين فرماهم حاميتها وكانوا سبعين من حملة البنادق فتداعى من كان بالوادى من جنود الإمام وحملوا عليهم واستولوا على البلد بعد أن قتلوا حاميتها وغنموا ما كان فيها من السلاح وغيره

وخرج السلطان بدر بن عبد الله من هينن على رأس عدد غير قليل من جنوده قاصداً إلى معسكره فى سدبه وكانت قد وصلته الامدادات من عمد والشحر وغيرها ، فشجع جنوده

واستعد للقاء جيش الإمام ، وتحرك الصفى أحمد بجيشه من الهجرين يوم الأربعاء لأربع خلون من شعبان ، وأمسى ليلة الخميس على ميلين أو ثلاثة من جند السلطان ، وأصبح الفريقان يوم الخميس متهيئين للقتال

لقد كان يوم الخميس الخامس من شعبان سنة ١٠٧٠ هـ يوم المعركة الفاصلة ، ففى صباحه زحف الجيشان حتى كادت خيل السلطان تلتقى بمقدمة جيش الصفى أحمد وهناك بدأت المعركة ونشب القتال واحتدم الصراع ، وكان جيش الإمام من القوة والكثرة بحيث لا تمكن المقارنة بينه وبين جيش السلطان بدر ، ومرت بالجيشين ساعة رهيبة كان الصراع فيها على أشده ، وشعر جنود السلطان بضعفهم أمام الجيش المهاجم ، فاضطروا إلى التقهقر وتبعهم جيش الإمام يثخن فى القتل ويأسر من قدر عليه ، ونجا السلطان فى جماعة من أصحابه إلى هينن وتفرقت كل قبيلة ذاهبة إلى بلادها

السلطان يطلب الأمان

تقدم الصفى أحمد إلى « الخينيق » بالقرب من هينن حيث جاءه رسول من السلطان بكتاب منه يطلب فيه الأمان ، فرفض قائد الجيش وأمر بحصار السلطان فى قلعة هينن ، ولكن السلطان بدر فر منها إلى وادى « جعيمة » بالقرب من شبام ، فدخلتها جنود الإمام بعد أن غادرها ، فاستولت على جميع ما فيها من المؤن والذخائر والخزائن ولم يتركوا سوى ما يختص بالنساء من الحلى والكساء وغيره

وسار الصفى على رأس جيشه ليلا وأصبح فى موضع يسمى « حذية » بالقرب من شبام وجاءه أهالى شبام يطلبون الأمان فأمنهم ، ودخل المدينة يوم السبت ٧ شهر شعبان وأقام فى شبام ثمانية أيام قدمت عليه أثناءها وفود أهالى تريم وسيؤن وعينات وسريمة وتريبس والغرفة وسائر آل كثير ، فأرسل إلى حصون هذه المدن وغيرها من يتسلمها ويحتلها باسم الإمام

وغادر الصفى أحمد شبام يوم الإثنين متجهاً إلى سيؤن عاصمة السلطنة ، وهناك جاءته رسل السلطان مرة أخرى يطلب الأمان فأمنه على نفسه وولده وأهل بيته ، وقدم عليه السلطان

بدر يوم الجمعة ٢٠ شعبان فأحسن استقباله وبالغ فى إكرامه وجهزه إلى اليمن لمقابلة الإمام بناء على طلب السلطان وأصحبه بسبعين من الجنود وعشرين فارساً ، فلما وصل إلى اليمن أنزله الإمام فى دار خاصة به هيأها له وأجرى عليه وعلى أصحابه النفقات الواسعة وأهداه خيلا وخلعاً ونقوداً كثيرة . وقد أقام هناك حتى اشتاق إلى حضرموت ، فاستأذنه فى العودة إلى سيؤن فأذن له ، فأقام بها إلى أن مات سنة ١٠٧٥ هـ

وبعد أن تم للصفى أحمد الاستيلاء على داخل حضرموت ، أرسل حملة مؤلفة من ستمائة جندى تحت قيادة بدر الدين بن جميل للاستيلاء على الشحر أهم مدن الساحل ، وأرسل معه الأمير على بن بدر بن عمر ليكون حاكما عليها من قبل أبيه السلطان بدر بن عمر الذى أمر المتوكل باعادة السلطنة إليه . ولم تلق الحملة فى طريقها أية مقاومة فقد أظهر المسؤول على الشحر الطاعة وسلم إليهم الحصن وشئون المدينة والميناء

ويقول الجرموزى إنه كان يوجد بالشحر وقت وصول الحملة من زوارق الصيد ما ينيف على خمسمائة وأنه يوجد بها من البانيان ـ البراهمة الهنود ـ نحو ثلاثمائة ، ويقول إن الحوم فى ضواحى الشحر كانوا يقطعون الطريق ويسكرون جو الأمن فى حين لا تستطيع حامية الشحر القليلة إخضاعهم

وينقل الجرموزى أيضاً عمن صحب الصفى أحمد فى غزوة حضرموت فيقول : إن وادى حضرموت واد عجيب واسع طويل ، كله عمارات ونخيل ومزارع تتصل من شبام إلى المسفلة وهى حد المهرة يقطعه البريد الناهض فى ثلاثة أيام . ثم ذكر شبام فقال عنها : مدينة كبيرة يظهر عليها أثر الضعف بسبب توالى أيدى الجائرين عليها ، وفيها جامع عظيم وحولها نخيل واسع وأنهار ـ كذا ـ ومزارع أكثرها لآل كثير . ولما ذكر سيؤن قال فى وصفها : مدينة عظيمة وفيها جامع ومساجد وعليهن أوقاف ووظائف

بدر بن عمر يستعيد سلطنته

انتهت مهمة الصفى أحمد فى حضرموت باحتلال جيوشه لجميع المناطق التى كانت تخضع

السلطان بدر بن عبد الله وتسليمه شئون المملكة إلى السلطان بدر بن عمر تنفيذاً لأمر أمير المؤمنين واعتقال كل من اشتبه فيه . ثم أعد عدته للعودة إلى اليمن بعد أن وزع العمال فى المدن الحضرمية ونصب القضاة وجمع الزكاة وحرّم الملاهى وكل ما لا يقره مذهب الزيدية . ونودى بأن يزاد فى الأذان حى على خير العمل تطبيقاً للمذهب الزيدى فى صيغة الأذان ، ومنع الناس فى تريم من إقامة الذكر المعروف براتب السقاف

أما ظفار فلم يتمكن الصفى أحمد من المسير إليها ، ولكنه اتفق أن صاحب النعمان أرسل إليها أربعمائة نفر بقيادة رجل يدعى عامر بن أحمد فغلبوا السلطان جعفر واستولوا على البلاد بأجمعها وكتبوا بذلك إلى الصفى أحمد وأظهروا له الطاعة ، فاكتفى منهم بذلك وأقرهم على ما هم عليه . ويقول الجرموزى إن أهل النعمان هؤلاء يتمذهبون بمذهب الخوارج فيكرهون أهل البيت كما يكرهون أهل المعاصى

وتحرك الجيش اليمنى عائداً إلى بلاده ، وتسلم السلطان بدر بن عمر شئون سلطنته فمضى فيها كعادته فى حب الخير وبسط العدل والولاء لأئمة الزيود . ثم سافر بعد سنتين لأداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة ، فتوفى بالمدينة سنة ١٠٧٣ هـ . فأمر الإمام بأن يخلفه فى السلطنة ابنه محمد المردوف فتولاها إلى أن مات سنة ١٠٨٠ هـ . وكان محمد هذا حازماً صارماً شديد الوطأة على العشائر المتسلحة . وقد أعمل بطشه وتنكيله بالشنافر من آل كثير بأقل حق وأدنى سبيل لقيامهم مع السلطان بدر بن عبد الله ضد أبيه ، وأضعف ما لديهم من شوكة حتى ألحقهم بمستوى العزل من السلاح

اختفاء السلطنة الكثيرية

فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى كان الناس فى حضرموت منقسمين إلى قسمين : فريق يجنح إلى الزيدية ويفضل سلطة الأئمة وهم أتباع آل على بن عبد الله بن عمر ، وفريق يؤيد سلطة الشوافع من يافع التى تعضد السلطان بدر بن محمد المردوف ويعضدها ، وكان بدر ابن محمد هذا شاعراً بضعف مركزه أمام التيارات المتعاكسة فى سلطنته ولم تبق لديه قوة غير

قوة الجنود من يافع التى أصبح هو نفسه تحت سيطرتها ، وانتفضت البلاد كلها عليه ، وعارضه كثير من بنى عمه ، فرأى أن يستزيد من الجنود اليافعيين ليستعين بهم فى حفظ مركزه المتزعزع ، فذهب إلى يافع وقدم بستة آلاف مقاتل منهم واستولى بهم على جميع حضرموت سنة ١١١٧ هـ

ولكن هؤلاء الجنود الذين استقدموا لتعزيز الدولة الكثيرية وتمهيدها وجدوا الفرصة سانحة والظروف مهيأة للتغلب على الحكم فى البلاد وزحزحة الدولة الكثيرية عن مراكزها فى داخل حضرموت وساحلها

واشتدت الخصومة سنة ١١١٩ هـ بين آل بدر بن عمر يرأسهم السلطان بدر بن محمد المردوف وبين آل عبد الله بن عمر برئاسة السلطان عمر بن جعفر بن على بن عبد الله بن عمر ، وكان هذا حافداً على يافع لتدخلهم فى شئون السلطنة الكثيرية ، فحاول عدة محاولات لإيقاف التدخل اليافعى عند حد فلم يستطع ، واضطر أخيراً إلى السفر من حضرموت يائساً حيث توفى بمسقط من أرض عمان

ولم تطل حياة بالسلطنة الكثيرية بعده ، فقد قضى عليها تماماً واختفت من الوجود فى عهد ابنه جعفر بن عمر منتصف القرن الثانى عشر الهجرى وأصبحت حضرموت فى يد عشائر يافع الذين كونوا لهم سلطات متعددة فى كثير من مدن وقرى الساحل والداخل ، وفى الوقت نفسه كان لغير يافع من القبائل والسادة والمشايخ نفوذ محدود ، داخل مناطقهم التى يسكنونها

وكانت هذه المدن والقرى الآتية تخضع لنفوذ يافع مباشرة : فى تريم آل لبعوس ، وفى سيؤن آل الضُّبَى ، وفى تريس آل النقيب ، وفى سريمة آل البكرى ، وفى جِفِل آل الرباكى وآل النقيب ، وفى شبام الموسطة ، وفى غيل بن يمين الشناظير ، وفى ريدة المعارّة كَلَدْ ، فى حورة آل النقيب ، وفى حريضة ابن بريك ، وفى لحروم القعيطى ، وفى سدبه الجهورى ، وفى الهجرين آل يزيد ، وفى القرة آل البطاطى ، وفى الشحر آل بريك ، وفى المكلا آل الكسادى

(١٥)

صلاح بن محمد الكسادى

لأول مرة فى التاريخ ـ أمراء آل كساد ـ طموح النقيب صلاح ـ احتلال دوعن الدفاع عن المكلا ـ النهاية المحتومة ـ جلاء الكسادى عن المكلا

لأول مرة فى التاريخ

لأول مرة فى تاريخ المكلا تقوم فيها إمارة مستقلة يحكمها آل كساد اليافعيون فى القرن الثانى عشر الهجرى ، فقد كانت قبل ذلك تابعة لأية سلطة تفرض سلطانها على الساحل الحضرمى ، حتى جاء آل كساد فكونوا فيها هذه الإمارة التى نتحدث فى هذا الفصل عن أبرز شخصية بين أمرائها

وقد كانت الشحر هى المدينة الأولى فى ساحل حضرموت من حيث اتساع رقعتها وكثرة سكانها ومركزها التجارى والسياسى ، لكونها أهم الموانىء التى تصدر منها وترد إليها حاصلات البلاد وواردتها ، ولأن الحكومات الحضرمية التى تستقل بشئون الساحل تتخذ الشحر عاصمة لها ، والحكومة التى تتخذ عاصمتها فى الداخل ويمتد سلطانها إلى الشواطىء الجنوبية تجعل من الشحر العاصمة الثانية لحكومتها ، فعظم بذلك شأن هذه المدينة ، وأقبل التجار والعلماء والأدباء على الاقامة بها والتردد إليها ، فلم تستطع لذلك أية مدينة ساحلية أن تنافسها أو تبرز معها فى مضمار

ولم تكن المكلا أثناء هذا التاريخ الطويل أكثر من قرية صغيرة تتكون بيوتها من أكواخ حقيرة يسكنها صيادو الأسماك الذين يردون إليها من المناطق المجاورة ، وظلت كذلك بعيدة عن أى مركز تجارى أو أدبى أو سياسى إلى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى ، حيث بدأت العشائر اليافعية تتمركز فى أهم مدن البلاد الحضرمية على أنقاض الحكم الكثيرى الذى

تداعى وتلاشى ، وكانت المكلا من نصيب قبيلة آل كساد الذين كونوا لأنفسهم فيها إمارة ذات شأن ، وسعوا لبسط نفوذهم على المناطق المجاورة لها وعملوا لإنعاشها وجلب التجار إليها واستخدامها فى التصدير والتوريد كأحسن ميناء صالحة لرسو السفن والبواخر فيها

وقد استطاع الأمراء من آل كساد أن يلفتوا الأنظار إلى مدينتهم ويحببوا إلى الناس الإقامة بها بفضل ما عرفوا به من حب العدل وكرم الأخلاق وحسن المعاملة والتساهل مع التجار فى فرض الضرائب واستيفائها ، فأخذ عدد سكان المكلا فى الارتفاع وقصدها الناس كسوق للتجارة وميناء يستغنون به عن الذهاب إلى الشحر ، فقد كانت كثير من السفن تأتى إلى المكلا لتفرغ فيها حمولتها وتأخذ منها المسافرين وما معهم من بضائع ومتاع

وهكذا أصبحت المكلا الميناء الثانية بعد الشحر من حيث الأهمية وقوة التجارة ، وطفق الناس الذين فضلوا الاقامة بها يبنون بيوتهم محترمة مرتفعة تتكون من عدة طبقات ، وبنى الأمراء من آل كساد حصنهم الكبير بالقرب من الميناء مقر الإمارة يستقبلون فيه ضيوفهم ويبتون فيه فيما يعرض لهم من مشاكل الإمارة وقضاياها ، وكان هذا الحصن نموذجاً حسناً لفن البناء فى ذلك العهد

أمراء آل كساد

وأقدم من يعرف من آل كساد هو النقيب صلاح بن سالم ، وقد تولى الإمارة بعد وفاته ابنه عبد الرب ، ثم أخوه عبد الحبيب ، وكان شهما صارماً ، ثم محمد بن عبد الحبيب ، ثم صاحب الترجمة صلاح بن محمد بن عبد الحبيب . وكانت كلمة النقيب لقباً معروفاً يطلق على كل أمير من آل كساد . وكان النقيب صلاح بن محمد أقواهم شخصية وألمعهم اسماً وأبعدهم صيتاً . فقد كان حسن السيرة جم العدل لا يحتجب عن مظلوم ، محباً لأهل العلم والفضل ، متوداً إلى مواطنيه من الرعايا منصفاً لهم من نفسه وولده وجنوده . وفى نفس الوقت كان شديد الوطأة على مخالفيه فلما تقع من أحد إساءة إلا اشتد فى عقوبته بكل عنف وقسوة

طموح النقيب صلاح

وكان النقيب صلاح منذ تولى الإمارة شاعراً بضيق مساحة إمارته التى لم تكن تتجاوز أكثر من ضواحى المكلا . ومنها : بروم وفوة والبقرين والحرشيات . الأمر الذى لا يتفق مع طموحه وما يزخر به قلبه الكبير من نوايا وآمال . فظل يترقب كل فرصة لتحقيق آماله فى التوسع والاستيلاء على أكبر رقعة ممكنة من البلاد

احتلال دوعن

وكانت الخلافات بين حكام وادى دوعن من آل العمودى قد بلغت حداً يصعب معه حلها . ويقال بأن بعض آل العمودى التجأ إلى النقيب صلاح مستنصراً به على منافسيه من أبناء عمومته . فكانت فرصة لم يتأخر النقيب عن استغلالها والاستفادة منها . فأرسل سنة ١٢٨٦ هـ قوة من جيشه بقيادة محجم بن أحمد محجم استولت على معظم وادى دوعن . ومن بينها الخُريبة إحدى مدن الوادى الكبرى

ويقول ابن حميد : لما أوقع النقيب صلاح بمحمد بن شيخ العمودى سنة ١٢٨٨ هـ سقط فى أيدى العموديين خصوصاً سكان الخريبة والرباط ، فأجمعوا على مقاومة الكسادى وإزالة جماعته من وادى دوعن ، وساعدهم جميع قبائلهم مثل القثم وسيبان والمراشدة والجعدة والسادة والرعايا ، وكتبوا العهود فيما بينهم بذلك ، وأرسلوا وفداً إلى السلطان الكثيرى يطلبون مساعدته

وفى غرة ربيع الأول من نفس العام عاد الوفد بثلثمائة من الشنافر والعوامر وآل جابر ، ولم يصحبهم أحد من قبل السلاطين آل كثير ولا من مواليهم ، ولكن هذه الكتيبة عادت بعد وصولها بمدة يسيرة بحجة أن آل العمودى لم يقوموا لهم بما يلزم من نفقات ، وعلى اثر رجوعهم أرسل الكسادى نحواً من مائة وخمسين مقاتلا إلى الخريبة وهجموا على بيوت آل العمودى

وعقد آل العمودى اجتماعاً بالشعبة عند زعيمهم أحمد بن عبد الله بن بدوى ، وحضر

بدعوته رؤساء المشاجرة والدثن وباسبيد ، وأجمع رأيهم على مناجزة الكسادى وجعلوا القيادة والرئاسة للشيخ صالح بن عبد الله بن مطهر . واستجاب لهم من وادى ليسر : الحنابشة وآل بلحمر . ولما رأى مجحم تضافر القوم أرسل من يعرض على الشيخ أحمد بن عبد الله بن بدوى مبلغاً من المال ليصرف عنه القوم . فرفض ودارت بين الفريقين معارك أدت إلى جلاء عسكر الكسادى عن دوعن بعد أن خسروا كثيراً من رجالهم ، ولم تكن خسائر المعوديين وحلفائهم بالقليلة

الدفاع عن المكلا

فى عهد النقيب صلاح بدأت السلطنة الكثيرية تطل برأسها من جديد وتحاول إعادة مجدها الغابر تحت زعامة السلطان غالب بن محسن الكثيرى الذى سنتحدث عنه فى فصل قادم ، وكانت هذه المحاولة الكثيرية ترمى إلى الاستيلاء على المدن والمناطق التى تسيطر عليها قبائل يافع ومن بينها المكلا التى يحكمها النقيب الكسادى بحجة أن هذه البلاد كانت فى يوم ما تابعة لسلاطين آل كثير

وشعرت قبائل يافع بهذا الخطر فاتحدوا تحت قيادة الجمدار عمر بن عوض القعيطى وكبار أولاده ـ وكونوا جبهة دفاع ومقاومة ضد آل كثير ، ثم بادءوهم بالهجوم واستردوا بعض ما كان آل كثير قد استولوا عليه

وأثناء هذه الحروب التى دارت بين يافع وآل كثير كون القعيطى سلطنته الحالية ، واشترك النقيب صلاح الكسادى فى بعض هذه المعارك كيافعى يهمه الاحتفاظ ببسطة عشيرته اليافعيين فى حضرموت ، وكان يرى فى هذه الحروب فرصة لتحقيق ما يحلم به من توسيع إمارته الصغيرة التى طالما ضايقه ضيق مساحتها ، فقد كان يطمع أن يقتسم حضرموت ساحلها وداخلها هو والسلطان القعيطى

وربما شعر القعيطى بمطامع النقيب صلاح فتجاهلها بادىء الأمر . لأنه يرى ضرورة اتحاد القبائل اليافعية أولا أمام خطر آل كثير . وانتظر النقيب الكسادى نتيجة هذه الحروب

ليقرر مصيره فى نهايتها ، واشترك الفريقان الطامحان فى الدفاع والهجوم ضد آل كثير وأنفقوا كثيراً من الأموال وقدموا عزيزاً غالياً من الضحايا

فى سنة ١٢٨٣هـ هاجم آل كثير الحرشيات بنحو ألفى مقاتل تمهيداً للهجوم على المكلا بعد أن استولوا على الشحر وأجلوا حكامها من آل بريك عنها ، واصطدم المهاجمون بحامية الحرشيات التى لا تتجاوز المائة ، وانضم إليهم من المكلا مائتا مقاتل قدموا لنجدتهم ، فدارت معارك حامية توالت ثلاثة أيام أسفرت عن قتل قائد الحملة التى أرسلها القعيطى للدفاع عن المكلا واثنين وأربعين قتيلا من يافع وكانت أولى الاشتباكات فى جول الدواعن « جول مَسْحَة » ثم حول حصن خازوق

واستولى آل كثير على الحرشيات وذهب حاميتها بين قتيل وجريح وأسير ، وقتل من آل كثير نحو مائة ، واستمر الجيش الكثيرى فى زحفه إلى البقرين ودارت الحمّيّة برءوس من فى المكلا من يافع وعلى رأسهم النقيب صلاح ، فخرجوا مصممين على صد آل كثير مهما كلفهم الأمر ، فاشتبكوا معهم فى قتال عنيف فى نواحى البقرين ولى آل كثير على إثره منهزمين تاركين وراءهم مراكز البقرين والحرشيات التى كلفهم احتلالها ثمناً غالياً

وفى معركة حصن خازوق يقول الشاعر الشعبى المعروف عمر با عطوة الذى كان يصحب يافع عند دفاعهم عن الحصن : ـ

على خازوق بارونا بيّتْ وظَلاّ ونفقنا البضاعه وسلمنا المكلا

وقد اهتمت حكومة القعيطى بهذا الحصن التاريخى الواقع بالقرب من الحرشيات فجدّدت بناءه وطلته من الخارج باللون الأحمر

وكما اشترك القعيطى فى الدفاع عن المكلا اشترك النقيب أيضاً مع القعيطى فى صد آل كثير عن الشحر عند ما أعدوا حملتهم الكبرى لاستردادها فى حادثة « مرير » المشهورة سنة ١٢٦٩ هـ والتى سيأتى تفصيلها فى ترجمة الجعدار عمر بن عوض القعيطى ، كما ساهم النقيب أيضاً بمائة ألف ريال فى نفقات الهجوم الكبير الذى قام به القعيطى على آل كثير سنة ١٢٨٥ هـ

واشترك فى هذه الحملة بخمسمائة جندى خرج هو على رأسهم

النهاية المحتومة

وقبل أن ينتهى الصراع بين يافع وآل كثير وتعرف نتيجته الأخيرة ، اخترمت المنيّة صاحبنا النقيب صلاح ، فرحل إلى الدار الآخرة سنة ١٢٨٨ هـ ورحلت معه آماله وأمانيه ، فلم يكن خليفته ابنه الأمير عمر بن صلاح فى مثل خبرته وكفاءته وبعد نظره . وسرعان ما دَبّ بينه وبين السلطان عوض بن عمر القعيطى الخلاف الذى كان من أهم أسبابه مطالبة القعيطى للنقيب عمر بالمائة الألف الريال التى استدانها أبوه فى نفقات الحملة الكبرى على آل كثير ، واضطر النقيب عمر أن يتنازل للقعيطى عن نصف المكلا سنة ١٨٧٣ م مقابل مائتين وخمسين ألف ريال يخصم منها المبلغ الذى على والده . وأرسل القعيطى إلى المكلا بحكم هذه الاتفاقية من ينوب عنه فيها وأمده بعدد من جنوده لحماية مصالحه فى المكلا

وبطبيعة الحال لم يكن النقيب عمر راضياً عن هذا التصرف الذى ألجأته إليه الظروف المريرة فبقى يعمل فى الخفاء للتخلص من القعيطى وانفراده بالحكم فى المكلا بعد طرده منها . وحانت الفرصة لذلك ذات يوم كان فيه السلطان عوض بن عمر موجوداً بالمكلا فدبّر عمر ابن صلاح مكيدة كاد يذهب السلطان عوض بن عمر ضحيتها مع كثير من جنوده ، ولكنه استطاع أن ينجو بنفسه وبمن معه من الجنود بطريق البحر إلى الشحر

ولم يتردد النقيب عمر بعد ذلك فى إعلان عدائه للقعيطى وانضمامه ضده إلى صفوف آل كثير محاولا الاستنجاد بهم عند الحاجة . وكتب إليهم مرة يحثهم على مهاجمة الشحر ويعدهم بالمساعدة . وضاق السلطان عوض بن عمر بهذه التصرفات فلجأ إلى حكومة عدن يتذمر ويتظلم لديها من أعمال الكسادى . فتوسطت حكومة عدن فى الصلح بينهما رسمياً وأخذت عليهما وثيقة بالتحكيم ، ثم أصدرت حكمها بتخيير النقيب بين إحدى ثلاث :

اما أن يدفع المائه ألف التى على والده حالا ، أو يتسلم من القعيطى مائة ألف أخرى ويتخلى له عن المكلا وينتقل هو إلى بردم . أو يتسلم من القعيطى مائتى ألف ويتخلى له عن الإمارة بأسرها

جلاء الكسادى عن المكلاّ

ورفض النقيب عمر جميع هذه الخصال الثلاث وطلب من حكومة عدن وكان موجوداً بها المفاوضة أن تعيده إلى المكلا فأرجعته ، وبعد عودته بنحو أسبوع وصلت بارجة حربية إلى المكلا خرج منها ضابط انجليزى عرض على النقيب أن يقبل إحدى هذه الخصال المعروضة عليه ، وإلا فانه سيضطر إلى ضرب المدينة بالمدفع ، فسلم نفسه إلى قبطان البارجة ـ دراجون ـ مفضلا الجلاء عن قبول الحكم الذى أصدرته حكومة عدن . وقد أبحرت به إلى عدن فى طريقه إلى زنجبار سنة ١٨٧٧ م وبصحبته عدد من أتباعه وحاشيته ، وحمل معه ما أمكن حمله من أموال وأمتعة فى ثلاثة عشر مركباً شراعياً

وبذلك انتهى أجل الإمارة الكادية ، ودخلت المكلا وملحقاتها تحت حكم السلطنة القعيطية ونفوذها

(١٦)

على ناجى بن بريك[1]

أول أمير من آل بريك ـ القضاء على المعارضة ـ الهجوم على غيل با وزير ـ الكسادى يهاجم الشحر ـ وفاة على ناجى الأول ـ الأمير حسين بن ناجى ـ ناجى بن على أهم الأحداث فى عهده ـ قدوم الوهابية ـ حروبه مع الكسادى ـ هدم القباب والتوابيت ـ وفاة الأمير ناجى ـ على ناجى الثانى غزو آل كثير للشحر ـ نهاية دولة آل بريك

أول أمير من آل بريك

فى سنة ١١٦٥ هـ قدم إلى الشحر من حريضة سبعة من آل بريك كلهم إخوة أبناء أب واحد . وهم ناجى وسعيد وعبود ومرعى وأحمد وجابر وشيخان أبناء عمر بن بريك ، وكان ناجى أكبر اخوانه فقصدوا حارة المجرف وسكنوا بها

وكانت الشحر إذ ذاك يتنازع النفوذ فيها عشائر متعددة من يافع ، حتى أصبحت البلاد فى فوضى عانى الأهالى منها ما لا يطاق من الفتن والجور والعنف والقسوة ، الأمر الذى جعل هؤلاء الإخوة من آل بريك يرون فى هذه الفوضى أكبر مشجع لهم فى محاولة الوصول إلى حكم الشحر

وكان أول ما فكر فيه آل بريك القيام بعقد اتفاقات وأحلاف مع قبيلة الحموم وغيرهم من القبائل التى تعيش فى المنطقة المحيطة بمدينة الشحر لكى يأمنوا عدوانهم على الأقل . ثم أخذوا يتقربون من البادية والأهالى ويتحببون إليهم بما عرفوا به من الأخلاق الكريمة ، فأحبهم الناس ومالت إليهم طوائف الأعراب ، واكتسبوا سمعة طيبة مهدت لهم سلوك سبيلهم المرموق

---

(١) اعتمدت فى كتابة هذا الفصل على تاريخ الشحر لباحسن

وطبيعى أن يتخوف منهم أصحاب السلطة فى البلد وأن يقدروا خطر هؤلاء المنافسين الجدد وأن يفكروا فى التخلص منهم ، ولكن الاختلاف فيما بينهم كان معجلا بنهايتهم ومعطياً الفرصة لآل بريك فى تثبيت أقدامهم وتعزيز مركزهم . فقد استطاعوا أن ينشئوا فى حارة المجرف فرضة على الساحل ، ويبتنوا حصوناً فى رباط باجوبان فى الجانب الشرقى من المدينة . وحفروا آباراً فى العيْص خارج البلد ، ثم خطوا الخطوة الأخيرة فجعلوا أخاهم الأكبر ناجى بن عمر أميراً عليهم وأسندوا إليه القيام بتصريف شئون الإمارة الناشئة

ويؤكد العارفون بأن هناك أدلة كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن آل بريك عم قصيلة من يافع تنتسب إلى ذى ناخب هاجرت إلى حضرموت كما هاجر إليها كثير من قبائل يافع فى فترات متقطعة

وهكذا يعتبر الأمير ناجى بن عمر أول أمير من آل بريك فى الشحر ، وقد استطاع بفضل حكمته وفطنته وشجاعته وما عرف عنه من صبر وجلد أن يسكت معارضيه من يافع ويتغلب عليهم بعد حوادث وحروب جرت بينه وبينهم ، ما خلا رئيس آل معوضة اليافعى المقيم بحارة الخور فى الجانب الغربى من المدينة ، فقد امتنع واستمر فى معارضته لآل بريك ورفض الخضوع والتسليم لهم

القضاء على المعارضة

كان لابن معوضة حصن معروف فى مرير خارج الشحر جعل فيه جماعة من أصحابه لأخذ الضريبة على الأموال المارّة بهذا الموضع من المكلا وغيل با وزير ، وكان يستعين بهذه الجباية فى حروبه مع آل بريك ومقاومته لهم . وقد ظل الأمير ناجى بن عمر متابعاً محاولاته لإخضاع ابن معوضة حتى توفى سنة ١١٩٣ هـ وقام بالأمر بعده ابنه على بن ناجى الملقب بالقحوم ، وكان شجاعاً نابهاً . فاشتد فى مناجزة ابن معوضة وضيق عليه الخناق وحاصره محاصرة شديدة قطع عنه بها جميع السبل . حتى اضطر إلى التسليم وعقد صلح دخل بموجبه تحت طاعة آل بريك وانقاد لحكمهم

الهجوم على غيل با وزير

كانت غيل با وزير فى تاريخها السياسى القـــديم تخضع للسلطة التى تتولى الشحر بحكم اضطرارها إلى هذه الميناء فى توريد حاجياتها الضرورية وكالياتها فخضعت لدولة آل كثير حكام الشحر قبل استيلاء يافع عليها ، ثم استقل من بها من قبائل آل هام وآل عمر با عمر بشئون مديريتهم متعاونين مع المشايخ آل با وزير أصحاب النفوذ الروحى فى المنطقة ، حتى تكونت إمارة آل بريك بالشحر ، وحاول هؤلاء ضم هذه البلدة إلى إمارتهم والتدخل فى حكمها مباشرة ، فأبدى النقيب محسن بن جابر بن هام معارضة فى ذلك وأظهر المخالفة والعداء لآل بريك وانضم إليه آل عمر با عمر وساندوه فى حركته

وجمع الأمير على ناجى ـ الأول ـ أقواماً كثيرة ، وتجهز من الشحر للهجوم على غيل با وزير واحتلالها ، وكانت هذه الحملة مزودة بالمدافع وبمعدات حربية تضمن إسكات المقاومة ، فلم يجد النقيب محسن بن جابر بُداً من الرحيل عن الغيل والالتجاء إلى أمير المكلا النقيب عبد الرب الكسادى ، كما لحق جماعة من آل عمر با عمر بالريدة لدى أميرها الكلدى اليافعى ، وبذلك تم احتلال آل بريك لغيل با وزير

وقد حاول النقيب محسن بن جابر أن يقوم برد فعل لهذه الحادثة ، فقد استطاع أن يقنع النقيب عبد الرب الكسادى بضرورة مساعدته فى الهجوم على الغيل واسترجاعها من آل بريك ، وتجهز النقيب من المكلا على رأس عدد كبير من العساكر ، وبينما هم بموضع يقال له ـ الحَدبة ـ أسرع آل بريك لصد هذه الحملة وهاجموا معسكر الكسادى وابن هام ، وبعد معركة عنيفة كان النصر فيها حليف آل بريك عاد الكسادى إلى المكلا بعد أن قتل محسن ابن جابر فى المعركة

الكسادى يهاجم الشحر

وتحركت بعد ذلك من المكلا حملة كبيرة قوامها إثنا عشر مائة من مختلف عشائر يافع

استقدمت من الجبل للهجوم على الشحر طلباً للثأر من آل بريك ، وقد رابطت هذه الجموع بقرية تبالة إحدى ضواحي الشحر ، ولكنها عادت دون أن تصنع شيئاً فقد استطاع آل بريك أن يوقعوا فى صفوف القبائل المهاجمة الضغينة والفرقة فاختلفوا وتفرق جمعهم وعادوا خائبين

وفاة على ناجى الأول

فى ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة عشرين ومائتين وألف هـ توفى الأمير على ناجى الأول ودفن فى قبة السيد سالم بن عمر العطاس بعد أن أكمل ما بدأ به والده من تثبيت الامارة ونشر هيبتها وإظهار قوتها ومدى استعدادها لمجابهة الأحداث التى تعرض لها . ومما يجدر بالتسجيل ما ذكره السيد عبد الله باحسن فى تاريخ الشحر وسمعته عن غير واحد من شيوخ الغيل المعمرين أن على ناجى هذا علم أن القاضى الفقيه الشيخ سعيد بن عمر بن طاهر كان يستعمل معرفته بأسرار الأسماء والأوفاق للاضرار بالناس فأمر بقتله غرقاً فى منبع الماء غزير يدعى ـ الحومة ـ خارج غيل با وزير

وهذه الحادثة لها قيمتها من ناحية الاستدلال بها على نفسية الأمير على ناجى وعقلية العصر الذى يعيش فيه

الأمير حسين بن ناجى

قام بالأمر بعد وفاة على ناجى أخوه الحسين بن ناجى وكان رجلا صالحاً ذا عبادة ونسك زاهداً فى الدنيا غير راغب فيها ولا ناظر للامارة وبهجتها ، ولكنه اضطر إلى قبولها حين كُلِّف بها من قبل أخيه الأمير الراحل ، فمكث فى الإمارة سنتين وشهرين ثم خلع نفسه وتخلى عن مهام منصبه لابن أخيه الأمير ناجى بن على بن ناجى

ناجى بن على

كان هذا الأمير معروفاً بالشجاعة والإقدام والكرم وسماحة النفس ، كما اشتهر بالحزم والدهاء ، فقام بما أسند إليه من شئون الإمارة خير قيام وعمل على حمايتها بكل ما لديه من قوة

أهم الأحداث فى عهده

(١) قدوم الوهابية :

فى عهد الأمير ناجى بن على قدم من ناحية القِبْلَة على رأس جماعة من قبائل نجد الوهابيين رجل يقال له ابن قملا وكان أول قدومه إلى بلدة (شكلنزة) من متعلقات الشحر وضواحيها فى جماعة من أصحابه رجالا وفرساناً ، ثم تقدم إلى الشحر أحد رجاله وكان أميراً متنكراً متجسساً واسمه فارس بن محمد فلقيه رجل من قبيلة بيت شنين وطعنه برمح فقتله ودفن بتربة الشيخ فضل

ثم تدافعوا إلى الشحر خفية متسللين حتى تكاثروا بها ولم يحصل أى اصطدام بينهم وبين أحد ولم يصب أى شخص منهم بسوء أو أذى ، وكانت عقيدة هؤلاء انكار التوسل بالأولياء ومحاربة تجصيص القبور ووضع التوابيت على ضرائح المعروفين بالصلاح وإقامة القباب عليها

(٢) حروبه مع الكسادى

فى سنة ١٢٢٧ هـ أعد النقيب عبد الرب بن صلاح الكسادى سفناً وحشد فيها جماعة من جنوده وأمرهم بأن يتعرضوا للسفن القادمة من سواحل إفريقيا الشرقية إلى الشحر فى أيام الموسم وكانت أكثر هذه السفن لتجار الشحر . وقد قامت سفن النقيب بمهمتها وساقت جميع سفن الشحر بما تحمل من بضائع إلى المكلا

وأعد الأمير ناجى بن على العدة لحرب الكسادى والانتقام لحادث السفن واسترداد أموال الرعايا وحشد جماعة كبيرة للهجوم على المكلا . وعلم النقيب بهذا الهجوم فخرج بمن معه من العساكر للقاء آل بريك إلى الحرشيات خارج المكلا ولم يصل آل بريك إلى الحرشيات حتى كان النقيب عَلَى استعداد لحربهم . وبعد معركة حامية تقهقر عسكر الكسادى إلى البقرين والديس . واستولى آل بريك على الحرشيات وما خلّفه جنود النقيب من مؤن وعتاد ، ثم تابعوا زحفهم واستولوا أيضاً على البقرين والديس بعد أن انسحب حاميتها من عسكر النقيب

إلى المكلا ، ومنع الجيش الزاحف الماء عن أهل المكلا

وفى اليوم الثالث تسلق آل بريك الجبل المطل على المكلا واحتلوا الحصون المشرفة على المدينة واطلقوا نيران مدافعهم على حصن النقيب وتضايق سكان المكلا وحل بهم الرعب ، ولم يلبث النقيب أحمد بن عبد الرب بن صلاح الكسادى أن تقدم فى جماعة من أصحابه مهاجماً آل بريك فى قمة الجبل وهم فى الحصون ، وحدثت مناوشات لم تؤد إلى نتيجة قتل أثناءها أحمد بن عبد الحبيب ورجل آخر

وتوسط فى النهاية بعض السادة من آل العيدروس وأحد المشايخ من آل با عمر ، وتم الصلح على أن تعاد جميع السفن التى أخذها الكسادى بما فيها من أموال لأهل الشحر ويعود آل بريك إلى حيث أتوا . وبذلك انتهى النزاع وأوقفت الحرب

ولكن النقيب عبد الرب الكسادى عاد فى سنة ١٢٣١ هـ فحشد حوالى خمسة آلاف جندى وتوجه بهم قاصداً مهاجمة الشحر فعسكر بتبالة ثم تحرك الجيش منها للهجوم على المدينة واصطدم بآل بريك فى موضع يقال له المشراف خارج الشحر ، ونشبت معركة من طلوع الشمس إلى وقت الظهيرة قتل فيها اثنان من آل بريك وعاد الكسادى دون أن يظفر بطائل

(٣) هدم القباب والتوابيت

ويقول السيد عبد الله با حسن إنه وصل إلى الشحر ـ قبل الحادثة السابقة ـ من ناحية الشرق بأرض الباطنة جماعة من الوهابية أقاموا بها أربعين يوماً هدموا أثناءها جميع القباب المقامة على ضرائح الصالحين وأخذوا جميع التوابيت الموضوعة على قبورهم ما عدا قبة الشيخ فضل بن عبد الله با فضل فلم تنلها يد الهدم ، ولم يعترضهم آل بريك ولم يحصل بينهم وبين أمير الشحر أى اصطدام

ويستمر السيد با حسن فى الحديث عن هؤلاء الوهابية فيقول : انهم وضعوا التوابيت وبعض أبواب المساجد التى أخذوها فى إحدى السفن التى معهم وساروا بها ، ولما وصلوا إلى ثغر مرير احترقت السفينة وخرجت بعض الأبواب سليمة إلى الساحل فأخذت وأعيدت إلى مواضعها

وفاة الأمير ناجى

فى بداية سنة ١٢٤٣ هـ توجه الأمير ناجى فى نحو مائة من أصحابه إلى حاكم مسقط السيد سعيد بن سلطان ومعه النقيب عبد الرب الكسادى قيل إنهما حكّماه فى الخلاف الواقع بينهما ، وقيل لأسباب أخرى ، وبعد وصولهما إلى مسقط بنحو شهر أصيب الأمير ناجى بمرض ألزمه الفراش . ثم توفى رحمه الله متأثراً بمرضه ودفن بقرية سداب من قرى مسقط

على ناجى الثانى

وأسندت شئون الإمارة بعد وفاة الأمير ناجى إلى ابنه على ، وكان إذ ذاك فتى صغيراً ، فنازعه عليها الأمير محسن بن حسين أحد أعيان العائلة وانقسمت حاشية آل بريك إلى فريقين فريق يؤيد محسن بن حسين والأغلبية تناصر الأمير على ناجى ، وطال النزاع واستعرت نار الفتنة واحتدم الخلاف ، وأعد كل فريق العدة لحرب الفريق الآخر ، ولزم أكثر آل بريك الحياد فلم يتدخلوا أو ينحازوا إلى أحد الجانبين

واستمرت المناوشات سنة كاملة اضطر اثناءها كثير من أهالى الشحر إلى الرحيل عنها ، وتوقفت الأعمال وتضرر الناس حتى توسط عقلاء آل بريك وبعض السادة من آل العطاس وتم الصلح على أن تكون شئون الإمارة خاصة بالأمير على ناجى وحده دون شريك وبذلك حسم الخلاف وقضى على أسباب الفتنة

غزو آل كثير للشحر

فى سنة ١٢٦٦ هـ اتفق آل كثير بداخل حضرموت مع بعض السادة العلويين على أن يستعينوا بممثلى الدولة التركية فى الحجاز فى تجهيز حملة من الأتراك للاستيلاء على الشحر لقاء مبالغ من النقود تدفع لهؤلاء الأتراك ، وقد ذهب إلى الحجاز لهذا الغرض السيد إسحاق بن يحيى والأمير عبود بن سالم الكثيرى وعادوا بنحو أربعمائة جندى من الأتراك فى مركب بخارى وعدة سفن شراعية

ولما اقتربت السفن من الشحر لم تستطع دخول الميناء بسبب اضطراب البحر وهيجانه ، فقد كان وصولهم فى فصل الخريف ، فاضطروا إلى الذهاب إلى شرمة وكان قد سبقهم إليها آل بريك وحصنوها بنحو مائة وخمسين من رجالهم . ولما نزل الجنود الأتراك إلى البر اصطدموا برجال آل بريك المرابطين هناك ونشبت معارك انتهت بهزيمة الأتراك وفرارهم فى السفن إلى قصيعر ، وقد غرقت إحدى سفنهم أثناء عملية الانسحاب

وكان آل كثير قد أعدوا جيشاً كثير العدد ليقوم بالهجوم على الشحر من البر فى الوقت الذى يهاجم الأتراك فيه المدينة من البحر . وأقبل الجيش الكثيرى مؤلفاً من قبائل مختلفة من وادى حضرموت ودوعن ومن نهد والصيعر والعوابثة وآل العمودى والحموم وغيرهم ، فرابط فى دفيقة على مسافه قريبة جداً من المدينة وحاصر الشحر من البر ومنع عنها كل ما يرد إليها من الضواحى . وقام الأتراك المرابطون فى قصيعر بحصار الشحر من البر وقطع الوارد إليها من البحر ، وبذلك أصبح الأهالى فى أزمة وعسر شديدين ، خصوصاً عند ما استطاعت سفن الأتراك التجول حول الميناء مباشرة بعد انقضاء فصل الخريف

وبمقتضى اتفاقية عقدت فى غيل با وزير بين الأمير على ناجى والنقيب محمد بن عبد الحبيب الكسادى تنص على وجوب مساعدة كل منهما للآخر عند أى هجوم مسلح على المناطق التابعة لها . تحرك الكسادى من المكلا فى نحو ألف مقاتل للدفاع عن الشحر عند ما بلغه نبأ وصول قوات آل كثير إلى دفيقة ، وكانت هذه القوات قد اشتبكت مع آل بريك فى قتال خارج المدينة ، ثم عادت إلى مواقعها فى دفيقة انتظاراً للفرصة المواتية

واصطدمت النجدة الكسادية بجماعة كبيرة من الجيش الكثيرى عند حصن سير واشتبكت معهم فى معركة انهزم فى نهايتها جنود آل كثير ، وواصلت النجدة سيرها إلى الشحر . أما الجنود الكثيرية التى انهزمت أمام قوات آل كساد فلم تعد إلى معسكرها فى دفيقة بل عادت أدراجها إلى حضرموت ، وهذا حذوهم بعض القبائل المرابطة فى دفيقة ، ولم يبق بها سوى عدد قليل من الحموم وبعض القبائل الأخرى وجماعة من الأتراك

ورأى الأمير على ناجى أن الفرصة مواتية لتطهير دفيقة من بقية الجيش ، فقرر الهجوم على دفيقة بالاشتراك مع النجدة الكسادية ، ولكن اليأس قد دب فى نفوس البقية الباقية من جيش آل كثير فأصبحوا غير قادرين على الدفاع فضلا عن الهجوم ، ولذلك ركب الأتراك البحر وعادوا راجعين ، وتفرق من بقى من القبائل عائدين بالخيبة والفشل ، ودخلت دفيقة من الغزاة ، وخرج موالى آل بريك لأخذ مخلفات الجيش من عتاد وأسلحة وأقوات

نهاية دولة آل بريك

كان آل كثير ما زالوا يفكرون فى إصرار فى احتلال الشحر لتكون منفذاً لسلطتهم إلى الخارج ومركزاً لنوسعهم فى الساحل . لذلك عاودوا الهجوم مرة أخرى على الشحر فى جمادى الآخرة سنة ١٢٨٣ هـ بنحو ثلاثة آلاف مقاتل من آل كثير والعوامر وغيرهم ، وكان الهجوم بغتة من جميع جهات المدينة البرية الثلاث . ولم يكن الأمير على ناجى هذه المرة على استعداد لصد هذا الهجوم الباغت القوى ، فلم تدم المقاومة طويلا ، وسرعان ما سقطت المدينة فى أيدى آل كثير بعد أن قتل أحد عشر شخصاً من آل بريك وخمسة من آل كثير كما أخبرنى بذلك الأمير على بن صلاح القعيطى نقلا عن الثقات الذين عاصروا الحادثة من يافع

أما الأمير على ناجى فقد ركب البحر إلى أحور مع جماعة من حاشيته وأصحابه وذويه ، بينهم أخوه ناصر بن ناجى ، والتجأ أكثر آل بريك إلى النقيب صلاح بن محمد الكسادى بالمكلا . ويقال بأن النقيب الكسادى لم يقابل على ناجى عند ما مر بالمكلا ، فقد كان ناقماً عليه لسرعة استسلامه قبل أن تقدم نجدات يافع من الكسادى فى المكلا والقعيطى فى حضرموت

وعاد ناصر بن ناجى من أحور إلى المكلا فأخبر النقيب بأن على ناجى اتفق مع أقوام من العوالق على استرداد بلاده من آل كثير ، وأن الإنكليز وعدوه بالمساعدة وحمايته من الغزو البحرى . ولكن النقيب الكسادى أقنعه بأنه لا فائدة من ذلك ولا حاجة إليه ، وأن القعيطى كتب إليه من الهند يؤكد له بأنه عقد العزم على حرب آل كثير ولديه القوة الكافية

والمعدات اللازمة لذلك ولا يطلب إلا العون والمساعدة وتوحيد جهود يافع فى هذا السبيل

ولم يجد الأمير على ناجى بُدًّا من أن يتجلد لنكبته ويواصل سفره من أحور إلى عدن ، ثم إلى لحج حيث مرض بها وتوفى بعد صلاة الجمعة فى ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ ويذكر السيد باحسن أن الموجودين من آل بريك فى المكلا اشتركوا فى هجوم القعيطى على الشحر لاسترداد أموالهم وبيوتهم التى غلبهم آل كثير عليها كما وعدهم بذلك القعيطى ، وقد تم هذا الهجوم والاحتلال فى ذى الحجة من نفس العام أى سنة ١٢٨٣ هـ كما سيأتى تفصيل ذلك فى ترجمة السلطان عوض بن عمر عليه رحمة الله

(١٧)

غالب بن محسن الكثيرى

مولده . نشأته ـ سفره إلى الهند ـ بعث الدولة الكثيرية ـ دعاية وتمهيد ـ احتلال تريم ـ غزو سيؤن وتريس ـ معركة مرير ـ غالب بن محسن يعود من الهند ـ الاتحاد قوة لا تغلب ـ الحملة الكبرى على آل كثير ـ وفاة غالب بن محسن ـ خلفاؤه من بعده ـ حدود السلطنة الكثيرية

مولده . نشأته

فى غنيمة بوادى تاربة ولد السلطان غالب بن محسن الكثيرى الذى يتصل نسبه بالسلطان عبد الله بن عمر بن بدر أبى طويرق ، ولذلك تسمى هذه السلطنة الكثيرية سلطنة آل عبد الله ، وكانت ولادته سنة ١٢٢٣ أى فى العام الذى توفى فيه الأمير جعفر بن على بن عمر بن جعفر الكثيرى الذى بذل جهوداً كبيرة لإعادة الدولة الكثيرية فتشل بعد أن استولى على شبام ودحر يافع عنها كما استولى على وادى عمد وبعض دوعن وحورة والكسر . وبوفاته انحصرت سلطة أبنائه وخلفائه فى شبام فقط ، يجاذبهم حبل السيطرة فيها بعض قبائل الموسطة من يافع ، وعلى أنقاض هذه الإمارة قامت دويلة آل عيسى بن بدر الكثيرى فى شبام سنة ١٢٣٩ هـ الذين كان آخرهم منصور بن عمر المقتول فى شبام سنة ١٢٧٤ هـ

نشأ غالب بن محسن محباً للعزلة كثير التفكير فى ضياع تراث قومه ، وربما اشترك مع أهل قريته فى النزهة بالقنص والصيد ، ولكنه لم يكن يخالطهم إلا بمقدار ، وكان يتطلب المعمرين من الرجال فيرتاح لما يسوقون له من أخبار آبائه وما جاء عنهم وفيهم من أشعار تتعرض لتاريخهم وأوصافهم

واتصل فى صباه بأكابر علماء القطر وصالحيه من العلويين وغيرهم بواسطة عمومته الذين

كانوا على أتم اتصال بهم وتلقى عنهم دروساً فى الدين والأخلاق ثم انخرط فى سلك العسكرية بشبام عند حاكمها من آل عيسى بن بدر . فنشأ لذلك نشأة دينية عسكرية حماسية خلقت منه بطلا صالحاً للمهمة التى اضطلع بها فيما بعد

سفره إلى الهند

وكانت الهند فى ذلك العهد أحد المهاجر التى كان الحضارم يهاجرون إليها مدفوعين بعوامل طبيعية واجتماعية باحثين عن حياة الرخاء والسعادة ومفتشين عن مجال أوسع لاستخدام مواهبهم وإرضاء مطامحهم . وكان لغالب بن محسن أقارب سبقوه إلى حيدر أباد الدكن إحدى إمارات الهند المسلمة من بينهم على بن أحمد وعبود بن سالم الكثيرى فلحق بهم سنة ١٢٤٦ هـ

وسرعان ما وجد الشاب نفسه مندفعاً إلى الالتحاق بالجيش النظامى حيث تقدم بسرعة إلى درجة الجمدارية بما أظهر من كفاءة وبما لقى من عون وتأييد بواسطة الجمدار عبد الله بن على العولقى الذى مهد له الطريق للاتصال بالوزير ناصر الدولة ، ولم يلبث أن لحق بالعسكريين المقربين لدى نظام حيدر أباد

وكان فى حيدر أباد أيضاً عدد ضخم من يافع على رأسهم الجمدار عمر بن عوض القعيطى الذى اتسعت ثروته ، ولقى حظوة كبرى لدى نظام حيدر أباد ، وكان هذا عبقرياً واسع المطامع بعيد النظر

بعث الدولة الكثيرية

وفى حيدر أباد بدأ غالب بن محسن يفكر فى بعث الدولة الكثيرية التى تلاشت أمام سيطرة يافع : وكانت حضرموت منقسمة إلى معسكرين : المعسكر اليافعى والمعسكر الكثيرى ولكل معسكر دُعاة وأنصار ، وكان حضارم حيدر أباد شاعرين بسوء الحالة متتبعين لكل ما يجرى فى وطنهم من أحداث ومؤامرات ، وكانت الحياة السياسية فى حضرموت تتدافع تدافع الأمواج الصاخبة ، وتنذر بهبوب عاصفة لم يكن أحد يتوقع نتائجها فى ذلك الحين

وكان غالب بن محسن يعرف أن التفكير فى بعث الدولة الكثيرية معناه التعرض لتضحيات جسيمة وجهود مضنية ستراق دماء وتبذل أموال وتقتحم أخطار ، فلن تتخلى يافع عن مواضع نفوذهم التى أصبحت وطناً لهم ولأبنائهم ، ولن يتأخر ذلك المنافس الخطير صاحب الثروة الواسعة والعشيرة الباسلة الجعدار عمر بن عوض القعيطى عن إمداد عشيرته من يافع وشد أزرهم بكل مستطاع ، ولن يسمح بأى عمل حربى ضدهم أو أى طمع فى الاستيلاء دون أن يقاومه ويستنفد لقضاء حاجة فى نفس يعقوب ، ولكن الحياة كفاح فى نظر الجعدار غالب ابن محسن . لقد صمم على أن يستعيد مجد آبائه مهما كلفه من ثمن ، فلينزل إلى الميدان ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل

دعاية وتمهيد

تناجى غالب بن محسن مع عمه على بن أحمد وعبود بن سالم طويلا ودرسوا الموقف من جميع نواحيه وانتهوا إلى أن يُبْحِر على بن أحمد إلى حضرموت فيتصل بأنصار الحركة من رجالات الشنافر « قبائل آل كثير » وكبار العلويين ويضع معهم المناهج للسير عليها ، وقد عمل على بن أحمد فور وصوله إلى حضرموت بالاشتراك مع عبد الله بن محسن شقيق الجعدار غالب على بث الفكرة والاتصال بأنصارها وتأييدها

وكانت أولى الخطوات العملية ابتياع بلدة الغُرَف من قبيلة القرامصة التميميين سنة ١٢٦١ هـ لتكون نواة للدولة ومركزاً لأعمالها . ولما قدم عبود بن سالم اشترى للدولة حصن ابن مطهر من آل مقيّص واحتله برجاله فى نفس العام ونشط بعد ذلك لمحالفة القبائل ، فاتصل بآل كثير بدواً وحضراً فحالفهم ثم سار إلى ريدة الصيعر ثم الكسثر وحالف نهداً ، ثم حالف الجعدة وسيبان والحموم وعبيدة ، وما زال يضرب فى الأرض حتى انتهى إلى عين با معبد وهو يحالف كل من يمر عليهم من القبائل ، وكانت الدعاية بحضرموت تسير سيراً حثيثاً لإحياء السلطنة الكثيرية يمدها غالب بن محسن من المنفى بماله ورأيه ويتخذ أنصاره فى حضرموت كل وسيلة لنجاحها

احتلال تريم

ان هذه القبائل التى حالفها عبود بن سالم باسم دولة آل عبد الله الناشئة تُعد من أشد القبائل الحضرمية بأساً وأكثرها عدداً ، وقد أمن شرها بهذا التحالف وضمن عدم تعاونها مع يافع ، فلم يبق إلا الشروع فى تطبيق البرنامج وإعلان الحرب والبدء بالهجوم

لقد كانت تريم التى تسيطر عليها قبيلة لبعوس اليافعية أقرب المدن إلى مركز الدولة وأهمها وأول مدينة فى شرق الوادى تحت سيطرة يافع ، والأمل بعد ذلك قوى فى احتلالها بسبب النزاع والتنافس بين حكامها اليافعيين والذى نشبت من أجله معارك دموية ، فقد كانت فى تريم ثلاث سلطات : سلطة لعبد القوى غرامة فى حارة الحوطة ، وأخرى لابن عبد القادر فى النويدرة ، وثالثة للنقيب بن لحمان فى الخليف ، وبين هذه السلطات خصومة وتناحر

اتفق آل عبد الله مع صاحب سلطة الخليف على أن يحتلوا مواقعه كلها ويبقى هو كأحد الأفراد العاديين مقابل معاش يخصص له ، وقد قبل هذا الوضع بعد محاولات نكاية فى عبد القوى الذى يعتبر المسيطر الأول على المدينة ، وأيقن غرامة بحرج الموقف وخطورة الحالة ، فاضطر بعد مفاوضات لعقد اتفاقية تنازل بموجبها لآل عبد الله عن حقه فى حكم تريم مقابل مرتب خصص له أيضاً

دخلت جنود آل عبد الله إلى تريم بموجب ذلك الاتفاق فى موكب حافل قرعت فيه الطبول ونشرت الأعلام ، وأطلق الرصاص ، استبشاراً بهذا الفتح الذى لم يرق فيه دم ، ولم يكلفهم غالياً من ثمن ، الأمر الذى تألم منه عبد القوى غرامة وجعله يضمر فى نفسه الثورة والانتقام

وانتهز غرامة عارضاً من سوء تفاهم بينه وبين آل عبد الله فثار وثار معه بعض آل تميم ووصلته نجدة من يافع سيؤون ونشبت الحرب واضطرب الأمن واستولى غرامة على المراكز الخارجية كالحيضرة وحصن الشاطرى وغيرها . واستمرت الفتنة حوالى سبعة شهور حفرت أثناءها خنادق تحت الأرض وأشعل البارود تحت عدد من البيوت فحصل حريق وخراب

ودمار ، وكان الرصاص المنطاق فى الجو لا يسمح للطير بالمرور . وأقبل عبود بن سالم بجنود قدم بهم من مارب ومن العوالق والكرب وحاصروا تريم . واشتد الحصار على رجال غرامة حتى أكلوا ما لا يؤكل فى الاختيار ، فاضطر إلى التسليم فى ربيع الثانى سنة ١٢٦٣ هـ حيث غادر تريم إلى سيؤن ومنها إلى المكلا . وبذلك تم احتلال آل عبد الله لتريم أولى المدن الحضرمية الهامة

غزو سيؤن وتريس

بعد احتلال تريم اتجهت أنظار آل عبد الله إلى سيؤن التى يحكمها آل الضبى اليافعيون وكان بينهم من التنافس على الزعامة والرئاسة والخلافات الداخلية ما بين يافع تريم ، الأمر الذى كان سبباً فى نجاح الخطة المرسومة لاحتلالها ، وكان أبرز المتنازعين على السلطة فى سيؤن آل الشيخ على وآل الشرفى ، وقد تطور النزاع بينهم إلى اشتباكات دموية تبادلوا فيها إطلاق النار

وحلت بسيؤن قبل احتلالها ضائقة من الجوع والخوف بسبب انقطاع المواصلات والتهديد المحيـــط بها من الداخل والخارج حتى اضطر كثير من عائلات يافع إلى الانسحاب منها ومغادرتها . وقيل ان بعض دعاة آل عبد الله عقدوا معاهدة بين بعض آل الضبى من سكان سيؤن وبين آل عبد الله ليفتحوا أبواب المدينة لجنود آل كثير أو يكفوا على الأقل عن مساعدة إخوانهم

وأقبلت قافلة تحمل الأقوات والذخائر من يافع فى الشحر إلى إخوانهم فى سيؤن فتعرض لها آل كثير فى وادى جشة ، وقد انكسر اليافعيون واستولى جماعة من العوامر على القافلة وأتوا بها إلى تريم ، الأمر الذى شجع المقدم عبود بن سالم إلى الاسراع بالهجوم على سيؤن ، فقد أقبل عليها بألفى مقاتل من آل كثير والعوامر وآل باحرى وآل جابر والحوم . وبعد حصار دام ثلاثة أيام هاجم المدينة من الشرق والغرب ، فلم تقاوم يافع طويلا وخلصت المدينة لآل عبد الله بعد خمسة عشر يوماً من بداية الهجوم سنة ١٢٦٤ هـ

وحاولت جماعة كبيرة من يافع استرداد سيؤن فى ربيع الأول سنة ١٢٦٥ هـ وباغتوا حاميتها عند الفجر واحتلوا أكثر المدينة ، ولكن آل كثير هاجموهم بنحو ثلاثة آلاف مقاتل واستحر القتل فى الفريقين ودافع اليافعيون دفاع المستميت ولكنهم اضطروا فى النهاية للانسحاب

ورأى آل كثير أن بقاء تريس الواقعة بالقرب من سيؤن فى يد يافع خطر يهدد سيؤن فحاصروها شهرين ومنعوا عنها الماء حتى اضطر حاكمها من آل النقيب إلى التسليم وخرج ناجيا بنفسه فى حوار سالمين بن عبد الله أحد رؤساء آل طالب الكثيريين سنة ١٢٦٥ هـ

معركة مرير

شجعت هذه الانتصارات آل عبد الله على التفكير فى غزو الساحل واحتلال الشحر لتكون مركزاً لتجارتهم ومواصلاتهم وقاعدة حربية لبسط نفوذهم على الساحل ، فجهزوا جيشاً كثيفاً حاصر الشحر من البر كما حاصرتها من البحر سفن الأتراك التى قدم بها من جُدَّة السيد إسحق بن يحيى والأمير عبود بن سالم الكثيرى . وتحمس آل بريك حكام الشحر ووصلتهم نجدات يافع التى أرسلها القعيطى والكسادى فنشبت معركة حامية فى « مرير » بالقرب من الشحر استبسل فيها الفريقان وانتهت بهزيمة آل كثير وقتل عدد كبير من رجالهم وكان ذلك سنة ١٢٦٩ هـ . وقد سبق فى ترجمة الأمير على ناجى بن بريك تفصيل واف لهذه الحادثة فليرجع إليه من أراد

غالب بن محسن يعود من الهند

كانت أنباء الانتصارات تصل إلى الجمدار غالب بن محسن وهو فى الهند فتضاعف من عزيمته وتدفعه إلى مواصلة الكفاح . وقد خلقت هذه الحوادث الدموية فى حضرموت بين يافع وآل كثير جواً من الضغينة والتنافس بين غالب بن محسن وأنصاره من جهة وبين عمر ابن عوض القعيطى وأنصاره من جهة أخرى . وأخذ كل فريق يهدد ويتوعد ويعمل كل ما فى وسعه للفوز والغلبة . وقيل إن ملك حيدر أباد خشى قيام الفتنة فى بلاده بين العرب عنا ما

اشتد النزاع والصراع بين البطانين فأوعز بترحيل الجمدار غالب بن محسن عن مملكته

ومهما يكن من أمر فقد غادر السلطان غالب بن محسن الهند متجهاً إلى حضرموت ليشرف على تنفيذ بقية المنهج الضخم وليقود المعارك بنفسه . وقد وصل إلى سيؤن قادماً إليها بطريق ظفار فى شهر صفر سنة ١٢٧٢ هـ حيث قوبل بحفاوة بالغة واستقبل استقبال الفاتحين

وهكذا قدم غالب بن محسن إلى حضرموت واسمه ملء الألسنة والاسماع ، وأخباره ملء الأندية والمحافل ، فقد أصبح الناس فى حضرموت وليس لهم حديث سوى أنباء القتال فى تريم وسيؤن والاستيلاء عليهما ثم جلاء يافع عن تريس وغزو الساحل ومعركة مرير إلى غير ذلك من الأحاديث التى يكون محورها ومركز الدائرة فيها غالب بن محسن

الاتحاد قوة لا تغلب

وحدث ما كان يتوقعه غالب بن محسن من خطر منافسه الكبير الجمدار عمر بن عوض القعيطى ، فقد أيقنت قبائل يافع بأن ما تلقت من صدمات انما هو نتيجة تفرقها وتخاذلها ، فاتحدت تحت قيادة القعيطى وتوجيهه ، فتغير الموقف وتكافأت القوى

حاول السلطان غالب بعد وصوله أن يستولى على شبام وكان القعيطى قد احتلها ، فحشد ما لا يقل عن ألفى جندى اتجهت إلى شبام فى ذى الحجة سنة ١٢٧٥ هـ فلم يتمكن المهاجمون من الدنو من أسوار المدينة ، ودارت المعركة فى ضواحيها فانهزم آل كثير تاركين ثلاثة عشر قتيلا وخمسة وعشرين جريحاً

وغير غالب بن محسن اتجاهه بعد هذه الهزيمة إلى الساحل محاولا الحصول على منفذ إلى البحر يضمن به سلامة مواصلاته من الخارج ، فعقد النية على غزو الشحر وجهز جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل هاجم بهم المدينة من جميع جهاتها البرية بغتة دون أن يكون حاكمها على ناجى بن بريك على استعداد ، فلم تكن المقاومة شديدة واستولى المهاجمون على المدينة فى جمادى الآخرة سنة ١٢٨٣ هـ وواصل الجيش الكثيرى زحفه محاولا الهجوم على المكلا لاحتلالها ، فبدأ بمهاجمة الحرشيات والبقرين واحتلها بعد قتال عنيف

وكانت قد وصلت نجدة يافع من الداخل لمحاولة الدفاع عن الشحر ، فلما علمت بسقوطها اتجهت إلى المكلا حيث انضمت إلى جنود الكسادى للدفاع عن المكلا ، فاشتبكت مع المهاجمين فى قتال عنيف فى ضواحى البقرين انتهى بهزيمة آل كثير وتخليهم عن مراكز البقرين والحرشيات

وفى ٢٤ من ذى الحجة سنة ١٢٨٣ هـ أعد القعيطى حملة كبرى من البحر والبر يقدر رجالها بثلاثة آلاف مقاتل هاجمت الشحر من جميع جهاتها واقتحمت الأسوار ، ولم يستطع جيش السلطان غالب المقاومه أكثر من يومين تخلى بعدها عن المدينة تاركا زهاء أربعين قتيلا

لم ييأس غالب بن محسن ولم يضعف من عزيمته هذا الفشل الذى لاحقه فى الساحل ، فأعاد الكرة لاسترداد الشحر فى رجب سنة ١٢٨٤ هـ وتمكن من اقتحام المدينة واحتلال جانب كبير منها ، ولكن يافع استبسلت فى الدفاع واستمرت المعارك بضعة أيام فى المنازل والشوارع بالبنادق ثم بالسلاح الأبيض ، فاضطر السلطان غالب إلى الانسحاب بجيشه وكانت خسائره ١٢٠ قتيلا و٦٠ جريحاً و ٢٠ أسيراً

وعاد السلطان غالب إلى سيؤن ليستأنف نشاطه ويعيد التفكير فى برامجه من جديد ورأى أن بقاء آل البكرى فى مريمة وسط المنطقة الكثيرية خطر يهدد مصالح آل كثير فأجلاهم عنها بدون حرب فى ذى القعدة سنة ١٢٨٤ هـ إلى شبام ، وكردّ فعل لهذا التصرف أجلى القعيطى آل زيمة من غربى شبام وهم من آل كثير وأسكن آل البكرى فى مساكنهم ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الريضة بالقطن

أما غيل بن يمين التى يسكنها الشناظير من قبيلة لبعوس اليافعية فقد سلمت لآل كثير قبل ذلك بواسطة بيت على من الحموم الذين اتفقوا مع آل كثير على أن يقوموا بحرب الشناظير ولهم نصف أموال يافع فى هذه المنطقة ، وبعد مقاومة دامت أربعين يوماً سلم الشناظير فى رجب ١٢٧٥ هـ ولم يستطع القعيطى إرسال نجدة لهم لبعد المسافة واشتغاله بالحرب فى جبهات أخرى

الحملة الكبرى على آل كثير

كان الجعدار عوض بن عمر القعيطي قد تشاور مع كبار رجال يافع وعقدوا النية على غزو آل كثير في عقر دارهم واسترداد ما فقدوه من أموالهم وبيوتهم في المنطقة الكثيرية ، وأعدوا لهذا الغزو سبعة آلاف مقاتل من يافع وموالبهم ومن هنود ورويلة وكرب وقبائل دهم ويام وآل تميم ونهد وأخلاط من القبائل الأخرى

وفي مستهل شعبان سنة ١٢٨٥ هـ بدأوا هجومهم وكانت مدينتا سيئون وتريم الهدف الأول من هذا الزحف ، وقد وضع الجعدار عوض بن عمر مع إخوانه خطة محكمة تكفل نجاح هذه الحملة ، ولكن اختلاف قواد الفرق من الجيش القعيطي واستبداد كل رئيس برأيه وعدم تنفيذهم لأوامر القيادة العليا وتسرب الحسد والأنانية إلى من يضمهم الأمر من يافع ، كل هذه الأسباب سببت فشل هذه الحملة فشلا ذريعاً ، أضف إلى ذلك ثبات آل كثير في وجه المهاجمين فقد كانوا يرون في هذا الغزو معركة حياة أو موت بالنسبة لهم ، وسيأتي في ترجمة الجعدار عوض بن عمر تفصيل هذه المعارك

وبالجملة فقد مني هذا الجيش القعيطي على وجه العموم من كل النواحي التي هاجم آل كثير منها بخسائر ، الأمر الذي جعل قواد الحملة يفضلون العودة من حيث أتوا ، قانعين من الغنيمة بالإياب

وفاة غالب بن محسن

سبق القول بأن نزول القعيطي في الميدان غيّر الموقف وأكسب الكفتين تعادلا ، فلم يتمكن يافع من استرداد ما فقدوه في حضرموت ولم يستطع السلطان غالب بن محسن إرضاء مطامعه في التوسع ، وهكذا بقي الحال إلى أن أدركت غالب بن محسن الوفاة بسيئون في شهر رجب سنة ١٢٨٧ هـ عن أربعة وستين عاماً حافلة بالجليل الخالد من الأعمال

والمعروف من شمائله أنه ـ رحمة الله عليه ـ كان شهماً مقداماً حسن السيرة متمسكا بالدين . يقول ابنه السلطان منصور : لا أذكر أن أبي ضربني إلا مرة واحدة كنت نمت عن

صلاة الصبح جماعة فى المسجد فضربنى بقتيلة البندق ـ بعد أن أقفل باب الحجرة ـ ضرباً مبرحاً

خلفاؤه من بعده

تولى السلطنة بعد وفاة غالب بن محسن ابنه المنصـــور بن غالب المتوفى بعرفات فى ٨ ذى الحجة سنة ١٣٤٧ هـ ، ثم على بن منصور المتوفى بسيؤن فى شعبان سنة ١٣٥٧ هـ ، ثم جعفر بن منصور الذى توفى سنة ١٣٦٨ هـ فى جمادى الآخرة ، ثم تولاها السلطان الحالى « وهو فى ريعان شبابه » الحسين بن على بن منصور بن غالب ، وكان للسلطان غالب بن محسن ابن آخر غير المنصور هو محسن بن غالب تشبث أبناؤه بالاستقلال بحكم ترهم ، وحدث نزاع واشتقاق بسبب ذلك . ويقول بعض المطلعين إنهم أجبروا فى النهاية على التنازل عن مطالبهم فى الاستقلال فى سنة ١٩٤٥ م

وقد حصلت حوادث حربية فى عهد السلطان منصور بينه وبين القعيطى لم يكن لها كبير دخل فى تغيير الوضع الجغرافى والسياسى لدولة آل عبد الله ، ولكن أهم الحوادث فى عهده معاهدة عدن المنعقدة بين الدولتين القعيطية والكثيرية فى سنة ١٣٣٦ هـ والتى تراضى بموجبها الفريقان على إيقاف الأعمال الحربية وأعلنا فيها عن استعدادهما للتعاون فى إصلاح البلاد . وبمقتضى هذه الحادثة أيضاً اعترف الكثيرى بمعاهدة الحماية بين القعيطى والتاج البريطانى على أنها ملزمة لحكومته . وهكذا أصبح الكثيرى لأول مرة تحت الحماية البريطانية منذ ذلك التاريخ

وأهم الحوادث فى عهد السلطان على بن منصور تعيين مستشار انكليزى لدولتى حضرموت تعهدنا بأن تقبلا نصائحه فيما عدا الأمور الدينية وتقاليد البلاد ، وكان أول مستشار انكليزى هو المستر انجرامس . وفى عهد السلطان جعفر بن منصور جردت حكومة عدن حملة لإخضاع عبيد صالح بن عبدان الكثيرى أمير الغرفة الذى أبى الخضوع لسلطنة آل عبد الله وكان ذلك فى فبراير سنة ١٩٤٥ م . وقد تمكنت هذه الحملة من احتلال الغرفة وتسليمها لسلطان سيؤن بعد إلقاء القبض على الأمير عبيد صالح وإرساله إلى عـدن بالطائرة حيث واصل سفره إلى

سنغافورة التى يملك فيها ضياعاً وعقارات تتألف منها ثروته التى كان يعتمد عليها فى حكم منطقة الغرفة . أما فى عهد السلطان الحالى فتجرى عدة إصلاحات إدارية وثقافية واقتصادية بل وسياسية أيضاً

حدود السلطنة الكثيرية

فى عهد السلطان جعفر بن منصور تعينت لجنة لتحديد الحدود بين السلطنتين القعيطية والكثيرية مكونة من مندوبى السلطنتين تحت إشراف المستر شَبرد المستشار المقيم ، وقد انتهت هذه اللجنة المشتركة إلى قرار حاسم فى موضوع الحدود وقعت المصادقة عليه رسمياً ، وهذه هى حدود السلطنة الكثيرية نقلا عن الخريطة الرسمية التى وضعت لتبيين الحدود :

تبتدىء فى الشمال الشرقى من شرق تريم مباشرة وتمتد فى خط متعرج شرقى جنوبى إلى حصن الضبيعة قريب من منطقة الحموم ، ثم يذهب الخط فى اتجاه غربى جنوبى الى حسر زبون شمال ريدة المعارة ، ويعود الخط فى اتجاه غربى شمالى ، ثم فى اتجاه أقرب إلى الاستقامة منحرفاً قليلا إلى الشمال إلى أن يحاذى وادى الحرية فيتجه إلى الشمال محاذياً لهذا الوادى حتى يصل الى الحزم شرق شبام حيث يمر غربى الحزم و غربى المحجر إلى قارة آل عبد العزيز ، فينحرف غربيها إلى الشمال

ويدخل فى هذه الحدود من الأودية : وادى عدم وأودية مدر وجعيمة وعيديد وجثمة وأعالى وادى ثبى ووادى بن على ووادى تاربة وغيرها ، وتشتمل على المدن والقرى التى تبتدىء من تريم شرقاً إلى الحزم شرق شبام غرباً ومن بينها عاصمة السلطنة ـ سيؤن ـ والغرفة والحوطة وجفل وتريس وسريمة وتاربة ومدودة والغرف . وأهم القبائل التى تسكن المنطقة الكثيرية هم : آل كثير والشنافر أى القبائل التابعة لآل كثير مثل آل جابر وآل باجرى والعوامر وغيرهم

(١٨)

محمد بن عمر بن سلم

أسرته . نسبه ـ ميلاده . نشأته ـ رحلته إلى مصر ـ دراسته فى الأزهر ـ إجازة العلماء له ـ عودته إلى الشحر ـ زيارته لوادى حضرموت ـ لماذا اختار غيل با وزير ـ بناؤه المعهد ـ جانب من سيرته ـ وفاته ـ تلاميذه

أسرته . نسبه

فى حارة عيديد من مدينة الشحر بيت متواضع تقيم فيه عائلة تحدرت من أسرة كريمة عرفت بالنبل والفضل ، يتصل نسبها بالهاشميين من بنى عقيل بن أبى طالب ، ولا يعرف بالضبط متى هاجرت هذه الأسرة إلى حضرموت ، ولكن التاريخ يثبت أنها كانت معروفة بهذا الاسم المتداول الآن ـ ابن سلم ـ فى مطلع القرن السابع الهجرى ، فقد ذكروا أن العلامة الشيخ على بن سلم أحد كبار تلاميذ السيد عبد الله بن علوى ابن الفقيه المقدم كان مجاوراً مع شيخه بمكة فى شهر رمضان ، فكانا إذا فرغا من صلاة التراويح أحرم كل منهما بركعتين يقرأ فيهما القرآن كله . وكانت هذه الأسرة تقطن أثناء القرن السابع بقرية فى ضواحى عينات تدعى قرية آل بن سلم فيها توفى الشيخ على السابق ذكره وبها دفن

ويظهر أن أحد أجداد هذه العائلة التى نتحدث عنها اضطر أن ينتقل بأهله من الداخل أثناء الفتن والحروب التى كان وادى حضرموت مسرحاً لها طيلة قرون طويلة ، فاختار الإقامة فى مدينة الشحر التى كانت أهم مدن الساحل فى ذلك العصر . وهى وإن لم تكن بمنأى عن براكين الفتن والأحداث الدموية فقد كانت أسباب العيش فيها متوفرة وعوامل الأمن والهدوء أقل تعرضاً لزلزال الاضطرابات . والهجرة من مناطق الداخل إلى السواحل الحضرمية الجنوبية معروفة منذ أمد طويل

ميلاده . نشأته

فى سنة ١٢٧٤ هـ كان ميلاد صاحب الترجمة محمد بن عمر بن بكران بن سلم فى بيت والده بحارة عبيد من مدينة الشحر فى عصر حالت فيه ظروف البلاد السياسية وأحوالها العامة دون ازدهارها الثقافى والاجتماعى ومن أسرة عريقة فى الشرف والفضل

وليس بين أيدينا مصادر موثوق بها تلقى على نشأته الأولى شيئاً من الضوء سوى أنه نشأ تحت رعاية أبيه الذى لم يلبث أن عاجلته منيته فى غيل با وزير أثناء زيارته لها ودفن بمقبرة – غيل – المشهورة ، وسوى أنه تلقى مبادىء القراءة والكتابة ودرس القرآن والفقه وأوليات علوم اللغة على المشتغلين بهذه الشئون من طلبة العلم الموجودين إذ ذاك بالشحر ، وكان معروفاً منذ صغره بالذكاء والفطنة والرغبة الشديدة فى تحصيل العلم والانقطاع له . وقد واصل الدرس ولازم المشتغلين بالعلم حتى استطاع فى سن مبكرة أن يتصدى للإفتاء والتدريس فى مساجد الشحر ، وكان يجلس للدرس غالباً فى مسجدى عبيد وابن عمران ، ولم يصل إلينا من أسماء أساتذته الذين درس عليهم بالشحر سوى اسم الشيخ ناصر بن صالح ابن الشيخ على اليافعى ، ولعله كان أكثر ملازمة له واستفادة منه

رحلته إلى مصر . ودراسته فى الأزهر

لم تكن الحياة العلمية الضئيلة بالشحر آنذاك لتشبع نهم صاحب الترجمة أو تروى له غليلا ، وليس فى هذا المقدار الذى وعاه من العلم من زملائه وأساتذته ما يكفيه لقيام بيث حركة ثقافية تدب روحها فى أنحاء الساحل ، فتتضامن مع الحركة العلمية التى أخذت تنمو وتتقدم فى سيؤن وتريم بالداخل ، وهو لو كان يطلب العلم ليكون وسيلة إلى الجاه والعيش الهنىء لا كتفى بما عنده قانعاً بما يدر عليه من بسطة فى العيش وأثر فى الحياة محدود يتناسب مع أحوال عصره وبيئته ، ولكن نظره كان أبعد من ذلك ، وكانت همته أسمى من أن يقف أمام مراميها الإصلاحية إيثار الراحة والركون إلى الجاه الزائف

لقد كان الرجل يريد مزيداً من العلم يكون ذخيرته فى الإصلاح والدعوة إلى الله ونشر

تعاليم الإسلام ، فلم يجد أحسن من أن يتجه إلى أكبر جامعة إسلامية فى العالم ، إلى الأزهر الشريف ، حيث يتخرج فحول الرجال وأقطاب الدين فى العالم الإسلامى . والجدير بالملاحظة والأمر الذى يسترعى الانتباه فى هذه الظاهرة أنه لم يكن من عادة سكان الساحل التغرب إلى الأقطار البعيدة وتحمل مشاق السفر وأتعابه فى ذلك العهد طلبا للثروة والتجارة فضلا عن السعى للعلم والأدب

وليس من الصدفة فى شىء أن يشذ صاحبنا فتسوقه الأقدار سوقاً إلى القاهرة دون وعى أو اختيار ، فلم يبق سوى طموح الرجل وبعد نظره وسمو همته يدفعه كل ذلك دفعاً إلى الخروج على التقاليد التى ألفها مواطنوه والارتفاع بعقله وتفكيره فوق مستوى الوسط الذى عاش فيه ، فاذا هو فى القاهرة يكرع من أكبر منهل دينى إسلامى ، ويصل سواد ليله ببياض نهاره فى الدرس والتحصيل استعداداً لتنفيذ آماله وأمانيه

ولم نقف على تاريخ رحلته إلى مصر بالضبط ، ولكننا نستطيع أن نستنتج من تاريخ الإجازة التى أجازه بها كبار مشايخ الأزهر عند اعتزامه العودة إلى وطنه ، وبعد حصوله على شهادة العالمية ، أن رحلته كانت سنة ست بعد الثلاثمائة والألف ، فقد كتبت هذه الإجازة فى ١٥ صفر سنة ١٣١١ هـ . فاذا لاحظنا ما أجمع عليه من عرفنا من تلاميذه المتحدثين عنه من أنه أقام فى مصر أربع سنين وأشهراً تبين صحة ما ذهبنا إليه من تحديد تاريخ سفره

أما العلوم التى تلقاها فى الأزهر فهى : التفسير والحديث والأصول والفقه وعلوم اللغة والمنطق والفلك وغيرها من الدروس التى كانت تدرسها الأقسام العالية فى الجامعة الأزهرية

وكان أخص من اتصل بهم من مشيخة الجامع الأزهر وتلقى عنهم علومه : شيخ الإسلام محمد الانبابى والشيخ أحمد الرفاعى سمع عنه الحديث ، والشيخ إسماعيل الحامدى سمع عنه النحو ، والشيخ الأشمونى ، والشيخ حسين زائد مدرس علم الميقات

إجازة العلماء له

بعد أن أنهى دراسته فى الأزهر ، وقرر العودة إلى وطنه كتب له كبار مشايخه هذه

الإجازة التي عثرت عند أحد كبار تلاميذه على النسخة الأصلية التي أمضاها ما يزيد على خمسة وعشرين من رجال الأزهر من علماء المذاهب الأربعة ، بينهم الشيخ إسماعيل الحامدى المالكى وهارون عبد الرازق المالكى ، وحسن حسن بدير الجريسى خادم القرآن بالأزهر ، ومحمد موسى البجيرمى الشافعى ، وعبد الوهاب الخضرى الشافعى ، وحسن السقا الشافعى خطيب الأزهر ، وحسين زائد مدرس علم الميقات ، وإبراهيم الظواهرى ، وحسن المرصفى ، ومتولى على الحنفى ، وأحمد السيونى الحنبلى وغيرهم . وقد جاء فى هذه الإجازة بعد الديباجة ما نصه :

« وكان ممن هاجر لمصرنا ، وعكف على اقتطاف ثمرات الفنون العلمية من رياض درسنا ، وحضر فى أزهرنا الكتب المختصرة والمطولة ، من بالغ مراده من هذا الشأن واستكمله ، ولدنا وقُرة أعيننا المرتوى من بحر الحقائق الشيخ الفاضل والجهبذ الكامل محمد بن عمر بن سلم العقيلى الشحرى . ولما عادت على هذا الماجد عوائد أزهرنا ، وتحلى بأنضر حلة من محاسن مصرنا ، وحَنَّتْ له الأوطان ، وطلبه الأهل والإخوان ، ولبّى وأجاب ، وحَنّ للقـــاء والاقتراب ، بعد أن ركب فى مدته الطويلة بأزهرنا جياد فكر لا تُسبق ، واستعمل فى تحصيله عوالى هم لا تلحق ، حتى أدرك فى العلوم والفضائل غاية وقفت دونها همم المحصلين ودقة قصرت عنها أنظار المدققين . استجازنا فى الفنون العلمية ومروياتنا السنية ، فأجزناه بكل ما تجوز لنا روايته ودرايته إجازة عامة فى التدريس والفتوى ، ونوصيه بتقوى الله فى السر والنجوى ، أجرى الله على يده نفع العباد ، ورفع كلمة الحق والسداد ، ونرجوه أن لا ينسانا من خير الدعوات فى أماكن الإجابات »

وقد أجازه الشيخ أحمد الرفاعى المالكى إجازة خاصة برواية صحيح الإمام البخارى وإجازة عامة بما تلقاه وأجيز به من مشايخ عصره . وفى مصر اجتمع بالعلامة السيد أحمد بن حسن العطاس أثناء زيارته لها ، وكان هذا الاجتماع بداية صلة متينة بين الشخصيتين الكبيرتين ، وقد توثقت هذه الصلة بعد عودتهما إلى حضرموت وأثمرت تعاونا بينهما فيما هو بسبيله من نشر تعاليم الإسلام والدعوة إلى الله

عودته إلى الشحر

إذا جرينا على استنتاجنا السابق فى تاريخ سفره إلى مصر ، فان عودته من القاهرة إلى الشحر تكون فى سنة ألف وثلاثمائة وإحدى عشرة وقد أخذت الأحوال فى البلاد الساحلية تستقر وتسير فيها الحياة سيراً طبيعياً ، فقد خضعت أهم مدن الساحل للسلطنة القعيطية القوية الفتية وابتعدت عن الأذهان فكرة الغارات والحروب الأهلية بفضل نفوذ هذه الدولة وقوة بأسها ، فكان السبيل ـ لذلك ـ ممهداً أمام المصلحين والدعاة لبث دعوتهم ونشر تعاليمهم

وطبيعى أن يتخذ العلامة ابن سلم من الشحر مسقط رأسه محوراً لنشاطه ومركزاً لدعوته ، فعقد فيها دروساً عامة للوعظ والإرشاد ، ونشر أحكام الدين ومبادىء الأخلاق والفضيلة ، وتذكير العامة بالله واليوم الآخر ، ودروساً خاصة للطلبة والمنقطعين للعلم . وقد أخبرنى الأستاذ السيد محمد بن هاشم الأديب المؤرخ والكاتب الحضرمى المعروف أنه كان يختلف فى هذه الآونة إلى درس الشيخ محمد بن سلم للأخذ عنه والاستماع إليه ، وقال انه عرض على الشيخ قصيدة من نظمه فى مدح السلطان غالب القعيطى فأثنى عليها واستغرب صدورها من الأستاذ فى مثل سنه

وقد توافد الناس لحضور درسه وقصدوه من كل ناحية لاستفتائه فى المسائل الشرعية التى تعرض لهم حتى شاع ذكره وانتشر صيته فى جميع أنحاء الساحل والداخل ، وعرض عليه قضاء الشحر أيام ولاية الجعدار حسين بن عبد الله القعيطى عليها فرفض مفضلا التفرغ للدعوة إلى الله وخدمة الدين والأمة عن طريق نشر العلم على سطوة القضاء وجاه الحكم ومتاع الدنيا فقد كانت نزعة الرجل إلى الإصلاح الاجتماعى أقوى من أن تخضع لتأثير المادة أو شهوة الحكم

زيارته لوادى حضرموت

أخبرنى غير واحد ممن عاصروا الشيخ فى هذه الفترة أنه كان مقتنعاً بوجوب البحث عن

مدينة أخرى غير الشحر تتوفر فيها الوسائل التي يراها لازمة لنجاح مشروعه الذي هو بصدده من بناء مؤسسة علمية يتخصص فيها الطلبة في علوم الدين واللغة وتضم قسما داخلياً لإيواء الطلبة الغرباء ، وقبل أن يصل إلى قرار حاسم في الموضوع رأى أن يقوم برحلة إلى داخل حضرموت لزيارة علمائها وصالحيها والتعرف إليهم وأخذ فكرة عن مدى الثقافة الموجودة هناك ونظام التدريس المتبع عندهم

وقد كانت هذه الزيارة ذات أثر طيب بالنسبة للمشروع الذي طالما شغل تفكيره ، فقد استطاع أن يُكيّف أسلوبه في الحياة وطريقة معالجته الأمور بالمقدار الذي يضمن خطته النجاح . وكان الرجل على جانب كبير من الذكاء ورجاحة العقل والكياسة واللباقة . وقد أثنى عليه علماء حضرموت واعترفوا بفضله وفي مقدمتهم الزعيم الروحي الكبير العلامة السيد علي بن محمد الحبشي ، وقد أشار إليه في إحدى قصائده . أما العلامة السيد أحمد بن حسن العطاس فقد كان أكثرهم اتصالا بالشيخ محمد وأشدهم عناية به ، وهو من أوائل المشجعين له على الإقامة بغيل باوزير وبناء المعهد العلمي بها ـ الرباط ـ

هذه هي الزياره الأولى التي قام بها العلامة ابن سلم لزيارة بلدان الداخل . أما الزيارة الثانية فقد كانت بعد بنائه الرباط في غيل باوزير واستقراره بها وبعد أن كان له تلاميذ وأتباع كثيرون ، فقد سار إليها في جماعة كبيرة من أتباعه وطلبته وكان يقابل بالحفاوة والإكرام حيثما اتجه وأينما حل . وقد وجد الطلبة في هذه الزيارة الفرصة الوحيدة للتعرف إلى كثير من الشخصيات ذات المكانة المرموقة في البلاد في عصر كانت صعوبة المواصلات تحول فيه دون إتاحة هذه الفرصة لكل طالب

لماذا اختار غيل باوزير ؟

أخذ ـ ابن سلم ـ عقب عودته من الداخل يفكر جدياً في المكان الصالح لتنفيذ مشروعه الضخم فولى وجهه نحو المكلا وتردد إليها غير مرة واعظاً ومدرساً ومتصلا بمن فيها من الشخصيات ورجال الحكم وأعوانهم وأرباب الثروة . ودارساً للحالة هناك . وإذا كان

صدره لم ينشرح للإقامة بالمكلا فقد أوجدت له هذه الزيارات المتكررة إليها أصدقاء مخلصين وأعواناً برره أكثرهم من أرباب الثروة وذوى الجاه والنفوذ، وأكبر الظن أنه أفضى إليهم بخبيئة صدره فوعدوه بالعون والتأييد

وفى الطريق إلى المكلا كان ـ ابن سلم ـ كثيراً ما يعرج على غيل با وزير فينزل ضيفاً على آل أبو سبعة الذين نزحوا من المكلا لزراعة التمباك ـ التبغ ـ فى الغيل والتجارة فيه وربما قصد الجامع فأدى الفريضة وزار ضريح الشيخ عبد الرحيم با وزير. وحضر مرة أحد الاجتماعات فى مسجد السيد عمر التى يقيمها الأهالى لقراءة قصة المولد النبوى، فتحدث إلى الناس فى هذا الاجتماع، وأعجب الحاضرون بغزارة علمه وطلاقة لسانه وقوة بيانه، وخرجوا وقد استولى الرجل على قلوبهم فراحوا يذيعون على الناس ما سمعوا وما رأوا مُكبرين لهذا الأثر الغريب معجبين به

وحدث مرة أن قدم إلى الشحر جماعة من آل با وزير سكان الغيل لاستئناف حكم أو قرار صدر من قاضى الغيل الشيخ عبد القادر با مخرمة فى صالح فريق منهم ضد فريق آخر فاستعان حاكم الشحر الجمدار حسين بن عبد الله القعيطى بالشيخ محمد بن سلم فى الفصل بين المتخاصمين وإرجاع الحق إلى نصابه، وتبين خطأ القاضى بعد ما استقدم إلى الشحر ونوقش فى الاجراءات والمقدمات التى بنى عليها حكمه أو قراره

وكانت هذه الحادثة من بين الأسباب التى كان لها الفضل فى تردد اسم الشيخ محمد فى أرجاء الغيل وفى توثيق صلته ببعض المشايخ من آل با وزير وعلى الأخص الشيخ عبد الصادق ابن سالم با وزير أحد الذين قدموا الشحر فى قضية الاستئناف والذى أصبح فيما بعد من أكبر أنصاره ومن أبرز طلبته كما كانت هذه الاتصالات والزيارات المتكررة لغيل با وزير من جملة الأسباب التى دعته للتفكير فى اختيار هذه البلدة الريفية الهادئة الوادعة لإنشاء المعهد الدينى بها، فان البعد عن ضوضاء المدن وصخبها من أهم العوامل لصفاء الفكر وراحة العقل والجسم وأدعى للاستزادة من الغذاء العقلى، أضف إلى ذلك قلة تكاليف المعيشة فى هذه المنطقة

الزراعية وبساطتها وجودة هوائها وتوفر المياه العذبة النقية بها

ولم تدخل سنة ألف وثلثمائة وعشرين حتى كانت الفكرة قد تحولت إلى إرادة وعزم وتصميم ، فغادر الشحر يصحبه اقدم تلاميذه الشيخ عبد الله بن محمد بن طاهر با وزير متجهاً إلى الغيل حيث نزل ضيفاً على الشيخ عبد الصادق بن سالم با وزير . وعقد فى مساء اليوم الذى قدم فيه أول دروسه العامة فى مسجد الجامع ثم استمر يلقى دروسه الليلية العامة فى هذا المسجد ويجلس إلى الطلبة صباحاً فى بناية خاصة أقيمت لهذا الغرض بالقرب من مسجد السيد عمر . وقد توافد الطلبة من كل الطبقات للأخذ عنه وتفرغوا للطلب . وكان أكثر الطلبة فى البداية من أبناء المشايخ آل با وزير الذين نزل ضيفاً عليهم فبادروا إلى تعضيده ومساعدته وسهلوا له مهمته وزوجوه إحدى بناتهم وكانوا عوناً له فى كل أعماله الثقافية والإصلاحية . ثم حصل بينه وبينهم بعض الجفاء ، وظل جماعة منهم مخلصين له إلى أن توفى رحمه الله

بناؤه المعهد

وضاقت البناية الجديدة بالطلبة ولم يكن بُدٌّ من إنشاء معهد ضخم يتناسب مع المستقبل الذى يريده له صاحب الفكرة ، ولم تمض شهور حتى أصبحت الفكرة حقيقة واقعة ، وإذا المعهد يحتل أحسن بقعة فى الشمال الغربى لمسجد الشيخ عبد الرحيم بن عمر ـ الجامع ـ ويتألف من طابقين : الأول منه للدراسة والاجتماعات العامة وأداء الصلوات ، والثانى يتكون من عدة غرف لإيواء الطلبة الغرباء . وأنشئت فى الجانب الشرقى من المعهد عدة برك ـ جوابى ـ تمر بها مياه العين التى حفرها مؤسس الغيل الشيخ عبد الرحيم بن عمر لتَسُدَّ حاجة المعهد إلى الماء

وبنى صاحب الترجمة منزلا لإقامته ملاصقاً للمعهد من الجهة الغربية ، واشترى قطعة أرض شمالى المعهد جعل منها حديقة تابعة للمنزل كان يوليها جانباً من عنايته ويتعهد ما فيها من النخيل والمزروعات

وانتظمت الدراسة فى المعهد ، وقسّم الطلبة إلى فرق حسب مستواهم فى الفهم والإدراك

وحظهم من الثقافة ، وشغلت أكثر ساعات النهار وجزء كبير من الليل بالدروس الخاصة والعامة والاجتماعات المفيدة ، ووزعت دروس الدين وعلوم اللغة على هذه الساعات ، وازدحمت الحلقات بالطلبة على اختلاف أعمارهم يتسابقون فى التحصيل ويتنافسون فى السبق

وكان صاحب الترجمة يحتفظ بمكتبة كبيرة حافلة بكتب التفسير والحديث والأصول والفقه والمنطق والأدب والتاريخ وعلوم اللغة والتصوف والطب والفلك وغيرها . وكانت هذه الكتب فى متناول جميع المتأهلين من الطلبة

واتجهت الأنظار من جديد إلى غيل با وزير حيث أشرقت شمس المعرفة من هذا المعهد الدينى الذى سخرت له العناية الإلهية رسول الأزهر الشريف العلامة ابن سلم فأحيى دروس السنة وعلوم القرآن ، وجدد الدراسات الفقهية واللغوية بعد أن مضت على هذه المدينة فترة طويلة اختفى فيها كل أثر للعلم والمعرفة أو كاد

وهكذا أصبحت غيل با وزير بفضل العلامة ابن سلم قبلة الأنظار وكعبة الطلبة والزوار يقصدها الناس من كل مكان لطلب العلم ومعرفة أحكام الشريعة ، كما كانت كذلك فى القرن التاسع الهجرى حين كان يقصدها من تربم أمثال العلامة الإمام محمد بن أحمد با فضل ليدرس القرآن والفقه والتصوف على علمائها

جانب من سيرته

مما لا شك فيه أن النجاح الكبير الذى أحرزه بن سلم يعود إلى ما وهبه الله من أخلاق كريمة وإلى ما يتمتع به من صفات نادرة ، فقد كان الرجل صاحب مبدأ فى الحياة ورسالة خاصة يؤمن بهما إيماناً عميقاً ، ويخلص لهما إخلاصاً شديداً ، ويعمل من أجلهما عملا متواصلا ، استبدّ بكل وقته وتفكيره وجهده وراحته ، وكان إلى جانب ذلك قوى الإرادة ماضى العزيمة ، راجح العقل سليم التفكير حسن السياسة كيّساً لبقاً واسع الحلم كثير الصفح ، لا يعرف الحقد إلى قلبه سبيلا

وهـــذه الصفات التى اجتمعت فى العلامة ابن سلم هى بعينها صفات الزعماء الدينيين

والمصلحين الاجتماعيين الذين يملكون قلوب الجماهير باستقامتهم ونزاهتهم وقوة شخصياتهم وإخلاصهم لمبادئهم ، فتندفع وراءهم الأمة متسابقة إلى تأييدهم وتقديم المعونة لهم ، وبذلك نستطيع أن ندرك سر نجاح صاحب الترجمة فى تحقيق مشروعه الضخم الذى تتردد الحكومات طويلا — فضلا عن الأفراد — قبل أن تقدم عليه نظراً لما تتطلبه أمثال هذه المشاريع من ميزانية ضخمة ومعونة مادية وتأييد أدبى من قبل الشعب

وكان العلامة ابن سلم يعيش فى بيته عيشة زهد وتقشف وقناعة . وقد أخبرنى أحد تلاميذه أنه رآه مرة يتغذى بالخبز الجاف والسمك المالح ، وكان فى نفس الوقت ينفق على شئون المعهد والطلبة بسخاء نادر . وكان كثيراً ما يخص فقراء الطلبة بمزيد من عنايته ويزورهم فى بيوتهم مواسياً لهم ومتفقداً أحوالهم ومتعرفاً إلى حاجاتهم ليقضيها لهم

وكان — رحمه الله — مهيب الطلعة بهى المنظر حسن الهندام شديد العناية بنظافة ملابسه وحسن اختيارها ، كما كان قوى الجسم جمّ النشاط جلداً صبوراً ، ويتحدث تلاميذه عن نشاطه بالغريب المدهش

فقد ذكروا أنه يبدأ عمله اليومى من ثلث الليل الأخير يقضيه فى صلاة وتلاوة وأذكار ، ثم يجلس للدرس بعد الانصراف من صلاة الصبح مباشرة ، فاذا طلعت الشمس تناول فطوره فى بيته وعاد لتدريس الطلبة حتى تحضر صلاة الظهر فيؤدى الفريضة ، ثم يعقد درساً خاصاً لبعض الطلبة ينصرف بعده إلى بيته ليعود وقت العصر للصلاة والدرس ، فاذا حضر المغرب أدى صلاته وجلس لاجتماع عام يضم جميع الطلبة وجمعاً غفيراً من الأهالى يتناول فيه مواضيع مختلفة تتعلق بدروس الطلبة ومواعظ عامة ويستمر هذا الاجتماع إلى صلاة العشاء

وهكذا كان يقضى يومه حريصاً على أن لا يفوته جزء من هذا البرنامج إلا حيث يضطر إلى الذهاب إلى الشحر أو المكلا أحياناً أو بعض القرى ، وكثيراً ما يحدث أن يصادف قدومه وقت انعقاد الدرس فيغادر ظهر دابته إلى حلقة الدرس رأساً قبل أن يزور أهله أو يأخذ راحته

وفاته

إلى أى حد كان يصل نشاط هذا المصلح الكبير والمربى القدير لو امتدت حياته ؟ لست أدرى ، ولكن سنة ١٣٢٩ لم تكد تدخل حتى اختطفت المنون ذلك العلامة المصلح قبل أن يتم رسالته ويبلغ شوطاً بعيداً فى مهمته عن أربعة وخمسين عاماً ، فقد كانت وفاته فى سادس المحرم من ذلك العام

وكان لموته رنة أسى فى أنحاء الساحل وفى القطر الحضرمى بأجمعه ، وشيعت جنازته الجموع الغفيرة ودفن فى مقبرة لخيل المشهورة غربى مدينة الغيل وقبره معروف بها يقصده طلبة العهد وغيرهم كل يوم جمعة للزيارة . وقد رثاه كثير من تلاميذه وعارفى فضله بقصائد بالغة فى الحزن والأسى . ومن بين هذه المراثى قصيدة باللغة الدارجة التى لا تتقيد بقواعد اللغة نظمها فى رثائه وزير الدولة القعيطية الأول السيد حسين بن حامد المحضار العلوى ، وقد تناقلها الناس وحفظوا أكثر أبياتها ، ومنها هذه الأبيات التى كثيراً ما ينشدها النساء والرجال فى الغيل :

ليت الفدا يُقبَل وبانْفدِى على الشيخ أربعون ... وإلا مائة من خلق لا نفعوا ولا ينفعون
جلوس فى الدنيا كذا مثل البهائم يأكلون ... عليك يابن سلم حتى الطير با يبكى شنون

وقيل فى سبب وفاته أنه مات مسموماً من بعض الجهلة الذين كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من فضله ، فقد شكا ألماً شديداً فى بطنه عند ما كان بالمكلا فى إحدى زياراته لها ، فنقل إلى الغيل حيث فارق الحياة بها متأثراً بهذا الألم ، عليه رحمة الله ورضوانه . وقد تناول الناس خبر السم مصدقين له لأنهم يعرفون أنه ابتلى بحُسَّاد وجهوا إليه ألواناً من الأذى والمكائد فلم ينلوا منه ما يبتغون

تلاميذه

نستطيع أن نقيس مقدار النجاح الذى أحرزه العلامة ابن سلم بالمتخرجين من تلاميذه الذين استطاعوا بعده أن يحتفظوا بالرباط أثراً خالداً من آثار أستاذهم الكبير يُمِدُّ المجتمع

ـ فى حـدود طاقته ـ بما هو فى حاجة إليه من علوم الدين واللغة العربية ، وقد انتشر عدد كبير منهم فى كثير من المناطق والأقطار يعلمون الناس ويدعون إلى الله ، فـكان منهم الواعظ والمدرس والقاضى والمحامى والـكاتب المؤلف إلى غير ذلك من أوجه النفع الدينى والدنيوى . وقد سافر بعضهم إلى مصر لإتمام دراستهم فى الأزهر الشريف كالأستاذ الشيخ محمد بن سالم با وزير والسيد علوى مديحج والشيخ أحمد بن محمد بن سلم

وكان الشيخ عبد الله بن محمد بن طاهر با وزير أقدم تلاميذ العلامة ابن سلم وأكثرهم اتصالا به فقد بدأ دراسته عليه عند ما كان بالشحر ، وكان ينوب عنه فى التدريس بالرباط حال حياته . وللشيخ عبد الله هذا قدرة عجيبة على الوعظ والتأثير فى الناس ، فـكان إذا تكلم واعظـاً أو مدرساً بهر مستمعيه وأدهشهم بحلاوة لسانه وسرعة بديهته وقوة تأثيره وكثرة استشهاده بآيات القرآن الـكريم وأحاديث النبى عليه الســـلام وأقوال السلف الصالح وخصوصاً الصوفية منهم

وكان إلى جانب ذلك ـ أو من أجل ذلك ـ محبوباً من الناس لا يسمعون بوجوده فى الرباط أو فى أحد المساجد حتى يغص المـكان بالمستمعين إلى دروسه ومواعظه ، وكان إذا صلى الجمعة فى مسجد تطلعت الرءوس عقب الصلاة إلى المـكان الذى يصلى فيه منتظرة ذلك الصوت الحبيب إلى نفوسها والحديث الحسن الوقع فى قلوبها ، كما كان حسن الصوت جيد الترتيل للقرآن الـكريم كثير الخشوع عند القراءة ، وربما قرأ فى الصلاة بعض السور الطويلة فود المصلون أن يطيل ويطيل . توفى رحمه الله فى جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ عن ثلاثة وخمسين عاماً ، ودفن بجانب ضريح شيخه العلامة ابن سلم

ومن أبرز تلاميذ الشيخ محمد بن سلم السيد محسن بن جعفر أبو نمى ، فقد كانت له معرفة جيدة بالفقه ومشاركة فى بقية العلوم الأخرى شرعية ولغوية . وله عدة رسائل ـ مخطوطة ـ فى مختلف العلوم . تولى القضاء عدة مرات فى المـكلا وغيل با وزير ، وكـثيراً ما يقصد لاستفتائه فى المسائل الفقهية فيدلّل بما يـكتب على خبرة واطلاع واسعين . وبعد أن اعتزل

القضاء تخلّى لتدريس الطلبة وتدريب القضاة الشرعيين فى كورسات دَوْرية تعدها وتنظمها الحكومة المحلية تحت إشراف رئيس القضاة الشرعيين

والشيخ أحمد بن محمد باغوزة هو التلميذ الوحيد من تلاميذ الشيخ محمد بن سلم الذى انقطع للتدريس فى الرباط منذ وفاة أستاذه حتى كتابة هذه السطور ، ولم يفارق هذه الوظيفة أو يشتغل بأى عمل آخر ، ولذلك فهو أستاذ أكثر الخريجين من الرباط بعد وفاة بن سلم . ومعلوماته فى الفقه واللغة جيدة

والذى يترجم للشيخ محمد بن سلم لا بد أن يذكر الشيخ عبد الصادق بن سالم با وزير ، فقد كان من كبار تلاميذه المناصرين له المشجعين لحركته . تولى التدريس مدة فى الرباط عقب وفاة أستاذه ثم ذهب إلى الصومال الإنجليزى حيث تولى القضاء هناك ثم عاد محالا إلى المعاش وتوفى سنة ١٣٧٥ هـ

ومن تلاميذ ابن سلم الذين لهم جهاد مشكور فى نشر المعرفة والثقافة الشيخ عوض بن سالم بلقدى إمام ومدرس مسجد النور فى المكلا وأستاذ المعهد الملحق به . والسيد علوى مديحج صاحب المدرسة المشهورة فى الشحر ، والتى تخرج منها الكثير الطيب من الطلبة وغير هؤلاء كثير وكثير . وفيمن ذكرنا ما يكفى للدلالة على مدى النجاح الذى صادف ذلك الرجل المخلص الذى يعتبر بحق باعث الحركة الثقافية فى الساحل الحضرمى ، نضّر الله محياه وبلّل بوابل الرحمة ثراه ، انه خير من يجزى المحسنين ويضاعف أجر العاملين

(١٩)

عمر بن عوض القعيطى الأول

ميلاده . نشأته ـ هجرته إلى الهند ـ صريخ يافع ـ من الدفاع إلى الهجوم ـ حرب
النخيل ـ الدفاع عن الساحل ـ المعارك حول شبام ـ الدفاع عن شبام ـ
مناصفة شبام ـ الخلاف مع جيش الخالدى ـ قتل منصور بن عمر ـ
حرب الكرعان ـ الاستيلاء على حورة ـ معركة السحيل ـ
وفاة مؤسس السلطنة

مولده . نشأته

عمر بن عوض بن عبد الله القعيطى اليافعى ـ ولد بقرية لحروم من أعمال عندل البلدة التاريخية المشهورة التى عناها امرؤ القيس شاعر العربية الفحل بقوله :

كأنى لم أسمر بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوماً بعندل

ولا تعرف بالضبط السنة التى ولد فيها ، غير أنه فى حكم المؤكد أنه ولد فى العقد العاشر من القرن الثانى عشر الهجرى . وقد كان والده يقيم بلحروم ويتردد بينها وبين شبام كما تقتضى ظروفه وأحواله الخاصة . ولما توفى بلحروم انتقل عمر بن عوض إلى شبام مع والدته التى كان لها الفضل الأول فى الإشراف على تربيته والعناية به ، وتعلم فى شبام مبادىء القراءة والكتابة والحساب وأوليات الدين فى أحد كتاتيب شبام كما يتعلمها الأطفال فى ذلك الحين ، وكانت تبدو عليه منذ صغره أمارات النبل والذكاء

وحال ضيق ذات يده دون مواصلة تعليمه ودون إرضاء نزعات نفسه الطامحة إلى المجد والشهرة . فلم يترك له أبوه من المال ما يعينه حتى فى الحصول على ضروريات الحياة الأولية . فآثر الهجرة إلى الهند وكانت إذ ذاك مهجر الكثير من الحضارم الذين يشتغلون بالتجارة هناك

أو ينضمون إلى الجندية فى جيوش أمراء الهند وبالأخص نظام حيدر أباد

هجرته إلى الهند

وتحت دافع من الاضطرار لطلب الرزق ومن العناية الإلهية التى إذا أرادت أمراً هيأت أسبابه سافر الفتى عمر بن عوض إلى الهند سنة ١٢٠٧ هـ وكان قد سبقه إليها بعض أقاربه من يافع الذين سهلوا له الالتحاق بجيش أمير ناكبور حيث برزت مواهبه فى الجندية وبرهن عن شجاعة نادرة واستعداد للقيادة والإدارة

وحدثت فى هذه الإمارة أحداث اضطرته لأن يغادرها إلى حيدر أباد وكان أميرها قد سمع الشىء الكثير عن بطولته وبسالته ومقدرته الحربية ومعرفته بفنون القتال ، فاستقبله بما يليق به من إجلال وتكريم وعرض عليه الانضمام إلى جيشه ليتولى قيادة فرقة من الجيش العربى ، فلم يتردد فى قبول هذا المنصب الجديد ، وانضم تحت قيادته ألفان وأربعمائة من شجعان العرب وألف من الخيالة وخصص له مرتباً شهرياً قدره خمسة آلاف روبية وأطلق عليه لقب ـ نواب جان نثار جنك ـ وهو من الألقاب الرفيعة فى الهند

واستطاع القائد الشاب بفضل نبوغه وعبقريته أن يشق له طريقاً إلى المقدمة ، فقد حظى لدى نظام حيدر أباد حظوة كبرى وأثرى ثراء واسعاً يبعث ذوى النفوس الطامحة إلى استغلاله فى كل خالد مفيد . وهناك فى حيدر أباد استقرت به النوى حيث آثر الإقامة بها وتزوج من كريمات إحدى العائلات الكريمة ورزق من الولد خمسة وهم : محمد وعبد الله وصالح وعوض وعلى

صريخ يافع

شهدت يافع فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى بطلين من أبطال آل كثير نزلا إلى الميدان فأقضّا مضاجع يافع بمشاغبات وحملات تستهدف جلاء اليافعيين عن البلاد الحضرمية والاستئثار بالسلطة دونهم . أحدهما منصور بن عمر من آل عيسى بن بدر ، والآخر غالب بن محسن الذى تحدثنا عنه فى فصل سابق

أما منصور فقد استطاع أن يغرس بذور الشقاق والفتنة بين قبائل الموسطة من يافع فى شبام وأخذ يناصبهم العداء حتى أجلاهم نهائياً عن شبام فى ٢٧ من رمضان سنة ١٢٥٥ هـ بعد معركة دامية لم ينج منها إلا القليل من حامية شبام اليافعية ، واستباح أموالهم وديارهم وعقارهم ، ولم يكتف بهذا بل طفق يقلق راحة يافع وهم بمساكنهم فى القطن ، فقد ضرب الحصار على أخواله آل على جابر بخشامر وبث كثيراً من أتباعه وموالية يعيثون فى القطن فساداً

وقد بلغت به القسوة إلى حد أنه أمر مواليه فأحرقوا دار ابن معتر الخلاقى حيث أخذوا يحفرون على حين غفلة من سكان البيت حتى تمكنوا من وضع مقدار كبير من البارود تحت البيت . ووصلوا به فتيلة يمتد أحد طرفيها إلى الخارج ثم أشعلوا فيه النار وانطلقوا هاربين ، ولم تمض بضع دقائق حتى أكلت النار الفتيلة ووصلت إلى البارود ، فانفجر انفجاراً هائلا تداعى منه البيت على قواعده وهلك جميع سكانه ، وكان من بينهم عقيلتان من حرم الجعدار عمر بن عوض قيل إنهما عمتاه هلكتا فيمن هلك

هذا فى غربى الوادى . أما فى شرقيه فقد وضعت المناهج والخطط لتقويض سلطة يافع فى تريم وسيؤن وما جاورهما من قرى باسم غالب بن محسن الذى يُمدّ الحركة من الهند برأيه وماله

وكانت هذه التطورات والحوادث الدموية تصل تفاصيلها بكل دقة إلى الجعدار عمر بن عوض فتثير من حفيظته وتدفعه إلى التفكير فى إنقاذ عشيرته وانجادهم واستغلال الموقف لتحقيق ما كان يدور بفكره من آمال فيها كثير من الخطورة

وفضلا عن ذلك فقد وجه إليه رؤساء يافع فى حضرموت نداءات واستغاثات يستحثونه فيها للاسراع لدرء الخطر الداهم الذى دلّت الحوادث على أنهم لا قبل لهم بصده والوقوف أمامه ، وتجسمت الفكرة فى رأس الجعدار عمر بن عوض فأخرجها إلى حيز التنفيذ مشروعاً ضخما نابضاً بالقوة والحياة

بدأ أولا بأن وجه أحد أقاربه عامر بن عوض القعيطى ليبحث له عن مكان يتمركز فيه يكون صالحاً للعمل الجليل الذى يعد له العدة ، فاشترى عامر بن عوض البقعة التى تدعى

الآن « الريضة » من السادة آل العيدروس وشرع يشيد فيها المبانى والحصون سنة ١٢٥٥ هـ ثم بعث ابنه محمداً ليقوم بالنيابة عنه فى تنفيذ الخطط الحربية أثر المفاوضة التى دارت بينه وبين وفد يافع الذى قدم من حضرموت إلى حيدر أباد مستصرخاً به سنة ١٢٥٨ هـ ومفوضاً إليه تزعم الحركة وقيادتها . وأرسل بعد ذلك مولاه الماس عمر الحبشى كمستشار لابنه محمد . وكان هذا معروفاً بالحكمة والحزم وبعد النظر ، وعلى أثر قدومهما إلى القطن واستقرارهما بالريضة قدم أبناؤه الثلاثة عبد الله وعوض وعلى

من الدفاع إلى الهجوم

شرع أبناء الجعدار عمر بن عوض عقب وصولهم إلى القطن يجندون رجال القبائل ويبذلون الأموال فى شراء العتاد الحربى واستقدموا من يافع عدداً كبيراً من الجند حتى تجمعت لديهم قوة كافية لانتزاع المبادأة بالهجوم من أيدى آل كثير فرفعوا الحصار عن آل على جابر ، واستولوا على الحصون التى بناها منصور بن عمر حول خشامر وعلى حصون العقاد الواقعة بالقرب من شبام ، وأجلوا آل كثير من حذية إحدى مدن القطن التاريخية القديمة عند ما شعروا بأنهم يتجسسون فى القطن لصالح عشيرتهم من آل كثير ويرفعون لهم أخبار يافع العسكرية وأسرارهم الحربية ، وحصنوا قرية خمور بعد أن طردوا منها من يسكنها من فخائذ آل كثير تمهيداً لهجومهم المنتظر على شبام . وبذلك استطاعت منطقة القطن اليافعية أن تتنفس من السكابوس الذى كان يجثم على صدرها فلم يستطع أحد من آل كثير بعد ذلك أن يحدث نفسه بالاقتراب من قرى القطن فضلا عن شن الغارات عليها

وبعد أن اطمأن القعيطى إلى سلامة منطقة القطن وأمنها انصرف الى تنفيذ خططه السياسية والعسكرية ، فطفق يحالف القبائل ويعقد معهم معاهدات صداقة وعدم اعتداء ، من بينها معاهدات آل عبد العزيز سكان السويرى الواقعة شرقى تريم ، كما عقد اتفاقاً مع شيخ قبيلة آل تميم بأجمعهم المقدم أحمد بن عبد الله التميمى . وبهذا الحلف أصبح أغلبية آل تميم الذين يسكنون المنطقة الواقعة شرقى تريم حلفاء القعيطى الذى اتخذ من السويرى قاعدة حربية مهمة يشاغب منها آل كثير من الخلف

ثم عقد معاهدات مع زعيم نهد الأكبر ثابت بن عبد الرب بن ثابت النهدى وتابعه أغلب قبائل نهد . ومع أمير مارب الشريف عبد الرحمن الخالدى وأمير الدرعية فى نجد محمد ابن حسين بن قملا ، وسلطان العوالق عوض بن عبد الله العوالق . وانتشرت الدعاية للسلطنة القعيطية الناشئة فى جبل يافع لدى سلاطين يافع ومشايخهم ووصلت إلى أطراف نجد واليمن

وتنبه آل كثير لخطر تحالف القعيطى مع القبائل المحيطة بهم من الشرق والغرب ، وتوجسوا شراً من هذا التطويق الذى أحكمه على منطقتهم ، واعتبروا تحالف آل تميم معه مظهراً من مظاهر العداء وسوء النية من جيرانهم الأقربين ، فشنوا الغارات المتوالية على منطقة آل تميم . ولم يتأخر القعيطى عن مساعدة حلفائه فأمدهم بنحو ألف جندى قدموا إلى قسم سنة ١٢٦٧ هـ واشتبكوا مع آل كثير فى معارك متعددة انتهت بإيقافهم عند أبواب تريم وتعرف هذه الوقائع عند يافع بحرب سنا

ورأى آل كثير أنه ليس ثمت سبيل إلى التفاهم مع آل تميم الذين أخلصوا فى ولائهم للقعيطى وتعاونوا معه على حصار منطقتهم من الشرق فطمعوا فى كسب ولاء بعض المتخلفين عن محالفة القعيطى من نهد المجاورين لمنطقة يافع فى القطن لعلهم بذلك يضعفون من قوة الحصار من الناحية الغربية فقدم على بن أحمد الكثيرى إلى عنيبدة قرية الشراشرة النهديين الواقعة شمال القطن ، وعقد معاهدة مع المتخلفين من نهد سنة ١٢٦٨ هـ بعد أن أطمعهم فى مبالغ من النقود محاولا بذلك إحداث قلاقل ومشاغبات داخل منطقة يافع وإقلاق راحتهم فى بيوتهم وبين مساكنهم

ولكن الجعدار محمد بن عمر القعيطى استطاع بفضل دهائه وكياسته أن يحبط تلك المساعى وأن يقنع حلفاءه من نهد بأنه ليس من مصلحتهم أن تكون منطقتهم ميدان حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، ومع ذلك فلم يكن المال الذى قدم به الأمير على بن أحمد الكثيرى كافياً لإغراء القبائل النهدية ودفعها فى محاولة لا تعرف نتيجتها فعاد دون أن يظفر بطائل

حرب النخيل

بعد أن احتل القعيطى العقاد وخمور وتحالف مع آل عبد العزيز شدد الحصار على شبام وتقدم رجال من يافع فعسكروا بالنخيل الواقع قرب مدينة شبام ، وحدث أثناء ذلك أن فكك آل عبد العزيز عهدهم مع القعيطى وانضموا هم وآل بلفراف إلى آل كثير ومنعوا الذخيرة والامدادات التى ترد من العقاد إلى يافع المعسكرين فى النخيل وقطعوا عليهم خط الرجعة ، وبعد معارك طاحنة انتهت بقتل قائد الحملة اليافعية الشيخ صالح بن عمر بن على الحاج تراجع من بقى من يافع إلى العقاد ، وبذلك خفت شدة الحصار عن شبام وكان ذلك سنة ١٢٦٩ هـ وتعرف هذه الحوادث بحرب النخيل

الدفاع عن الساحل

وعلم آل كثير أن استفحال شأن القعيطى واشتداد ساعده إنما كان بسبب الموارد الكبيرة والأموال الكثيرة التى تأتيه من قبل البحر وبواسطة التسهيلات التى يقدمها له زملاؤه اليافعيون من آل كساد وآل بريك فى المكلا والشحر ، ففكروا فى احتلال الشحر لتكون مركزاً لتجارتهم ومواصلاتهم فى الساحل ، وقاعدة لقطع تجارة القعيطى وموارده من الخارج ، ونواة لبسط نفوذهم فى المناطق الساحلية التى يطمعون فى الاستيلاء عليها ، وبذلك يستطيعون أيضاً أن يتخلصوا من حركة التطويق والالتفاف التى يقوم القعيطى بإحكامها عليهم

ولضمان نجاح هذه الفكرة جمعوا مبلغاً كبيراً من المال وأرسلوه مع من كلفوه بالذهاب إلى الحجاز ليقدمه لبعض موظفى الأتراك هناك فى مقابل الحصول منهم على مساعدة حربية يستعينون بها فى غزو الساحل . وقد استطاع مندوبهم أن يعود بسفينتين حربيتين تحملان جنوداً من الأتراك ومعدات حربية فى الوقت الذى كان فيه جيش كثيرى يعسكر فى موضع يقال له مرير يشرف على الساحل من ناحية الشحر الغربية ، واختاروا هذا الموضع بالذات ليسهل عليهم الاتصال بالحملة البحرية القادمة من الحجاز وليحولوا دون وصول إمدادات يافع إلى الشحر

وعلم القعيطى بخبر هذا الغزو ، وأدرك ما يترتب على نجاحه من عواقب وخيمة على سياسته وأهدافه الحربية فسارع بإرسال نجدة من يافع تحت قيادة سعيد بن حسين بن على الحاج سنة ١٢٦٩ هـ وكتب إلى الكسادى بالمكلا يحثه على إمداد آل بريك بالجنود والعتاد ، كما كتب إلى ابن بريك حاكم الشحر يشجعه على الثبات والاستماتة فى الدفاع . ووصلت نجدات يافع فاصطدمت بالجيش الكثيرى المرابط فى سير ونشبت معركة حامية استبسل فيها الفريقان وانتهت بهزيمة الجيش الكثيرى وقتل عدد كبير من رجاله وكانت إصابات يافع وخسائرهم قليلة

أما السفينتان فقد هاجمتا المكلا ليلا وكان رجال الكسادى على استعداد للدفاع فركبوا الزوارق متجهين نحو الأتراك المهاجمين وأطلقت المدافع الكسادية قنابلها عليهم فانسحبوا قاصدين إلى الشحر ، ولما اقتربت السفينتان من الميناء أطلقت النيران على المدينة فلم يصب أحد بأذى ولم تسبب أضرارا تذكر ، وكان البحر هائجاً والرياح تعصف بشدة فلم يستطع ملاحو السفينتين مقاومة الأمواج الغاضبة فانسحبوا قانعين من الغنيمة بالإياب وكان ذلك سبباً فى فشل الحملتين البرية والبحرية [1]

المعارك حول شبام

كان القعيطى قد عقد معاهدة تحالف مع قبيلة آل هضيل الكثيرية التى تسكن الظاهرة فى ضواحى شبام واتخذ من هذا الموقع قاعدة حربية لمناوشة شبام ومهاجمتها ، فاشتد الخطر على المدينة وهاجمها القعيطى من الناحية الشمالية التى تدعى الشويرع ودامت الحرب من ربيع الأول سنة ١٢٧٠ هـ إلى ذى القعدة سنة ١٢٧١ هـ واستطاع المهاجمون من يافع احتلال الشويرع وأصبحت شبام مهددة بالسقوط فى أيديهم

---

(١) هذه رواية الأمير على بن صلاح القعيطى عن حادثة مرير كما قصها على المؤلف ، وفى الرواية التى سبقت فى ترجمة ابن بريك نقلا عن بامحسن سياق آخر
المؤلف

ولكن منصور بن عمر الكثيرى حاكم شبام عمل سراً للاتصال بآل هيضل وحملهم على الغدر بيافع ونقض تحالفهم مع القعيطى ، فتم له ما أراد وضرب الحصار على الحامية اليافعية فى الظاهرة حتى اضطروا إلى إخلاء القاعدة وتسليم أنفسهم ، ونزل اثنان من آل على جابر فى جوار سالمين بن عبد الله رئيس قبيلة آل طالب فأبلغهما مأمنهما ونزل الباقون فى أمان نفر من آل عيسى بن بدر فغدروا بهم وساقوهم إلى منصور بن عمر فى شبام حيث اعتقلهم هناك ، واستطاع هؤلاء بعد ذلك أن يفروا من السجن بواسطة نفق حفروه تحت الأرض .

وبسقوط الظاهرة فى أيدى آل كثير قرر القعيطى التوقف عن مهاجمة شبام — إلى أجل — وأمر جنوده بتخريب المراكز التى فى قبضتهم ونقل سكان الشويرع من أهالى شبام إلى الريضة بالقطن فجاءها منهم آل شعيب وآل معلّم وآل ربيعة وغيرهم ، وقدّم لهم القعيطى مساعدات مادية ووعدهم بأن يعودوا إلى شبام فى أقرب وقت

حصون الدفاع عن شبام

أدرك القعيطى أن لا فائدة ولا جدوى من المعاهدات التى يعقدها مع الشنافر وفخائذ آل كثير فقرر عدم الاعتماد على أى حليف منهم ، وعقد العزم على تطهير ضواحى شبام من بقية آل كثير فاحتل خيّر سنة ١٢٧٣ هـ وهاجم حصون سعيدية وبزرق والرُّكز أهم حصون الدفاع عن المدينة . وقد دافعت حاميات هذه الحصون دفاعاً شديداً اضطر معه الفريقان إلى استعمال السلاح الأبيض ، وانتهى القتال بإخلاء آل كثير لهذه المراكز واحتلال يافع لها فى ذى الحجة سنة ١٢٧٤ هـ

مناصفة شبام

وأيقن منصور بن عمر بخطورة الحالة فقد ساءت الحالة الاقتصادية للمدينة بسبب انقطاع المواصلات عنها نتيجة للحصار الشديد الذى أحكمه القعيطى عليها ، وسقطت مراكز الدفاع المهمة فى أيدى خصومه من يافع ، وبات من المتوقع أن يهجم القعيطى على شبام فيحتلها ويكون نصيب حاكمها الطرد أو القتل . فقرر منصور بن عمر أن يختار أهون الشرور وبعث

إلى القعيطى من سعى بالصلح على مناصفة شبام بينهما كما كانت الحال بينه وبين الموسطة من يافع ، تقبل القعيطى هذا الصلح وتم احتلال القعيطى لنصف شبام فى غرة محرم سنة ١٢٧٥ هـ

وكان كل من القعيطى ومنصور بن عمر يعلم حق العلم أن مناصفة شبام ليست إلا ضرورة اقتضتها الظروف وتدبير مؤقت حتى تتاح الفرصة لتغلّب أحد الخصمين على الآخر

الخلاف مع جيش الخالدى

كتب القعيطى — أثناء حصاره لشبام — إلى الشريف عبد الرحمن الخالدى أمير مارب أن يرسل إليه جنوداً لمساعدته فى الهجوم على شبام . فأرسل إليه ما لا يقل عن ألف جندى بينهم مائتا فارس يتقدمهم نجله الشريف حسين ، ولكن هذه الجنود قدمت إلى القَبْر بعد الموعد المحدد لوصولهم وبعد اتفاق القعيطى مع منصور بن عمر على مناصفة شبام

وأرسل القعيطى يخبر نجل أمير مارب بأن لا حاجة إلى مواصلة سيره إلى حضرموت وأنه مستعد لدفع نفقات الجيش وتكاليفه ، فأبى الخالدى إلا التقدم بجيشه ، وقيل إن منصور ابن عمر هو الذى أغراه وطلب إليه الوصول إلى شبام ليكون عوناً له ضـــد القعيطى ، ووصلت فرسان الشريف إلى القطن تنهب وتعيث فساداً . وحاولت فصيلة من الفرسان أن تمر بالمسحرة فى طريقها إلى شبام وكان على رأسها الشريف حسين نفسه فاعترضتهم جماعة من يافع وأطلقت عليهم الرصاص ، ودارت معركة قتل فيها الشريف حسين وثلاثة من بنى عمه وأربعة من جنوده وجرح إثنا عشر جندياً . وقتل من يافع ثلاثة وجرح ثلاثة وتفرق بقية جنود الخالدى عائدين من حيث أتوا

وعلم الشريف عبد الرحمن الخالدى بهذا الحادث المؤلم الذى سبّبه تسرّع ابنه واستبداده برأيه وكان حريصاً على تحسين علاقاته مع القعيطى فتقدم بنفسه إلى القطن وجدد المعاهدة وأزال ما حصل من سوء تفاهم

قتل منصور بن عمر

قلنا إن مناصفة شبام لم تكن حلا للمشكلة ، وإنما كانت تدبيراً مؤقتاً اضطر إليه

منصور بن عمر اضطراراً ريثما تتاح له الفرصة للانتقام من خصمه ، ويظهر أن الأمير منصور ابن عمر لم يجد طريقة أجدى وأسرع من الاغتيال ، فدبر مؤامرة لاغتيال الأمير عوض بن عمر القعيطى مع كبار مستشاريه من يافع وكانوا موجودين فى شبام فدعاهم لحضور مأدبة فى قصره وكان قد وضع أكياساً من البارود تحت البساط فتأخروا عن الحضور

ولم يكن بُدٌّ من ردّ فعل لهذه المؤامرات والمكائد المتكررة من منصور بن عمر ، فقرر الجمعدار عوض بن عمر وضع حد لمشكلة شبام بقتله والتخلص منه ، وأوعز إلى أحد أتباعه فى شبام أن يدعو الأمير منصور إلى وليمة غداء تكون فيها نهايته ، ولبى منصور بن عمر الدعوة وكان فى انتظاره كبار مشايخ يافع وعلى رأسهم الشيخ سالم بن على بن هرهرة ، ولما وصل الأمير منصور تقدم لمصافحته الشيخ سالم بن على وشد على يده وأعطى الإشارة ليافع فهجموا عليه وقتلوه ، وقتل ممن حاولوا الدفاع عنه والمقاومة من آل عيسى بن بدر ومواليهم نحو ثلاثين نفراً . وبذلك تم احتلال القعيطى لشبام سنة ١٢٧٥ هـ

وأبدى القعيطى عطفه على نجل الأمير منصور فقرر له مرتباً شهرياً . ولما رغب فى السفر إلى اندونسيا زوده بكل ما يحتاج إليه ومنحه مبالغ كبيراً من المال

حرب الكرعان

كان سقوط شبام فى يد القعيطى باعثاً لخوف آل كثير وقلقهم ، ورأوا أنهم من الضرورى لسلامة منطقتهم استرداد هذه المدينة المهمة فحشدوا ما لا يقل عن ألفى جندى فى أوائل ذى الحجة سنة ١٢٧٥ هـ وقرروا الهجوم على شبام من الناحيتين الغربية والشمالية . وكان فى شبام الجمعدار عبد الله بن عمر القعيطى فعبأ من عنده من يافع والموالى ثلاث فرق : فرقة بقيت فى المدينة للدفاع عنها ، وهاجمت الفرقتان الأخريان الجيش الزاحف من الجنوب والشمال . وقدمت نجدات يافع من خشامر وقرى القطن ودامت المعركة غربى شبام فى موضع يقال له الكرعان وفى جرب هيصم . فانهزم آل كثير تاركين ثلاثة عشر قتيلا وأصيب خمسة وعشرون بجراح . وقتل من جنود القعيطى أحد الموالى وجرح خمسة

الاستيلاء على حورة

فى سنة ١٢٧٥ هـ باع آل عمر بن جعفر من عائلة آل عيسى بن بدر الكثيرى بلدة حورة وحصونها ومراكزها للقعيطى بخمسة آلاف ريال بواسطة ابن مخاشن الحومى ، وكانت هذه الصفقة سبباً فى نقمة المتحالفين عن معاهدة القعيطى من نهد على ابن مخاشن فتألبوا عليه وأجمعوا على حربه وأمدهم الكثيرى بمدفع من مدافع الميدان ونفقات للمحاربين . ولكن هـــذه المحاولات باءت بالفشل بسبب ثبات ابن مخاشن ومساعدة القعيطى له وتخاذل نهد أثر ذلك

وهكذا تكون حورة المدينة الثانية التى احتلها القعيطى بعد شبام . وكانت السلطنة القعيطية عبارة عن هذه المساحة الضيقة الواقعة ما بين شبام شرقاً وحورة فى الغرب ، وبقيت كذلك مدة حياة الجعدار عمر بن عوض ولم يحصل التوسع إلا فى عهد خلفائه من أبنائه

معركة السحيل

لم يبق من مراكز شبام المهمة بيد آل كثير سوى سحيل ابن مهرى الواقع جنوب شبام ، فقد دافع عنه آل كثير دفاع المستميت وثبتوا أمام هجمات يافع ما يقرب من أربع سنوات تقصف المدافع مراكزهم وتنهمر عليهم طلقات الرصاص ، فيشتبكون مع المهاجمين فى معارك تتساقط قتلاها وجرحاها من الجانبين ، ثم انتهت بتسليم جميع حصون السحيل للقعيطى ، إلا حصن المعيقاب فقد ظل يدافع ، حتى توسط منصب آل الشيخ بو بكر فى عقد صلح وافق عليه الفريقان وسلم الحصن إلى القعيطى بموجب وثيقة الصلح ودفع القعيطى عشرة آلاف ريال مقابل أموال آل مهرى فى السحيل والمسيلة والسباخ النجـــدى التى آلت كلها للقعيطى سنة ١٢٨١ هـ

وفاة مؤسس السلطنة

فى ضحى يوم الأربعاء من شهر صفر سنة ١٢٨٢ هـ توفى فى حيدر أباد الجعدار عمر بن

عوض القعيطى مؤسس السلطنة القعيطية بعد أن وضع حجر الأساس لسلطنة أثبتت وجودها وبرهنت بصلاحيتها للبقاء على أنها من خير إمارات الجنوب العربى ، وإذا لم تتح الفرصة للجمدار عمر بن عوض بأن يعود من الهند إلى حضرموت مسقط رأسه فقد كان القائد الأول لجميع الحركات السياسية والحربية يوجهها بفكيره وارشاداته ، ويمدها بكل ما تحتاج اليه من مال وعتاد وخبرة ومعونة

وقد كتب وصيته المشهورة قبل وفاته بأكثر من سنتين وأوصى بنيه فيها بالتعاون والتعاضد على الحق وبالصبر والرفق بمن ولاهم الله عليهم ، وأن يحكموا الشريعة المطهرة ويسسوا الشكية ، ويرعوا الرعية ، ويصلحوا النية ، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ويرحموا الضعفاء والمساكين وينصروا المظلوم ويردعوا الظالم ، إلى آخر ماجاء فى وصيته

وقد نصت هذه الوصية على أن يكون خلفاءه فى القيام بالأمر بعده أبناؤه الثلاثة عبد الله وصالح وعوض . وأوصى ابنيه محمدا وعليا بالامتثال والطاعة والتعاون على حفظ « مقامهم ومنصبهم » وأن يكونوا جميعاً اخوانا متناصرين على الحق ومتبعين الحق ، وقد أجاز محمد وعلى وصية والدهما بعد وفاته وكانا مثال التعاون والاخلاص مع بقية اخوانهما طيلة حياتهما

والمعروف من شمائله — رحمه الله — أنه كان كريما شجاعا كثير العطف على الضعفاء شهما مقداما خبيرا بالشئون الحضرمية عارفا بعادات القبائل وطرق معيشتهم وأساليب حياتهم وقد أشرف على شئون أبنائه بنفسه وأحسن تربيتهم حتى جعلهم أكفاء للمهمة الكبرى التى خلفها لهم . وقد أرسلهم جميعا إلى حضرموت ما عدا صالحاً فقد أبقاه قيما على شئونه المالية بالهند

سلام الله عليه فى العصاميين الخالدين

(٢٠)

عوض بن عمر القعيطى

بانى السلطنة ـ قدومه إلى حضرموت ـ السلطان الأول ـ التطلع إلى الساحل ـ احتلال الشحر ـ محاولة خطيرة ـ الاستيلاء على الغيل ـ حصن العرلقى ـ احتلال الموانى الشرقية ـ هجوم آل كثير على شبام ـ الخلاف بين القعيطى والكسادى ـ تسليم المكلا إلى القعيطى ـ معاهدة الحماية ـ الأمير ان حسين ومنصر ـ وادى دوعن ـ منطقة حجر ـ وصيته ـ وفاته

بانى السلطنة

ولد فى الهند بحيدر اباد الدكن فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى وقضى هناك فجر شبابه متلقيا ماتسمح به ظروفه من مبادىء العلوم . وكان معروفا منذ صغره بوفرة الذكاء ورجاحة العقل وحسن الاستعداد . وبالرغم من نشأته فى وسط أرستقراطى تغمره مظاهر الثراء والترف فقد نشأ كامل الرجولة ، ميالا إلى الخشونة والتقشف ، محافظا على الأخلاق ، مواظبا على أداء واجباته الدينيـــة ، فلم تبطره النعمة ، ولم تعلّق بأخلاقه وسلوكه هنات المترفين

وكان ملازماً لحضور مجالس والده التى تغص دائما بكبار الحضارم من يافع وغيرهم ، فكان يستمع بكل دقة وامعان إلى مايدور فى هذه المجالس من أخبار حضرموت وحوادثها ، ويستوعب فى ذهنه المتوقد كل مايفوه به المطلعون على أحوال البلاد الحضرمية ، فنشأ كأنه عاش فى حضرموت ، من فرط ما علق بذهنه من مسميات وأعلام وحوادث ، وتاريخ قديم وحديث

ويعتبر الجمدار عوض بن عمر الرجل الأول الذى يعود إليه الفضل الاكبر بعد والده

فى انشاء السلطنة القعيطية والسهر على حمايتها ، وإذا كان والده هو المؤسس الأول لها ، وصاحب الفكرة الأولى فى تكوينها فإنه يعتبر بحق بانيها ومشيّد دعائمها وأركانها ، وإذا لم يكن هو أسن إخوانه فقد كان أكثرهم نشاطاً وجلدا وحماسا وأوفرهم ذكاء ويقظة وأشدهم طموحاً وتطلعاً ، وكان والده يقدر فيه هذه الصفات ، ويحلّه من نفسه محلا خاصا وكثيراً مايعتمد عليه فى حل ما يعرض عليه من مشاكل ، ويعير آراءه ماتستحق من أهمية

قدومه إلى حضرموت

قدم الجعدار عوض بن عمر إلى حضرموت المرة الأولى سنة ١٢٦١ وقد وصل إلى الريضة ليباشر تنفيذ الخطط التى رسمها والده لانقاذ يافع وانشاء السلطنة . فكان يشترك مع أخويه محمد وعبد الله اشتراكا فعليا فى تسيير دفة الأمور ، والأمر الذى يستحق الاعجاب والتنويه أن أبناء الجعدار عمر بن عوض كانوا جميعاً فى حياة والدهم وبعد وفاته مثال التعاون والتساند والأخوة الصادقة والمحبة الصحيحة التى انتدبهم لها والدهم العظيم

وقد عاد الجعدار عوض بن عمر مرات إلى الهند فى مناسبات تتعلق بالشئون العسكرية والسياسية فى حضرموت للاتصال فيها بأبيه القائد الأول والتشاور معه بصددها واتخاذ التدابير الحربية والمالية بشأنها ولربّما اضطرته الظروف وهو بحضرموت للاقدام على بعض التصرفات المستعجلة فيوفق فيها ويقره والده عليها ، ويثنى على جرأته واقدامه وحسن ادراكه . وقد استطاع أثناء توليه السلطنة وقبلها أن يكسب عطف أعيان حضرموت وسادتها بحسن سياسته ومرونته وبعد نظره ، رغما عما قد تشبّع به الجو الذى يحيط به من نفور عن العشائر اليافعية بسبب الإشاعات التى انتشرت عنهم أثناء الفوضى السياسية التى كانت تغمر البـــلاد

السلطان الأول

كان الجعدار عوض بن عمر هو الخليفة الشرعى لوالده بالاشتراك مع أخويه عبد الله وصالح كما تنص على ذلك وصية الجعدار عمر بن عوض التى سبقت الاشارة إليها فى ترجمته

قد أوصى بأن يكون هؤلاء الثلاثة فقط من أبنائه خلفاءه والقائمين بالأمر من بعده ، وأوصى ابنيه محمدا وعليا بالطاعة والامتثال لهم ، فأخذ الجمدار عوض بن عمر عقب وفاة والده يعالج الشئون الحربية والسياسية بكل ما عرف عنه من حنكة ودهاء وسياسة لاقيا من اخوانه الأربعة كل عون وتأييد ، فقد كان هو ألمعهم اسما وأبرزهم شخصية وأقدرهم على مواجهة الصعاب والتغلب عليها

والجمدار عوض بن عمر هو أول من أطلق عليه لقب السلطان من العائلة القعيطية المالكة ، فقد أصدرت حكومة الهند أمراً سنة ١٩٠٢ م بأن يطلق لقب السلطنة على الأمير عوض بن عمر وخلفائه من القائمين بالأمر بعده ، بدلا من لقب الجمدار الذى يعبر فى الاصطلاح الهندى عن رتبة عسكرية خاصة ، وذلك بعد أن أصبحت السلطنة القعيطية ذات كيان خاص معترف به

التطلع إلى الساحل

وكان الحصول على منفذ إلى البحر من أهم الأمور التى تشغل بال الجمدار عوض بن عمر فلا بد من أن تسيطر دولته الناشئة على ميناء تتلقى بواسطته الامدادات الحربية والمالية من الخارج وتجعل منه قاعدة لتوسعها فى الساحل والحد من طموح منافسها الخطير السلطان غالب ابن محسن الكثيرى . واذا كان غالب بن محسن الكثيرى قد فكر نفس التفكير فسبق إلى احتلال الشحر وطرد أميرها على ناجى بن بريك سنة ١٢٨٣ هـ فتلك فرصة هيأتها الأقدار لتدخل القعيطى فى شئون الساحل دفاعا عن الحقوق اليافعية المسلوبة وحماية لنفوذهم ومصالحهم فى الساحل

احتلال الشحر

قدم السلطان عوض بن عمر من الهند فى ٢٣ رمضان سنة ١٢٨٣ هـ على رأس مائتى مقاتل من مهاجرى يافع بالهند وخمسمائة من الهنود الرويله ومعه ثلاث بواخر وست سفن شراعية مزودة بعشرين مدفعا وذخائر كثيرة وقدم الشيخ على الحريبى أحد رؤساء يافع من بلاد

اليوافع يقود ألفا وخمسمائة ١٥٠٠ من شجعانهم ، ووصل من القطن الجمدار محمد بن عمر القصيطى ومعه مائتا مقاتل من يافع ومواليهم وثلاثمائة من الحلفاء ، كما وصل من نجد الأمير منصور بن حسين بن قملا يقود خمسمائة من رجاله بينهم مائة فارس

وفى ٢٤ من ذى الحجة سنة ١٢٨٣ هـ هاجمت المدينة ثلاثة آلاف مقاتل من الجنوب والغرب والشمال ، وأسرع المهاجمون من البحر بزوارقهم إلى البر حيث أنزلت الرجال والمعدات الأمر الذى سهل لبقية الجيش اقتحام الأسوار والهجوم المباغت السريع فلم يقاوم آل كثير سوى يومين فقط انهزموا بعدها تاركين زهاء أربعين قتيلا وقتل من يافع ستة عشر رجلا وعاد السلطان غالب بن محسن إلى حضرموت بفلول جيشه

وعاد السلطان غالب بن محسن لاستئناف الهجوم على الشحر فى رجب سنة ١٢٨٤ هـ مدفوعا باغراء ومساعدة الجمدار عبد الله بن على العولقى صاحب حصن الصداع ، وكان هذا الرجل من أولى المطامع السياسية ومن أصحاب الثروات الواسعة ، وكان السلطان عوض بن عمر فى الشحر على رأس ألف مقاتل من يافع أثناء هجوم آل كثير عليها ، ونجح المهاجمون فى الاستيلاء على أكثر من ثلثى المدينة بعد قتال شديد دام ستة أيام حتى أنهم احتلوا دار باجمال المواجهة لدار ناصر التى يقيم فيها السلطان عوض بن عمر

واشتد ضغط آل كثير على حامية المدينة وأشار رؤساء يافع على السلطان عوض بأن يكون فى إحدى السفن الراسية بالميناء لينجو بنفسه إذا قدرت عليهم الهزيمة فرفض وأطلعهم على خنادق البارود التى أحاطها بدار ناصر وقال لهم إنه صمم على أن يشعل هذا البارود ليموت تحت جدران الحصن هو ومن معه إذا كتبت عليهم الهزيمة ، ورأى رؤساء يافع أمارات الجد فى ملامح وجه قائدهم الأول فجدد ذلك من حماسهم وبث فيهم روح المغامرة فاندفعوا فى شوارع المدينة يلقون بالسلاح الأبيض كل من وجدوه من آل كثير حتى اضطر آل كثير للانسحاب متوهمين أن مددا قد وصل ليافع تاركين مائة وعشرين قتيلا وستين جريحا وعشرين أسيرا ، واستولت الجنود اليافعية على جميع ماخلفوه من مؤن وذخائر ، وقتل من يافع أربعة وعشرون وجرح عشرة

محاولة خطيرة

أقلق الجعدار عوض بن عمر تلك المجهودات العنيفة التي يقوم بها غالب بن محسن الكثيري والتي تعرقل خططه الحربية وتكلفه خسائر فادحة في الأرواح والأموال ، فأول غزو العاصمة الكثيرية ليكون — إذا نجح — في مأمن من أي عدوان يفسد عليه برنامجه السياسي والحربي

جمع ما لا يقل عن سبعة آلاف جندي من يافع وممالكهم ومن الهنود الرويلة وآل تميم وقبائل نهد والقبلة مثل الكرب ودهم ويام وغيرهم من سائر القبائل ، وقد تجمعت هذه الجيوش على حدود المنطقة الكثيرية قادمة إليها عن طريق العبر وشبوه ووادي العين ووادي حذيه وعقبة الفقره ، وكان النقيب صلاح بن محمد الكسادي — أمير المكلا — مشتركا في هذه الحملة بخمسمائة جندي من أتباعه وبمائة ألف ريال استدانها من القعيطي مساهمة منه في نفقات الجيش

وقد تكاملت هذه الجيوش مستعدة للهجوم في أواخر رجب سنة ١٢٨٥ هـ بقيادة الأمراء محمد وعوض وعبد الله وعلي أبناء الجعدار عمر بن عوض وكبار رؤساء يافع . وفي مستهل شعبان سنة ١٢٨٥ هـ بدأوا هجومهم فهاجمت الموسطة وآل تميم ونهد وقبائل القبلة دار الهاجري والمحايل وقسيل وهي حصون الدفاع الغربية لسيئون ، واخترق آل الضبي بقيادة أحمد عامر الحضرمي ويافع الجبل السيله مستهدفين سيئون ، وهاجم الهنود ومماليك القعيطي وأخلاط القبائل بحيرة وهدامة — المخترقة — فاحتلتها بعد مقاومة بسيطة من حامية هدامة ، وكان مهمة هذه الفرقة المحافظة على خط الرجعة وتأمين المواصلات لمهاجمي سيئون ، أما الجيش الزاحف بطريق عقبة الفقرة بقيادة علي صالح الجهوري فكان هدفه احتلال تريم ومشاغبة آل كثير من الخلف

لقد كان هذا الجيش الكثيف مزوداً بأحسن الأسلحة وكامل المعدات ، وكانت الخطة الحربية التي وضعت له محكمة ومنظمة ، ولكن الزمام كان قد أفلت من يد القيادة العامة

غير مستعدة للتفاهم معه والرضوخ لأوامره ، فاستدعاهم إلى الشحر وسجنهم بعد ما كبلهم بالحديد ، ثم أطلق بعضهم بعد تفاهم واتفاق معهم على شروط حيث عادوا إلى الفيل وفر البعض من السجن فالحقوا بالصومال الإيطالى من إفريقيا الشرقية ، وتوجد الآن منهم عائلات كبيرة فى مركه ومقدشوه .

حصن العواقى

الجعدار عبد الله بن على العواقى من أصحاب الرتب العسكرية الرفيعة فى الهند ، ومن المقربين لدى نظام حيدر أباد ، وكان ذا ثروة واسعة وطموح إلى السلطة ، ولما رأى نفوذ القعيطى يتسع فى حضرموت وتتجه أنظاره إلى الساحل طمع هو الآخر فى أخذ نصيبه من تركة الإمارتين المعرضتين للزوال فى الشحر والمكلا أمام المتنافسين الأقوياء .

وسعى إلى توحيد جبهة مع آل كثير وآل عمر با عمر لجلاء يافع عن الساحل ، وكان العواقى لا يخفى عداءه للقعيطى بل بالعكس كان يتوعده ويهدده وأنه سيحول بالاشتراك مع حلفائه دون تحقيق مطامحه . وفى حديث له مع السلطان عوض بن عمر بالهند تبادلا فيه التهديد والوعيد قال السلطان عوض للعواقى إن حصنه بالصداع سيكون مصيره الخراب بأيدى يافع ، وان عليه نذراً أن ينقل جزءاً من ترابه بعد هدمه إلى حيدر أباد لينثره أمام العواقى والمتعصبين له من أعوانه ، وقيل إن السلطان عوض وفى بنذره هذا بعد استيلائه على الحصن .

وتوفى العواقى سنة ١٢٨٤ هـ فى حيدر أباد ، وخلفه ابنه الوحيد محسن بن عبد الله الذى ورث من أبيه عداء يافع والقعيطى ، فاستمر هذا متعاوناً مع آل كثير فى إقلاق راحة القعيطى فى الساحل وإثارة القلاقل والمشاغبات ضده . وكان سقوط الفيل فى يد يافع فرصة للهجوم على حصن العواقى والبر بوعد السلطان عوض فى هدمه وتخريبه .

وتحركت فرقة من الجيش الذى احتل غيل با وزير متجهة إلى الحصن الذى يقع شرقى مدينة الفيل بالقرب من الصداع ، وكان قد تحصن فيه جماعة كبيرة من العواقى وآل عمر با عمر ومن انضم إليهم من البادية ، ونظراً لضخامة الحصن ومناعته وقوة بنائه اكتفى السلطان

عوض بضرب الحصار عليه عدة أشهر حتى أكلت حاميته الجلود والدم ، وحاول العوانق أن يحصلوا على مساعدة عسكرية من آل كثير بذلوا لهم من أجلها الذهب والسلاح فلم يفلحوا

وكانت تجرى أثناء الحصار مناوشات حربية ، ثم لم يقو المحاصرون حتى على إطلاق الرصاص من شدة الجوع ، وحفر الجنود من يافع مراديب تحت الأرض عند ما امتنع عليهم الحصن ليحرقوه بالبارود فسلم أهل الحصن قبل أن تتم هذه العملية ، وخرج من بقى منهم فى حالة يرثى لها ، وبذلك تمكن القعيطى من القضاء على أهم مركز فى الساحل كان يستخدم ضده

احتلال الموانىء الشرقية

أرسل السلطان عوض بن عمر قبل احتلال الغيل ثلاثمائة مقاتل من الشحر إلى الخامى فاحتلوها سنة ١٢٨٧ هـ ثم احتلوا رأس باغشوه والغرن والديس بدون مقاومة تذكر . وفى سنة ١٢٨٨ هـ أرسل خمسمائة مقاتل احتلت قصيعر بعد قتال مع حامينها ، وبذلك تم احتلال الموانىء الشرقية جميعها وأصبحت المناطق المجاورة لهذه الموانىء تابعة لسلطة القعيطى

هجوم آل كثير على شبام

كانت الانتصارات التى أحرزها القعيطى فى الساحل سبباً فى ازدياد نقمة آل كثير وتضاعف قلقهم فانتهزوا فرصة ذهاب معظم يافع من شبام إلى القطن فى ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ لقضاء أيام العيد هناك بين أهليهم ، فهجموا على شبام يوم الزينة العاشر من ذى الحجة ودخلوها ونهبوا المتاجر وروّعوا السكان

وكان فى شبام الجعدار عبد الله بن عمر القعيطى على رأس عدد قليل من يافع ، فأرسل إلى القطن يطلب النجدة ، فقدم عليه خمسمائة وسبعون مقاتلا قاتلوا آل كثير فى شوارع المدينة قتالا عنيفاً حتى اضطروهم إلى الانسحاب بعد أن قتل منهم خمسة وعشرون ، دفن عشرون منهم فى موضع على مقربة من سدّة شبام عند نخلات تعرف الآن بنخل عشرين ، وقتل من يافع سبعة

الخلاف بين القعيطى والكسادى

فى سنة ١٢٨٨ هـ توفى النقيب صلاح بن محمد الكسادى حاكم المكلا قبل أن يتمكن من دفع المائة الألف الريال التى استدانها من القعيطى أثناء الحملة الكبرى على آل كثير، فطالب السلطان عوض بن عمر خليفته النقيب عمر بن صلاح وشدد عليه فى المطالبة مغتنما فرصة وجوده فى المكلا على رأس قوة من جنده، فاضطر النقيب إلى الموافقة على التنازل عن نصف المكلا وعن بروم والحرشيات للقعيطى مقابل مائتين وخمسين ألف ريال يقتطع منها الدين الذى على والده وكان ذلك سنة ١٨٧٣ م

وكان هذا التنازل الذى يبدو فى الظاهر كتسوية للنزاع نذيراً بتفاقم فتنة بين القعيطى والكسادى، فقد أخذ النقيب عمر يفكر فى التخلص من الفخ الذى وقع فيه ولم يجد أحسن من الالتجاء إلى آل كثير مستعيناً بهم على خصمه القعيطى فأرسل إليهم سراً يحثهم على مهاجمة الشحر ويخبرهم بضعف حاميتها ويعدهم بالمساعدة فطمعوا فى النصر هذه المرة أو أرادوا أن يجربوا حظهم مرة أخرى وأقبلوا بقبائلهم وعبيدهم وعسكروا فى دفيقة بالقرب من الشحر تحت قيادة عبود بن سالم الكثيرى ولكنهم رجعوا خائبين بعد أن طال عليهم المقام بدون جدوى ودب فى صفوفهم الفشل واستولى عليهم الملل

وأرسل آل كثير مرة ألفاً وأربعمائة مقاتل إلى الكسادى لمساعدته فى حرب القعيطى فثارت حماسة يافع الموجودين بالشحر وطلبوا من السلطان عوض بن عمر أن يسمح لهم بالتعرض لهذا الجيش قبل أن يصل إلى الكسادى فى المكلا فلم يوافقهم، ولكنهم تغلبوا عليه فى النهاية وتجهز منهم ثلاثمائة مقاتل تحت قيادة عمر عوض القعيطى وانضم إليهم من غيل با وزير مائتا مقاتل بقيادة سعيد أحمد الحضرمى والتقى هذا العدد القليل من يافع بالجيش الكثيرى فى موضع يقال له ـ انتخم ـ

وكان آل كثير قد دبروا خطة محكمة لتطويق يافع بعد أن تحصنوا فى مواقع حصينة، ونشبت معركة حامية قتل فيها من يافع خمسة وأربعون ومن آل كثير إثنا عشر ثم انسحبت

جنود القعيطي وواصل الجيش الكثيري سيره إلى المكلا بعد أن حز رأسي القائدين اليافعيين عمر عوض القعيطي وسعيد أحمد الحضرمي — وكانا من بين القتلى — وسار بهما على رأس جريدة إلى المكلا ، وقد بقي هذا الجيش مرابطاً في الحرشيات بضعة شهور ثم عاد إلى الداخل دون أن يصنع شيئاً

وكان هذا العداء السافر للقعيطي من جانب الكسادي من بين الأسباب التي جعلت السلطان عوض بن عمر يعجل بالتفكير في القضاء على سلطة الكسادي . أضف إلى ذلك أنه بينما كان السلطان عوض في المكلا أثناء اقتسامها مناصفة بينه وبين الكسادي دبر النقيب عمر بن صلاح مكيدة كاد يذهب السلطان عوض ضحيتها ، ولكنه استطاع أن ينسحب بمن معه من يافع بطريق البحر في وضع آثار غيظه وحمله على التعجيل بالحل النهائي لمشكلة الكسادي

ولم يجد أفضل من أن يتجه إلى حكومة عدن التي قامت بدور الوسيط بينهما واستدعت إليها النقيب عمر وأخذت منه ومن القعيطي وثيقة بالتحكيم ، ثم أصدرت حكمها بأن خيرت النقيب بين إحدى ثلاث : إما أن يدفع المائة الألف التي على والده للقعيطي حالا ، أو يسلم من القعيطي مائة ألف أخرى ويتخلى له عن المكلا ويتنقل هو إلى بروم ، أو يسلم من القعيطي مائتي ألف ويتخلى له عن الإمارة بأسرها

تسليم المكلا إلى القعيطي

ورفض النقيب عمر جميع هذه الخصال وطلب من حكومة عدن أن تعيده إلى المكلا ففعلت ، وبعد عودته بنحو أسبوع وصلت بارجة حربية إلى المكلا خرج منها ضابط إنكليزي عرض على النقيب أن يقبل إحدى الخصال الثلاث التي عرضتها عليه حكومة عدن وقال له : انه سيضطر — في حالة رفضه — إلى ضرب المدينة بالمدفع

ولم يجد النقيب عمر بُدًّا من تسليم نفسه إلى قبطان البارجة — دراجون — التي أبحرت به إلى عدن في طريقه إلى زنجبار في نوفمبر سنة ١٨٨١ م مفضلا الجلاء عن المكلا على قبول

الحكم وحمل معه ما أمكن حمله من أموال وأمتعة فى ثلاثة عشر مركباً شراعياً ويرافقه عدد من أتباعه وحاشيته

ووجدت بخط بعض المعنيين بالتاريخ الحضرمى أن جلاء الكسادى عن المكلا كان فى سنة ١٨٧٧ م الموافق ١٢٩٤ هـ وبذلك دخلت المكلا وملحقاتها تحت سيطرة السلطنة القعيطية ونفوذها

معاهدة الحماية

لقد أصبحت أهم الموانىء فى الساحل الحضرمى تحت نفوذ القعيطى وفى قبضته بالإضافة إلى شبام والقطن وحورة فى الداخل ، وكان له إلى جانب ذلك قوة تحمى سلطته الناشئة وأنصار فى طول البلاد وعرضها يؤيدونها بكل أنواع التأييد . وبذلك أصبحت حقيقة واقعة لم يتردد ممثل الحكومة البريطانية بعدن فى الاعتراف بها رسمياً باسم التاج البريطانى

وكان السلطان عوض بن عمر قد اتخذ قراراً هاماً بالاشتراك مع أخيه عبد الله يقضى بضرورة الدخول فى معاهدة رسمية مع الحكومة البريطانية لحماية سلطنتها الناشئة من أى عدوان من الخارج أو الداخل ، وبدأت المفاوضات فعلا بواسطة المستر هنتر معاون حاكم عدن الذى قدم إلى الشحر لهذا الغرض

وفى يوم الثلاثاء ١٣ فبراير سنة ١٨٨٨ الموافق ٢١ جمادى الثانية سنة ١٣٠٥ هـ وقعت معاهدة الحماية هذه فى الشحر أمضاها السلطان عوض بن عمر وأخوه عبد الله بحضور المستر هنتر ثم أمضاها حاكم عدن الجنرال هوج بعد ذلك عن الحكومة البريطانية

وأهم نصوص المعاهدة : اعتراف القعيطى بأنه تحت حماية بريطانيا العظمى ، وموافقته على أن لا يرتبط مع أية دولة أجنبية أو شركة إلا بعد رضى حكومة بريطانيا وموافقتها . وفى مقابل ذلك تعهدت الحكومة البريطانية بأن تحمى الدولة القعيطية من اعتداء أية دولة أجنبية ، وأن تساعد فى قمع كل حركة عدائية ضده من الداخل . وهذه هى المعاهدة الأولى مع حكومة القعيطى

الأميران حسين ومنصر

فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٨ م الموافق سنة ١٣٠٦ هـ توفى الجعدار عبد الله بن عمر بالشحر فطالب ولداه حسين ومنصر فى الحال بنصيبهما فى حكم البلاد ، وكان الأول حاكما فى الشحر والآخر فى غيل با وزير ، واحتدم النزاع بينهما وبين عمهما وكاد يؤدى إلى فتنة ، وفشلت كل تسوية للخلاف ، فاضطر السلطان عوض أن يلجأ إلى حلفائه الانكليز الذين وافقوا على أن يغادر الأميران البلاد إلى الهند مقابل تعويض عن مطالبهما . وقد أرسلت حكومة عدن بارجة إلى الشحر فنقلت الأمير حسين إلى عدن ثم لحقه بها أخوه منصر حيث سافرا منها إلى الهند . وبذلك أصبحت السلطنة محصورة فى نقب السلطان عوض بن عمر فقط

وادى دوعن

استمر الوادى بعد جلاء قوات الكسادى عنه على حالته من الفوضى والانقسام وفقدان الأمن والعدالة وتحكم الأقوياء فى الضعفاء وإرهاق الأهالى بالضرائب الفادحة التى لا تقوم على أساس ولا تهدف إلى غاية سوى إشباع حاجة الرؤساء إلى المال الذى يقدمونه وقوداً للفتن والحروب المستمرة فيما بينهم

ولم يستطع الأهالى صبراً على هذه الحالة التى لا يعرفون لها من آخر ، فقدم المفكرون منهم عرائض الشكوى والتذمر إلى السلطان القعيطى الذى قام بمفاوضات مع حاكم الحريبة الشيخ عبد الرحمن بن على بن عبد الكريم العمودى ، وقد قبل هذا أن تخضع منطقة نفوذه للقعيطى مقابل مائتى ريال تدفع له شهرياً من ضرائب سوق الحريبة . ثم أعلن عصيانه وحبس بعض الذين قدموا عرائض الشكوى إلى القعيطى ، فاضطر السلطان عوض بن عمر إلى حربه ، ولم يثبت ابن عبد الكريم أكثر من أربعين يوماً هرب بعدها متوجهاً إلى جهة القبلة بعد أن قُتل جماعة من أصحابه

ولم يلبث أن جمع عسكراً كثيفاً من البادية هاجم بهم الحريبة فى رمضان واستولى عليها وأكثر من السلب والنهب . وأعد السلطان القعيطى عدته لحسم الموقف ، فأرسل قوة كبيرة

من المكلا بقيادة مولاه عبد الخالق الماس ، وأشار على الأمير صلاح بن محمد بن عمر القعيطي أن ينجده بقوة من القطن ، فقدم بنفسه إلى دوعن على رأس مائتي مقاتل ، ووقف حاكم بضة وزعيم آل العمودي الأكبر على الحياد كما وقف غيره من آل العمودي ومنعوا أتباعهم من القبائل أن يساعدوا ابن عبد الكريم

واستنجد حاكم الحريبة بقبائل الدين والقسم فجاءه ألف وخمسمائة منهم ، واشتبكوا في معارك متعددة انتهت بهزيمة العمودي واحتلال الحريبة وما تحت نفوذه من قرى دوعن سنة ١٣١٧ هـ بعد أن تكبد الجيش القعيطي مشقات ، وعانى صعاباً كثيرة . ثم أسند حكم الوادي إلى المقدم عمر بن أحمد با صُرَّة الخامعي السيباني الذي قدم للجيش القعيطي مساعدة فعالة في حربه للعمودي

وقد كان القعيطي مبتعداً عن الاصطدام بقبائل ليسر حتى بدأت قبائل هذا الوادي تتحكك بجنود القعيطي من يافع ، وحصل نزاع بين الحنابشة سكان الجحي وبين آل باهبري الذين استنجدوا بالحالكة سكان وادي ليسر ، فتدخل المقدم عمر بن أحمد با صره لمساعدة الحنابشة وأمدهم بالمال والسلاح وبالجنود من يافع وأرسل القعيطي من المكلا ذخائر وأسلحة . واستمرت الحرب نحو ستة أشهر انتهت باندحار قبائل الحالكة ، وبعد بضع سنين وصل إلى المكلا رؤساء آل بلحمر مع بقية زعماء الحالكة وبعض آل العمودي وحالفوا القعيطي وبذلك انضم وادي ليسر إلى سلطته

منطقة حجر

يسكن هذه المنطقة ويسيطر عليها قبائل أشداء معظمهم من نوح يتقاسمون السلطة فيما بينهم . وفي هذه المنطقة يوجد نهر حجر العظيم الذي يمر بأجود الأراضي الصالحة للزراعة وغراسة النخيل وأشجار الفاكهة ، وهي بعد ذلك من المواقع المهمة للدفاع ، وبها مراكز استراتيجية ذات أهمية كبرى . ولذلك فقد أدرجها السلطان عوض بن عمر ضمن برنامجه وأتى على الله أمام الكعبة الشريفة عند ما زارها حاجاً أن لا يميته حتى يضمها إلى سلطته

وفى سنة ١٣١٧ هـ جهز ستمائة مقاتل من يافع وآل تميم لاحتلال هذه المنطقة وعلمت بهم قبائل حجر فكمنوا لهم فى رءوس الجبال المشرفة على الوادى الذى سيمر به الجيش القعيطى ، وبينما كانت الجنود تسير فى طريقها آمنة مطمئنة انهمرت عليها طلقات الرصاص كالمطر من المواقع التى كمنت فيها القبائل ، فذعر الجيش الذى فوجىء بهذه المعركة على حين غرة وحاول الدفاع دون جدوى فانسحب تاركا ثلاثة وستين قتيلا

لم تضعف هذه الهزيمة من عزيمة القعيطى ولم تصرفه عما عقد العزم عليه من احتلال هذه المنطقة الغنية الخصبة ، فأعاد الحملة عليها سنة ١٣١٨ هـ حيث أرسل مائتى مقاتل من يافع وبمعيتهم وزيره السيد حسين بن حامد المحضار وزوده بالمال لشراء أراضى بوادى حجر تكون نواة للتدخل فى هذه المنطقة ، واستطاع المحضار بحكمته ودهائه أن يعقد حلفاً بين الحكومة القعيطية وبين قبائل حجر ، وكان الحلف فاتحة النفوذ القعيطى فى هذا الوادى ، فقد تم بعده بالتدريج خضوع جميع قبائل حجر وميفع ، ودخلت هاتان المنطقتان تحت حكم الدولة القعيطية وأصبحتا جزءاً من السلطنة ومن أحد ألويتها الهامة ، وسوف يظل هذا الجزء المهم من الدولة مصدرا عظيما للثروة القومية إذا اتجهت النية الصادقة إلى استغلاله والاستفادة منه

وصيته . وفاته

وتفادياً للنزاع والشقاق بين خلفائه كتب السلطان عوض بن عمر وصيته فى سنة ١٣١٤ هـ ١٨٩٨ م والتى تنص على أن يكون خليفته الأول بعد وفاته ابنه السلطان غالب ثم ابنه الآخر عمر بن عوض ثم حفيده صالح بن غالب ، كما نصت على أن يكون الثانى فى الخلافة نائباً عن الحاكم فى المكلا عندما يكون الآخر فى الشحر والعكس بالعكس ، كما يجب أن يكون هذا كبير موظفى الدولة - أى رئيس الإدارة - وتعرضت هذه الوصية لتعيين نوابه عن الحاكم فى مدن الأرياف وواجباتهم فى تقديم الحسابات له عن الدخل والصرف وغير ذلك من تعليمات رآها لازمة للمحافظة على أملاك العائلة فى الهند وحضرموت

وفى سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٩ م توفى السلطان عوض بن عمر فى الهند فى حيدر أباد حيث

الحفل بجنازته احتفالا يليق بمركزه البارز في هذه الإمارة الهندية ، وشيع إلى مرقده الأخير تين ثناء المعجبين وصالح دعواتهم

لقد أدرك عوض بن عمر هذه السلطنة فكرة في رأس والده ثم صحبها مشروعا ضخما وقف حياته لتحقيقه وإخراجه إلى حيز الوجود ، ثم غادرها حقيقة واقعة تتمثل في أكبر رقعة من القطر الحضرمي تمتد في الساحل من حدود قصير شرقا إلى منطقة حجر غربا وتكون نواتها في الداخل من المناطق الواقعة ما بين شبام في الشرق وحورة في الغرب وترتبطها بأكثر القبائل مواثيق حلف تطورت بعد ذلك إلى نفوذ شمل جميع المناطق التي تسكنها هذه القبائل ، ولم يشأ أن يترك هذه السلطنة الناشئة عرضة للمواصف والتقلبات ، فعقد مع بريطانيا العظمى معاهدة الحماية لهذه الدولة ، فليرقد رقدته الأخيرة مطمئنا إلى نجاحه ، واثقا من قوة بناء السلطنة وثباته

وبمقتضى وصيته خلف في السلطنة ابنه الأكبر السلطان غالب المتوفى سنة ١٣٤٠ هـ ١٩٢٢ م ، وكان شهما جوادا معروفا بحب الخير والرحمة بالضعفاء والمحتاجين والإحسان إليهم ، كثير المحبة لشعبه وإسداء الخير له . ثم تولاها بعده السلطان عمر بن عوض الذي اهتم بتنظيم الجيش حتى أصبح قوة فعالة منظمة ذات فائدة كبيرة للمحافظة على الأمن في البلاد ، وفي عهد هذين السلطانين حصلت إصلاحات في تنظيم الجهاز الحكومي وأنشئت محاكم شرعية ومصلحة للجمارك في المكلا يقوم عليها موظفو الدولة ، وحصل اهتمام بالتعليم والصحة العامة ، إلى غير ذلك من أوجه الإصلاح

وبعد وفاة السلطان عمر سنة ١٣٥٤ هـ تولى السلطنة صاحب العظمة السلطان صالح بن غالب الذي كان عهده نقطة تحول في التاريخ الحضرمي بأجمعه

(٢١)

صالح بن غالب القعيطى

مولده . دراسته ـ ولعه بالعلم ، رحلاته إلى الخارج ـ رغبته فى الإصلاح ـ المعاهدات مع حكومة بريطانيا ـ توطيد الأمن ـ عقوبة آل جابر ـ تجديد المدنة ـ العناية بالجيش ـ تحسين الإدارة ـ الخدمات الاجتماعية ـ الوحدة الحضرمية

مولده . دراسته

ولد السلطان صالح بن غالب فى العقد العاشر من القرن الثالث عشر الهجرى بالهند فى حيدر أباد الدكن ، وفضلا عن حدب والده عليه ورعايته له فقد كان موضع عناية جده العظيم السلطان عوض بن عمر ، حيث كان يختصه بمزيد من الحب ويؤثره على غيره من أفراد الأسرة

وفى سن مبكرة التحق بالتدريب العسكرى وانضم إلى الجيش فى حيدر أباد ، ثم انصرف إلى الدرس والتحصيل ، وأكب على تلقى العلوم والمعارف مستعيناً فى ذلك بكبار علماء عصره فى الهند وبموهبته الفذة فى الاستفادة من كل ما تصل إليه يده من كتب القدماء والمحدثين ، حتى نال حظاً كبيراً من العلوم التى لا يمكن التوسع فيها إلا للأذكياء من حملة الشهادات الجامعية العالية

ولعه بالعلم

ثم أخذ يتتبع أنباء النهضة العلمية الحديثة ويقرأ ويستوعب كل ما وصل إليه العلم الحديث من مكتشفات ومخترعات ، وربما حاول بنفسه تطبيق بعض النظريات العلمية وتجربة ما يدرسه من أصول الفن والصناعة ، وكثيراً ما يصلح بيده بعض الأجهزة والآلات كالراديو والميكروفون

وأداة تسجيل الصوت وأجهزة السينما والكهرباء وغيرها من المخترعات الحديثة

وقد دفعه ولعه بالبحث وحبه للعلم إلى تأليف عدة كتب لها قيمتها من الناحيتين العلمية والأدبية فكتب مصادر الأحكام الشرعية فى ثلاثة أجزاء، والآيات البينات فى الدلالة على خالق الكائنات، ومفردات القرآن بالعربية والأوردو، ومبحث وجوب التعبد بالآحاد، وكتباً أخرى فى الأصول والهندسة والملاحة البحرية وغيرها

وله مع زواره من العلماء والأدباء ورجال الدين من وطنيين وأجانب مواقف تنطق بفضله وغزارة علمه وسعة اطلاعه. فقد كان يبحث مع كل من يضمه مجلسه من حملة العلم وأرباب الثقافة بحث المتضلع الواثق من معلوماته فيدهشهم بما يحويه دماغه الكبير من علوم ومعارف. وقد اعترف المستر وندل فلبس — رئيس البعثة الأمريكية التى زارت حضرموت أخيراً فى طريقها إلى بيحان للبحث عن حضارة القتبان — بأن بعض الأسئلة العلمية التى كان يوجهها إليه صاحب العظمة نزلت على رأسه نزول الصاعقة حيث لم يستطع الإجابة عليها فاضطر أن يحيلها إلى بعض المختصين من أفراد بعثته الذين حضروا هذه المقابلة

وهو يتكلم إلى جانب لغته العربية اللغات الهندية والفارسية والإنكليزية والفرنسية. وتوجد لديه أكبر مكتبة فى جنوب الجزيرة العربية تحوى مجموعات من الكتب القيمة فى اللغات العربية والإنكليزية والهندية، وقلّ أن يوجد كتاب قيم من هذه الكتب لم يطلع عليه أو يستفيد منه. وقد وضع هذه الكتب أخيراً فى مكتبة عامة بالعاصمة تعرف بالمكتبة السلطانية لتكون فى متناول جميع القراء من أفراد الشعب

رحلاته إلى الخارج

وصاحب العظمة من المحبين بالمدنية الحديثة المتتبعين لأحدث تطوراتها، المشجعين للاستفادة منها، والاقتباس من كل صالح مفيد من آثارها. وفى نفس الوقت يعتبر من أشد الشرقيين محافظة على التقاليد القومية النافعة، ولا عجب فى ذلك فهو أحد علماء الدين البارزين الواقفين على أسرار الدين الإسلامى، الواثقين من صلاحيته لحكم الحياة وحل مشاكلها،

وتلبية حاجاتها المتجددة

وللوقوف على آثار هذه المدنية ومظاهرها قام برحلات عديدة لزيارة بلدان العالم المتحضر فزار كثيراً من بلدان أوربا كما زار تركيا ومصر وغيرها من البلاد العربية والإسلامية ، هذا فضلا عن زيارته لعواصم الهند ومراكز النهضة الحديثة فيها . وقد زار الحجاز والأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج

رغبته فى الإصلاح

وقد كانت ثقافة السلطان صالح الواسعة وخبرته بشئون العالم ووقوفه على أحواله وتطوراته سبباً فى اختلاف نظرته إلى الحكم وواجباته عن نظرة غيره ممن سبقه من السلاطين ، فالبلاد فى نظره أمانة فى عنق الحاكم عليه أن يسعى بكل الطرق والوسائل لتقدمها ورفاهيتها ، وليست عقاراً خاصاً به يستغله لمصلحته الخاصة

وعلى هذا الأساس وجه دعوته إلى سلاطين حضرموت وأعيانها وسادتها للاشتراك فى إصلاح البلاد وترقية أبنائها عند ما كان نائباً عن عمه السلطان عمر فى المكلا سنة ١٣٤٦ هـ فلبى نداءه السلطان على بن منصور الكثيرى وجماعة من الأعيان ، وتكونت فى الشحر لجنة تحت رئاسة كل من السلطانين صالح بن غالب وعلى بن منصور قررت إيفاد مندوب عن الحكومتين إلى جاوه لدعوة الحضارم المهاجرين هناك للاشتراك فى هذا الإصلاح . وقد جاء فى خطاب السلطان صالح إلى حضارم جاوا ما نصه :

« لقد دعانى الواجب الوطنى أن أبذل قصارى جهدى فى إصلاح وطنى الحضرمى المبارك ، وأجتهد بقدر طاقتى ونفوذى فى إزالة ما فيه من أسباب القلاقل والفتن ، ووضع أساس متين للعدل والأمان ، وحسم الفوضى والاستبداد ، وقد هدتنى هذه الفكرة إلى السعى فى وضع خطة أساسية أتمكن بها من إيجاد اتحاد تام بين أفراد الأمة ، وإيجاد وئام وثقة بين الأمة والقوة الحاكمة . وإزالة سوء التفاهم من بينهم ليتيسر لنا الوصول إلى ما نحن بصدده ، فوجهت الدعوة إلى من شممت فيهم رائحة الصلاح من أعيان حضرموت وطلبت منهم أن يرسلوا وفداً

إلى من ساداتها وأعيانها ورؤسائها ، ورجوت منهم تلبية دعوتي للإصلاح فلبوا دعوتي بارتياح »

« ولما تمت المفاوضة واستقر رأينا على إبرام اتفاق بيننا يكون أساس الوحدة القومية ، كما تقرر أن نرسل وفدين اثنين وفداً إلى حضرموت يطوف على جميع القبائل والسكان لتفهيمهم مقاصدنا ودعوتهم إلى الإصلاح بالطرق السلمية ، ووفداً يتوجه إلى جاوا لاستنهاض همم أهل الوجاهة واليسار من الوطنيين الأحرار للأخذ بيـــــد الهيئة الاجتماعية والاشتراك في إقامة جمعية من الوطنيين تساعد مع الهيئة الحاكمة في الأقطار الحضرمية وهيئة الوفد الحضرمي في إجراء الإصلاحات الوطنية اللازمة كنشر المعارف وإقامة شركات وطنية لإنماء الزراعة وإحياء الصناعة »

ثم قال « وقد أوفدت إليكم أحد رجالنا الأخصاء وهو الأستاذ الفاضل الشيخ الطيب السلمي مندوباً ومفوضاً من قبلي للمفاوضة معكم في كل ما به إصلاح الوطن الحضرمي وأبنائه وأرجو أن تتوفقوا معه لما يحقق آمال إخوانكم بالوطن فيكم »

وقدم الطيب السلمي إلى سنغفورا وانعقد المؤتمر الحضرمي هناك المعروف بمؤتمر سنغفورا في شوال سنة ١٣٤٦ هـ الموافق إبريل ١٩٢٨ م ، ولكن بعض الهيئات الحضرمية لم تشترك فيه بسبب الخلاف الموجود حينذاك بين الإرشاديين والعلويين وقيل عن المؤتمر ما قيل فكان ذلك من بين أسباب فشله وعدم تنفيذ قراراته

وقد ظهرت رغبة السلطان صالح في إصلاح الأوضاع بحضرموت في شكلها العملي عند ما تولى السلطنة بعد وفاة عمه سنة ١٣٥٤ هـ فقد جاء في خطابه الذي ألقاه عقب توليه الحكم ما يلي :

« ولا يخفى عليكم أن فلاح الأمة لا يتأتى إلا إذا كانت عرى الوفاق بين السلطان والرعايا وثيقة ، وكان الأمن والسلام ضاربين في جميع نواحي المملكة وأطرافها ، لأن السلطان والرعية كالأب الشفوق وأولاده فلكليهما حقوق لبعضهم على بعض ، فعلى السلطان

أن يبذل جهده فى تنمية الملك وترقية أحوال الرعية ، ولا ينجح فى هذا المرام إن لم تكن الرعية مستعدة كل الاستعداد لمناضدته فى مهامه وتوثيق عرى الوفاق معه ، وعليه أن يدفع الظلم والعدوان عن رعيته ، ويحفظها تحت عنايته وعدله ، ويعمل لتحسين كافة شئونها الاجتماعية »

وكانت هذه الرغبة فى الإصلاح من بين الأسباب التى حملته على قبول مساعدة الحكومة البريطانية فى إقرار الأمن فى البلاد وتحسين الإدارة وإصلاح شئون الثقافة والصحة العامة والعمران وتنظيم المالية وغيرها . وقد تم من هذه الإصلاحات الشىء الكثير الذى كان فساد الأوضاع فيما مضى يحول دون تحقيقه

المعاهدات مع حكومة بريطانيا

كانت أولى صلات حضرموت الرسمية بحكومة عدن هى معاهدة سنة ١٨٨٨ م التى عقدها مع حكومة بريطانيا السلطان عوض بن عمر جدّ صاحب الترجمة ودخلت بلاده بموجبها تحت الحماية البريطانية

وفى سنة ١٩١٨ م ـ ١٣٣٦ هـ عقدت فى عدن معاهدة بين القعيطى والكثيرى فى عهد السلطان غالب بن عوض القعيطى قبل فيها سلاطين آل كثير أن تكون معاهدة سنة ١٨٨٨ م ملزمة لهم وارتضوا بتنفيذ شروطها وتعهداتها بأمانة ، وبذلك دخلت بلادهم لأول مرة تحت الحماية البريطانية منذ ذلك التاريخ

ومن بين نصوص هذه المعاهدة اعتراف السلطان القعيطى وسلاطين آل عبد الله بأن حضرموت إقليم واحد من متعلقات الدولة البريطانية تابع لسلطان الشحر والمكلا ، وأن آل عبد الله يحكمون فى داخل حضرموت على مدن وقرى سيئون وتريم وتريس والغرف وحريضة والغيل فقط ، وأن فخذ الشنافر تابعون لسلاطين آل عبد الله فيما شملته حدودهم

واعترف وقبل سلاطين آل عبد الله ـ فى هذه المعاهدة ـ بأنهم لن يعترضوا فى الحكم على حضرموت ما عدا المدن والقرى السابق ذكرها ، وأنه ليس لهم حق التعرض فى محلات

أخرى، كما ارتضوا بأن تكون جميع معاملاتهم ومراسلاتهم مع الدولة البريطانية بواسطة السلطان القعيطي

وينص الشرط السادس في معاهدة عدن هذه على أن الفريقين يوقفان القتن وألا يصير من أحدهما انتقام أو مطالبة في عوض، وإذا حدثت مخاصمات في المستقبل تجتهد حكومة عدن في إصلاحها بواسطة التحكيم

وقد أمضيت هذه المعاهدة في ١٧ شعبان ١٣٣٦ هـ وقعها السلطان غالب بن عوض القعيطي عن نفسه وخلفائه، والسلطان منصور بن غالب وأخوه محسن عن دولة آل عبد الله

وفي هاتين المعاهدتين تقف الحكومة البريطانية بحضرموت عند حدود الحماية فقط. ولكن العلاقة الجديدة بين حكومة بريطانيا والسلطنة القعيطية نظمت على أساس معاهدة الاستشارة التي تم التوقيع عليها في أغسطس سنة ١٩٣٧ م أمضاها السلطان صالح بن غالب عن نفسه وورثته وخلفائه، ووقعها عن بريطانيا المستر رايلي : الوالي والقائد الأكبر في محمية عدن

وينص البند الأول على أن يتعهد السلطان بأن يقبل نصيحة المستشار الذي تعينه حكومة بريطانيا في جميع الأمور ما عدا المسائل المتعلقة بالديانة المحمدية والعادة. أما البند الثاني والأخير فهو ينص على اعتراف الحكومة البريطانية بحق سلاطين الشحر والمكلا في تعيين خلفائهم عرضة لموافقة حكومة جلالة الملك

وفي عام ١٣٣٩ م عقدت معاهدة باستشارة مماثلة مع السلطان الكثيري عند ما أعيد النظر في الاتفاقية القعيطية الكثيرية لسنة ١٣٣٦ هـ لإزالة بعض الاعتراضات في النص الأصلي. وبمقتضى هاتين المعاهدتين أصبح المستر إنجرامس أول مستشار مقيم للسلطنتين بالإضافة إلى وظيفته كمعتمد بريطاني لمحمية عدن الشرقية التي تتكون من الإمارات القعيطية والكثيرية والواحدية وبلاد المهرة

توطيد الأمن

وكان من الأمور المسلم بها أن انعدام الأمن فى المناطق القبلية بحضرموت هو من أكبر العوائق لتقدم البلاد وإصلاحها من جميع النواحى ، وكان كل شىء يوحى بعدم استطاعة سلاطين الحكومتين القعيطية والكثيرية وحدهم إخضاع القبائل التى تعودت الفوضى

ومهما يكن من أمر فان الحكومة البريطانية التى وقفت سابقاً عند حدود الحماية ، ولم يبد منها أى اهتمام بالشئون الداخلية لحضرموت ، أصبحت تفكر فى الاهتمام بهذه الأمور ومن الواضح أن الدافع الأول لها فى ذلك هو المحافظة على مصالحها الخاصة ، فهى تخشى توسع بعض الدول الأجنبية ومطامعها كإيطاليا مثلا فى ذلك الوقت ، وتريد أن تبقى عدن فى أمان من أى تهديد يسببه احتلال دولة أجنبية لأى قطر من أقطار الجنوب إلى غير ذلك من الأسباب

وكان بداية هذا الاهتمام أو أول مظاهره قيام السير برنارد رايلى الضابط المقيم فى عدن آنذاك ـ والذى أصبح والياً فيما بعد ـ بزيارة لحضرموت سنة ١٩٣٣ م وكنتيجة لهذه الزيارة قرر إرسال المستر انجرامس ليرفع تقريراً عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى البلاد ، وقد طاف المستر انجرامس حضرموت سنة ١٩٣٥ م وأرسل تقريره إلى لندن لدراسته

وعاد المستر انجرامس مرة ثانية إلى حضرموت فى سنة ١٩٣٦ م لتنفيذ السياسة الجديدة التى قررتها الحكومة البريطانية ، وكانت هذه السياسة تهدف أولا وقبل كل شىء إلى توطيد الأمن فى كافة أنحاء البلاد ، وقد عقدت بين كثير من القبائل المتحاربة الهدنة الأولى لمدة ثلاث سنوات تبتدىء من ذى الحجة سنة ١٣٥٥ = ١٩٣٦ م

وأعلنت الهدنة باسم السلطانين ورحبت أكثرية القبائل بها بعد مفاوضات لإقناعهم بفائدتها ونتائجها الطيبة اشترك وساهم فيها عدد من الرؤساء والأعيان أصحاب المقاصد الحسنة ، وكان الكل يتطلعون إلى إنهاء حالة الخوف والفتن والقتل التى تعيش فيها البلاد

وعقب إعلان هذه الهدنة تم تأليف مجلس للصلح الغرض منه تسوية الخلافات التى

تحدث بين القبائل بعد دراستها حتى يساعد ذلك فى التقليل من أسباب الفتن والاضطرابات ، ولتمر فترة الهدنة فى أمن وسلام ، ولكن الناس كانوا غير واثقين من قدرة الحكومتين على تنفيذ الهدنة ومعاقبة من تحدثه نفسه بخرقها والإخلال بشروطها .

عقوبة آل جابر

كان السادة آل الكاف قد قاموا بإنشاء طريق للسيارات من تريم إلى الشحر ، وصرفوا فى تعبيدها مبالغ ضخمة ، وكانت القبائل التى تتركز معيشتها فيما يحصلون عليه من أجور لنقل بضائعهم التى تنقل البضائع بين الساحل والداخل ، قد عارضت فى إنشاء هذا الطريق ، ووضعت العراقيل فى سبيل مشروع السادة آل الكاف الذى لم يكن من أهدافه الاضرار بمصالح القبائل طبعاً ـ وإن كانت مشكلة أصحاب الجمال قد بحثت فعلا عقب افتتاح هذا الطريق

ورغم القوانين الصارمة التى وضعتها الحكومتان لتحديد أنواع البضائع التى تحملها السيارات فان ذلك لم يخفف من قلق أصحاب الجمال وخوفهم من القضاء على أهم مصدر لارتزاقهم

وحدث فى ١٦ رمضان سنة ١٣٥٥ هـ ٣٠ نوفمبر ١٩٣٦ أن تقدم أحد قبيلة آل جابر واسمه صالح بن سعيد بن إسماعيل بن يماني ووضع أحجاراً على الطريق بقرب الخرب ومنع سيارة آل الكاف من المرور وكان يركبها المستر انجرامس وجماعة آخرون وطلب منهم دراهم بالتهديد كما يقول إنذار حكومة عدن الموجه إلى رؤساء آل جابر

وفى ٣٠ رمضان ١٣٥٥ هـ ١٤ ديسمبر ١٩٣٦ تقدم رجل آخر من نفس القبيلة بالقرب من ـ رسب ـ وأطلق الرصاص على سيارة آل الكاف وكان فيها القبطن ـ بتش ـ الضابط البريطانى الذى استعير من سلاح المهندسين الملكى لمسح الطريق فتعطلت السيارة وجرح نفران من الركاب

وقد وجهت حكومة عدن إنذاراً إلى رؤساء آل جابر تأمرهم فيه بأن يدفعوا حالا الغرامة المفروضة عليهم نظراً لعجزهم عن الدفاع عن الاتهامات الموجهة إليهم كما يقول الإنذار

أما هذه الغرامة فهي عشرة جمال سليمة وثلاثون بندقية ومائة شاة وأضاف النقود والبضاعة المأخوذة من الركاب ، وذلك نحو ثلاثين ريال ، ويضاف إلى هذه الغرامة تسليم ستة رهائن من كل بيت من القبيلة . ورفضت قبيلة آل جابر تنفيذ هذا الحكم ، فقام سلاح الطيران الملكي بالقاء القنابل عليهم وعلى مساكنهم ، وأنزل بهم أضراراً بالغة ، وكان الناس يعتقدون قبل ذلك أن حكاية القاء القنابل ضرب من التهديد فقط

بعد أن أنزلت الحكومة عقابها الصارم بآل جابر وجهت إلى الذين يتعرضون للطرق من القبائل إنذاراً تحذرهم فيه وتطلب منهم أن يتعبروا بما حل بهذه القبيلة وقال لهم الإنذار : إن آل جابر أوقفوا المسافرين وأطلقوا الرصاص على السيارات وأخذوا نقوداً بالتهديد وبسبب عدم تسليمهم للغرامة التي فرضت عليهم رمتهم الطائرات بالقنابل من الجو مدة بضعة أيام فسببوا خسائر فادحة وأضراراً ومنعوا من الدخول إلى البنادر والأسواق

ثم قال الإنذار : إن رمي القنابل مخيف جداً فهو يهدم البيوت ويتلف الزرع ويطرد الناس من مساكنهم . والحكومة البريطانية ترغب في أن تكون صديقة للناس ولا تريد أن ترميهم بالقنابل ولكنها تريد أن يعيش الناس في الحمية بأمان فيقوموا بأعمالهم وينالوا السعادة . وكان هذا الإنذار الحكومي المؤرخ في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٥٥ هـ موقعاً بإمضاء المستر انجرامس

تجديد الهدنة

كان أجل الهدنة الأولى التي تمتد إلى ثلاث سنوات فقط ينتهي في عام ١٩٤٠ م ولذلك عملت الترتيبات لمد أجلها إلى عشر سنوات أي إلى سنة ١٩٥٠ م ، ومرة أخرى بذل الرؤساء والأعيان كل ما في استطاعتهم للحصول على توقيعات القبائل على هذه الهدنة العامة ، وقد نالوا في ذلك توفيقاً كبيراً فقد حصلوا على ما لا يزيد على ألف وثلثمائة توقيع يمثل مختلف القبائل في الجهة الحضرمية . وفي النهاية أصبحت هذه الهدنة صلحاً عمومياً ، فقد تناسى الناس أثناء هذه المدة أحقادهم وثاراتهم أو اضطروا إلى تناسيها ، وعاشوا في جو من الاطمئنان والأمن يختلف

كل الإختلاف عما ألفوه من قلق واضطراب ، وإن كان البعض قد شعر بفقد نفوذه وهيبته أمام السلطة الجديدة التى أخذت قوتها تثبت وجودها بشكل واضح ملموس ، كما شكا البعض الآخر من عدم البت فى قضاياهم التى يتقدمون بها إلى الجهات المسئولة للفصل فيها ، وكانوا لذلك يتحسرون على ضياع سلطتهم كما حدث شىء من هذا القبيل

العناية بالجيش

وللمحافظة على الهدوء والاستقرار اللذين بدأت البلاد تنعم بهما وجهت الحكومة عنايتها إلى إعادة تنظيم الجيش الحكومى المعروف بالجيش النظامى وغيره من قوات الأمن . ولهذا الغرض ألغى نظام سلطة المقاومة السابق من يافع وموالى الدولة ب العبيد — وأضيف مساعد حربى بريطانى إلى موظفى المستر انجرامس ليشرف على تدريب قوات الأمن المختلفة فى البلاد

وأنشأت الحكومة قوة جديدة تعرف بالشرطة القعيطية المسلحة لتقوم ببعض أعمال البوليس وكذلك بواجبات عسكرية فى المناطق المريفية ، كما أعيد تنظيم الشرطة المدنية فى نفس الوقت . وكونت الحكومة البريطانية قوة خاصة تحت إشرافها المباشر تسمى جيش البادية الحضرمى على طراز الجيش العربى المشهور بالأردن ، واستقدم له ضباط أردنيون وتكفلت الحكومة البريطانية بدفع نفقات هذا الجيش ، وكان الغرض منه القيام بأعمال الأمن فى المناطق البعيدة كمناطق الحدود والأجزاء التى لم تستقر بعد فى محمية عدن الشرقية

تحسين الإدارة

وكانت الخطوة الثانية التى اتجهت إليها الحكومة بعد استتباب الأمن وتأمين المواصلات هى تحسين الإدارة . ومعلوم أن هذا الاتجاه يتطلب اعتمادات مالية تمكن الإدارة فى الدولة من القيام بمسئولياتها فى نواحى الخدمات العامة على اختلاف أنواعها ، ولذلك وضع نظام مالى للدولة على أساس الطريقة المالية المعروفة فى تقييد الإيرادات وضبط وجوه الصرف وإعداد الميزانية لكل عام حيث تصبح القانون المالى للسنة ولا يمكن الإخلال بها أو الخروج على نظامها . وقد تسلم السلطان بوعائله بموجب هذا النظام الجديد مبالغ معينة ثابتة فى الميزانية بدلا

من إطلاق يده فى واردات الدولة — كما يشاء هو — كما كان الحال سابقاً

وتم تجهيز الجهاز الإدارى للدولة فى شكل سكرتارية تشتمل على إدارات مسئولة عن جميع نواحى الحكومة تحت إشراف وتوجيه سكرتير الحكومة وقسمت السلطنة إلى ألوية عهد بإدارتها إلى نواب حدد اختصاصهم والى مناطق يديرها قوام تحت إرشاد النواب، وحددت العلاقة بين السلطان وإدارته بتأليف مجلس للدولة للنظر فى شئون الدولة العليا ويتكون من بعض كبار الموظفين ومن أعضاء غير رسميين معينين يمثلون بعض النواحى فى البلاد، والسلطان فى هذا المجلس يصادق على القوانين التى تقوم بتنفيذها الإدارة التى يرأسها سكرتير الدولة، ولهذا السكرتير وضع أوامر إدارية كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وللسلطان الحق فى أن يتدخل بسلطة عالية عند ما تستدعى ذلك الظروف الهامة

وفى سنة ١٣٦٩ هـ ١٩٤٩ م صدر قانون المجالس البلدية والقروية التى تسلمت سلطتها المحلية من السلطان عن طريق تعليمات تم تحديدها وتعيينها من قبل سكرتير الدولة ويقوم بتنفيذ قرارات هذه المجالس الموظفون الإقليميون التابعون للحكومة المركزية

الخدمات الاجتماعية

وتم تبعاً لتحسين الإدارة وإصلاح الجهاز الحكومى عدة إصلاحات تهدف إلى تحسين الخدمات الاجتماعية والنهوض بالشعب فى حدود إمكانياته، فأنشئت مصلحة للمعارف تحت إدارة ناظر سودانى هو الشيخ القدال سعيد القدال الذى أصبح سكرتيراً للدولة فيما بعد، ثم وزيراً للسلطنة، واستقدمت دار المستشار من السودان المستر جرفس أحد كبار الموظفين البريطانيين فى مصلحة المعارف السودانية ليضع تقريراً لسير إدارة المعارف الحضرمية على ضوئه. وقد تطور التعليم فى حضرموت وفقاً للاقتراحات التى قدمها وبسبب خبرة المدرسين السودانيين الذين استقدموا للتدريس وتدريب المعلمين الوطنيين. وقد تم حتى الآن إنشاء ثلاثين مدرسة ابتدائية فى أنحاء القطر للبنين والبنات، وأنشئت فى غيل باوزير مدرسة متوسطة ومدرسة ثانوية صغرى ومعهد دينى ومدرسة ابتدائية نموذجية. وتقدر ميزانية

التعليم فى الدولة بنصف مليون جنيه

واهتمت إدارة المعارف القعيطية أيضاً بإرسال البعثات من الطلبة المتخرجين من المدرسة المحمودية لإتمام دراستهم الثانوية والعالية فى مدارس السودان ومصر والعراق وسوريا مستعينة فى ذلك بالمساعدات المادية السخية التى تقدمها الجمعية الخيرية بالمكلا والتى تشرف عليها حكومة المكلا . وقد عاد بعض هؤلاء الطلبة بعد أن أتموا دراستهم فشغلوا وظائف التعليم والإدارة .

وإلى جانب الاهتمام بالتعليم أعطت الحكومة جانباً من عنايتها للنواحى الصحية فبنت بالمكلا — العاصمة — مستشفى يعمل فيه أطباء مهرة وزودته بالأدوية التى توزع مجاناً وبغرفة للكشف بالأشعة وأخرى للعمليات الجراحية وعشرات من الأسرة للمرضى الذين تتطلب حالتهم البقاء فى المستشفى حيث يصرف لهم الدواء والغذاء مجاناً ، ودرب عدد لا بأس به من الوطنيين للعمل فى المستشفى وفى وحدات صحية فى أكثر مدن الدولة وقراها . وتشرف على هذه الناحية الصحية مصلحة خاصة تحت إدارة رئيس الأطباء الهندى المستر — رندى — وهو يقوم بالإشراف على الناحيتين الوقائية والعلاجية . وعين أخيراً دكتور بريطانى هو المستر — كوركل — ليقدم نصائحه فى تحسين الأحوال الصحية فى المحميات بأجمعها

وفى سنة ١٩٣٩ م أنشئت مصلحة للبريد ، ثم أسست إدارة زراعية فى كل من الدولتين القعيطية والكثيرية تحت إرشاد وتوجيه ضابط زراعى مستعار من الحكومة البريطانية ، وأعدت قروض لإنشاء السدود وترميمها وشراء المضخات والآلات الزراعية . وأنشئت فى سيئون — ورشة — لترميم المضخات والآلات الزراعية

وكان لإصلاح القضاء من المشاريع التى لم تغفلها الحكومة القعيطية ، فقد قامت بتنظيم المحاكم الابتدائية الشرعية فى كافة أنحاء القطر ودربت قضاة هذه المحاكم وزودتهم بالتعليمات والإرشادات . ونظمت طريقة الاستئناف فى العاصمة ، وأصدرت فى عام ١٩٥٠ م قانوناً زجرياً مأخوذاً من كتب الفقه الإسلامى . ويرجع كثير من الفضل فى هذه الناحية إلى نشاط

وغيرة رئيس القضاة الشرعيين الشيخ عبد الله بكير.

وفى عام ١٩٥٢ م صدر قانون يخوّل للإدارة سلطة إنشاء محاكم للمجالس المحلية لتسوية أمور النزاع بين الأهالى فى مناطقهم ، وقراراتها قابلة للتنفيذ من قبل السلطات الإقليمية فى القضايا المدنية التى تتعلق بمبلغ مائة شلن أو أقل ، ولها سلطات لفرض غرامات لا تتجاوز ٣٥ شلناً

الوحدة الحضرمية

هذا هو أهم ما قامت به الحكومة ـ حتى الآن ـ من إصلاحات فى مجال الخدمة الاجتماعية . وينتظر أن تتوفر فرص الإصلاح بصورة أوسع عند ما يتم تحقيق فكرة الوحدة الحضرمية التى تجرى الآن محادثات رسمية بشأنها ، والتى ينتظر أن تضم سلطنات القعيطى والكثيرى والواحدى وبلاد المهره . وإذا تدفقت منابع البترول فى المناطق الحضرمية التى يجرى فيها التنقيب هذه الأيام فانه لا يستطيع الواحد منا أن يتكهن بمدى التقدم الذى ستحرزه هذه البلاد

وإلى جانب الوحدة الحضرمية التى تتجه الجهود إلى تحقيقها برزت فكرة أخرى أوسع وأشمل ترمى إلى توحيد الإمارات الجنوبية بأجمعها توحيداً يحقق الأمانى الوطنية التى أيقظها فجر الوعى الذى صحا على ضوئه سكان هذه الإمارات فأدركوا حاجتهم إلى حياة أفضل ومستقبل مشرق يتجاوب مع الأفكار الجديدة التى تستلهم وحيها من الأمانى القومية العربية العامة وتعاليم الإسلام العظيم

وإنى لعظيم الأمل فى أن يكون هذا الكتاب التاريخى الذى أختمه الآن بالحديث عن الوحدة والاتحاد من بين الأشعة التى تسلّط على الطريق لتتضح وتستقيم للسالكين . والحمد لله فى البدء والختام

رمضان ١٣٧٦ هـ ـ ابريل ١٩٥٧ م

أهم مصادر الكتاب

١ تاريخ ابن خلدون

٢ تاريخ الأمم والملوك للطبرى

٣ الكامل لابن الأثير

٤ معجم البلدان للحموى

٥ الإصابة فى أسماء الصحابة لابن حجر

٦ الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة

٧ أضواء المانى للكبالى

٨ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى

٩ تجارب الأمم لابن مسكويه

١٠ البداية والنهاية لابن كثير

١١ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى

١٢ محاضرات التاريخ الإسلامى للخضرى

١٣ تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على

١٤ تحفة الأعيان فى سيرة أهل عمان للسالمى

١٥ تاريخ الدولة الكثيرية لمحمد بن هاشم

١٦ تاريخ الشعراء الحضرميين للسقاف

١٧ تاريخ حضرموت السياسى للطلاع البكرى

١٨ فى جنوب الجزيرة لصلاح البكرى

١٩ المشرع الروى فى مناقب آل با علوى للشلى

٢٠ جنى الدارج للسيد علوى الحداد

٢١ عقود الألماس « « «

٢٢ تعليقات السقاف على رحلة با كثير
٢٣ نسيم حاجر لابن عبيد الله
٢٤ رحلة إلى الثغرين لابن هاشم
٢٥ مجلة الرابطة العلوية ـ المجلد الأول ـ
٢٦ معالم تاريخ الجزيرة العربية المؤلف

مصادر مخطوطة

١ تاريخ الطيب با فقيه
٢ النور السافر للميدروس
٣ تاريخ الشحر لبا حسن
٤ الرحلة المتوكلية للجرموزى
٥ البضائع لابن عبيد الله
٦ وثائق ومخطوطات قديمة فى تاريخ آل با وزير
٧ مذكرات الأمير على بن صلاح القعيطى

محتويات الكتاب

صفحة

٣ المقدمة :

عاد ـ القحطانيون ـ مملكة حضرموت ـ ملوك حضرموت ـ سبأ تحكم حضرموت ـ حصون دفاع ـ مؤسس شبوه ـ مدينة ميفعة ـ حصن اتود ـ مدينة مذاب ـ حروب حضرموت ـ ذهاب مملكة حضرموت ـ آلهة حضرموت ـ النقود ـ المسند ـ اللغة ـ التقويم ـ القوانين ـ الأجانب فى جنوب الجزيرة ـ أرض الطيب والبخور ـ حضارة العرب القدماء ـ حكومة كندة

٢٧ وائل بن حجر الحضرمى

أنباء الحجاز ـ إسلام حضرموت ـ بقية أبناء الملوك ـ وثيقة تاريخية ـ عودته إلى حضرموت ـ انتشار الإسلام

٣٢ الأشعث بن قيس الكندى

سيد كندة ـ إسلامه ـ زواجه أم فروة ـ بيعة الصديق ـ شرارة الفتنة ـ تطور الموقف ـ الأشعث فى الميدان ـ المعركة الفاصلة ـ الأشعث أمام الخليفة ـ نشاطه الحربى والسياسى ـ أحفاد الأشعث

٤٧ عبد الله بن يحيى الكندى

نذر الثورة ـ الخروج على بنى أمية ـ الزحف إلى صنعاء ـ إلى أم القرى ـ معركة قديد ـ نجدة دمشق ـ طالب الحق فى المعركة ـ الجيش الأموى فى شبام ـ رثاء طالب الحق

٥٦ أحمد بن عيسى المهاجر

أسباب الهجرة ـ إلى الحجاز أولا ـ المهاجر فى حضرموت ـ المهاجر والأباضية ـ

صفحة

حضرموت في عهد المهاجر ـ وفاة المهاجر ـ أحفاد المهاجر

٦٦ أبو إسحاق الهمداني

نسبه ، نشأته ـ أعماله الاجتماعية والحربية ـ خروجه مع الصليحي ـ تاريخه من شعره ـ صلته بأئمة عمان ـ أصحاب النفوذ في عهده ـ حياته الخاصة ـ ما قل ودل

٨٠ عبد الله بن راشد القحطاني

نسبه ، ثقافته ـ هجوم الزنجبيلي ـ ولاية عبد الله بن راشد ـ غزو ابن مهدي ـ مقتل السلطان ابن راشد ـ ضياع المصادر التاريخية ـ أولاد عبد الله بن راشد

٨٩ سالم بن إدريس الحبوظي

أسرته ـ استيلاؤه على حضرموت ـ عماله من آل كثير ـ قحط ومجاعة ـ هجومه على الشحر ـ الحبوظي وبنو رسول ـ حضرموت بعد الحبوظي ـ أوقاف الحبوظي ـ بداية السلطنة الكثيرية

٩٧ عبد الله بن عبد الرحمن باوزير

في عاصمة الرشيد ـ الرحيل عن العراق ـ هجرة آل الوزير ـ الشيرازي الحضرمي ـ أبو بكر بن محمد ـ صاحب الترجمة ـ ابنه عمر ـ مؤسس شيل باوزير ـ عبد الرحيم صاحب الطرائق

١١٣ محمد بن سعيد بادجانه

إمارة الشحر ـ الأمير سعيد بادجانه ـ محمد بن سعيد ـ محاولة احتلال عدن ـ استيلاء آل طاهر على الشحر ـ بادجانه يعود إلى الشحر ـ وفاة الأمير محمد

١١٩ أبو طويرق : بدر بن عبد الله الكثيري

رجل الوحدة الحضرمية ـ أعماله الإدارية والحربية ـ عهده ـ بدر والبرتغال ـ بدر

وعامل الترك ـ سلسلة اضطرابات ـ قبائل الجوم ـ نهد ـ عمد ودوعن وسبيان ـ ثورة المهره ـ عبيد يمانى ـ أمراء من آل كثير ـ أبو طويرق فى المعقل

١٣٥ عبد الله بن عمر بامخرمة

الشافعى الصغير ـ مولده ، نشأته ـ رحلاته ـ أول سكرتير للدولة ـ مؤلفاته ـ مقدرته الأدبية ـ أسرته ـ وفاته

١٤٢ محمد بن عمر بحرق

مولده ، دراسته ـ آثاره العلمية والأدبية ـ نشاطه فى المجتمع ـ رحلته إلى عدن والهند ـ وفاته

١٤٩ عثمان بن أحمد العمودى

نسبه ـ العمودى الأول ـ بطل الوادى ـ خروجه مع أبى طويرق ـ أبو طويرق يهاجم قيدون ـ حصار مدينة بيضة ـ العمودى يحاصر شبوة ـ وفاة صاحب الترجمة ـ آل العمودى وأئمة اليمن ـ ابن مطهر وعيسى بن بدر ـ الخلاف بين آل العمودى ـ

١٦٠ بدر بن عمر الكثيرى

نصير الزيدية ـ اختلافه مع ابن أخيه ـ تدخل الإمام فى الأمر ـ مؤامرة ـ السيف أصدق من الكتب ـ النفير للحرب ـ الأخطاء التى تعرض لها الجيش ـ آخر مفاوضة تفشل ويبدء القتال والمعركة الفاصلة ـ السلطان يطالب الأثمان ـ بدر بن عمر يستعيد سلطنته ـ اختفاء السلطنة الكثيرية

١٧٣ صلاح بن محمد الكادى

لأول مرة فى التاريخ ـ أمراء آل كاد ـ طموح النقيب صلاح ـ احتلال دوعن ـ

صفحة

الدفاع عن المكلا - النهاية المحزنة - جلاء الكسادي عن المكلا

١٨٠ علي ناجي بن بريك

أول أمير من آل بريك - القضاء على المعارضة - الهجوم على غيل باوزير - الكسادي يهاجم الشحر - وفاة علي ناجي الأول - الأمير حسين بن ناجي - ناجي ابن علي - أهم الأحداث في عهده - قدوم الوهابية - حروبه مع الكسادي - هدم القباب والتوابيت - وفاة الأمير ناجي - علي ناجي الثاني - غزو آل كثير للشحر - نهاية دولة آل بريك

١٩٠ غالب بن محسن الكثيري

مولده ، نشأته - سفره إلى الهند - بعث الدولة الكثيرية - دعاية وتمهيد - احتلال تريم - غزو سيؤن وتريس - معركة مرير - غالب بن محسن يعود من الهند - وفاة غالب بن محسن - خلفاؤه من بعده - حدود السلطنة الكثيرية

٢٠١ محمد بن عمر بن سلم

أسرته ، نسبه - ميلاده ، نشأته - رحلته إلى مصر - دراسته في الأزهر - إجازة العلماء له - عودته إلى الشحر - زيارته لوادي حضرموت - لماذا اختار غيل باوزير - بناؤه المعهد - جانب من سيرته - وفاته - تلاميذه

٢١٤ عمر بن عوض القعيطي

ميلاده ، نشأته - هجرته إلى الهند - صريخ يافع - من الدفاع إلى الهجوم - حرب النخيل - الدفاع عن الساحل - المعارك حول شبام - حصون الدفاع عن شبام - مناصفة شبام - الخلاف مع الجيش الخالدي - قتل منصور بن عمر - حرب الكرعان - الاستيلاء على حوره - معركة السحيل - وفاة مؤسس السلطنة

صفحة

٢٢٦ عوض بن عمر القعيطي

بانى السلطنة ـ قدومه إلى حضرموت ـ السلطان الأول علمه إلى الساحل ـ احتلال الشحر ـ محاولة خطيرة ـ الاستيلاء على الغيل ـ بعض ... لقى ـ احتلال الوادى الشرقية ـ هجوم آل كثير على شبام ـ الخلاف بين القعيطى والكسادى ـ تسليم المكلا إلى القعيطى ـ معاهدة الحماية ـ الأميران حسين ومنصر ـ وادى دوعن ـ منطقة حجر ـ وصيته ، وفاته

٢٤٤ صالح بن غالب القعيطي

مولده ، دراسته ـ ولعه بالعلم ـ رحلاته إلى الخارج ـ رغبته فى الإصلاح ـ المعاهدات مع حكومة بريطانيا ـ توطيد الأمن ـ عقوبة آل جابر ـ تجديد المدنة ـ العناية بالجيش ـ تحسين الإدارة ـ الخدمات الاجتماعية ـ الوحدة الحضرمية

٢٥٧ أهم مصادر الكتاب

٢٥٩ محتويات الكتاب

للمؤلف

معالم

تاريخ الجزيرة العربية

أحدث كتاب عن تاريخ جزيرة العرب فى الجاهلية والاسلام ، يعرض فى إيجاز ووضوح لأهم الحوادث التاريخية فى الجزيرة العربية قبل الاسلام وبعده إلى العصر الحاضر

كل شيء فى هـــذا الكتاب يروق القارىء : مادته ، أسلوبه ، تبويب ، تنسيقه ، أناقة طبعه

طبع بمطابع دار الكتاب العربي بمصر فى ٢٨٨ صفحة على ورق أبيض صقيل

الطبعة الأولى : سنة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م

الثمن ( ) شلنات

يوجد فى مكاتب عدن والحجاز وغيرها